

# السيرة المحمدية

والرسالة النبوية  
على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ الحديث

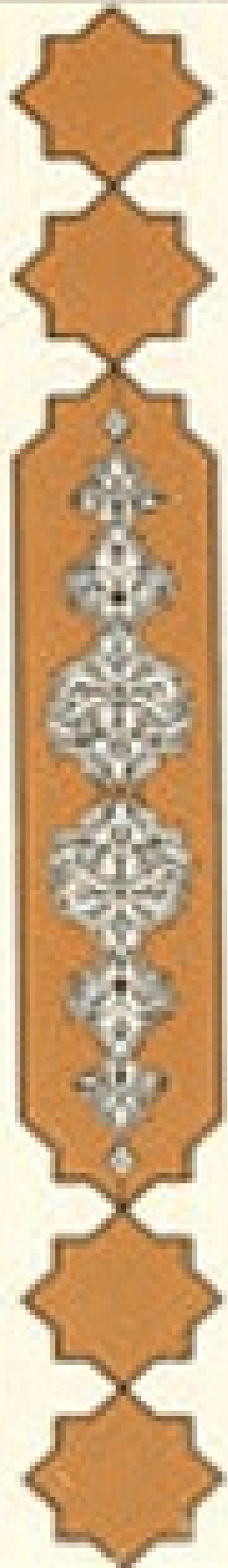
الأستاذ المفتي  
الشيخ محمد رشيد رضا

المطبعة الكائن في  
الذكور يوسف خير وبنو

بغداد

والمطبعة الكائن في

القاهرة مطبعة دار المعارف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية : دراسته تحليليه للسيرة المحمدية على ضوء الكتاب و السنة و التاريخ الصحيح

كاتب:

آيت الله العظمى جعفر سبحانى (دام ظله)

نشرت فى الطباعة:

آلا المرتضى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
٧	السيره المحمديه : دراسه تحليليه للسيره المحمديه على ضوء الكتاب و السنه و التاريخ الصحيح
٧	اشاره
٧	مقدمه المؤلف
٨	مقدمه الملخص
٩	القسم الأول مكّة المكرمه
٩	الفصل الأول
١٧	الفصل الثاني
٢٤	الفصل الثالث
٣٩	الفصل الرابع
٤٩	القسم الثاني المدينة المنورة - يشرب
٥٠	الفصل الخامس الأحداث السنه الاولى و الثانية
٥٠	اشاره
٥٠	حوادث السنه الأولى من الهجره
٥٢	أحداث السنه الثانية من الهجره
٥٩	الفصل السادس أحداث السنه الثالثه و الرابعه من
٥٩	اشاره
٥٩	أحداث السنه الثالثه من الهجره
٦٢	أحداث السنه الرابعه من الهجره
٦٤	الفصل السابع أحداث السنه الخامسه و السادسه
٦٤	اشاره
٦٤	أحداث السنه الخامسه من الهجره
٦٨	أحداث السنه السادسه من الهجره

٧٤	الفصل الثامن أحداث السنة السابعة و الثامنة من
٧٤	اشاره
٧٤	أحداث السنة السابعة من الهجرة
٨٤	أحداث السنة الثامنة من الهجرة
٩٤	الفصل التاسع أحداث السنة التاسعة والعاشره و
٩٤	اشاره
٩٤	أحداث السنة التاسعة من الهجرة
١٠٢	أحداث السنة العاشره من الهجرة
١١٠	أحداث السنة الحادية عشره من الهجرة
١١١	الفصل العاشر
١٢٤	المصادر و المراجع
١٢٤	تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية

## السيرة الممهديه : دراسته تحليليه للسيرة الممهديه على ضوء الكتاب و السنه و التاريخ الصحيح

### إشارة

سرشناسه : سبحانى تبريزى جعفر، - ١٣٠٨

عنوان و نام پديد آور : السيره الممهديه : دراسته تحليليه للسيره الممهديه على ضوء الكتاب و السنه و التاريخ الصحيح [مؤلف جعفر السبحانى اعداد و اقتباس يوسف جعفر سعاده تعريب جعفر الهادى مشخصات نشر : قم آل المرتضى ١٤٢٠ق = ١٣٧٨.

مشخصات ظاهري : ص ٢٨٧

شابك : ٩٦٤-٦٢٤٣-٨٢-٧

وضعت فهرست نویسی : فهرست نویسی قبلى يادداشت : عربى يادداشت : فهرست نویسی براساس اطلاعات فييا.

موضوع : محمد(ص ، پیامبر اسلام ٥٣ قبل از هجرت - ١١ق -- سرگذشتهنامه شناسه افزوده : سعادت يوسف جعفر، گردآورنده شناسه افزوده : هادى جعفر، مترجم رده بندى كنگره : BP٢٢/٩/س٢٥س٩٣

رده بندى ديويى : ٢٩٧/٩٣

شماره كتابشناسى ملي : م٧٨-٧٦١٤٣

### مقدمه المؤلف

#### مقدمه المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم إنَّ أعظم صفحات التاريخ قيمة، هي تلك التي تعكس لنا حياة العظماء، وسيرة الرجال الخالدين، والتي تبحث عنهم بصدق وأمانة وموضوعية، ذلك إنهم معجزة الخليقة بلا ريب، وحياتهم في الحقيقة ملحمة التاريخ الكبرى، وساحة البطولات الخالدة، ومسرح الحماسات العظمية الحية النابضة على مر العصور.

لقد كان أولئك العظماء يعيشون على خط الثورات و التغييرات الاجتماعية، تجد مصداقيتها في حياتهم، وتتجسد في مواقفهم، ولهذا كانوا يشكلون حلقة الاتصال بين مظاهر الدنيا المختلفة المتناقضة، فكانت حياتهم الحافلة بالأحداث، شاهدةً للآلوان والمشاهد المثيرة المتنوعة.

ويأتى على رأس أولئك الرجال التاريخيين والعظماء الخالدين، رسول الإسلام العظيم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ أنه لم تتسم حياة أحد - من حيث وفرة الأحداث وعظمة الأمواج - كما اتسمت حياته «صلى الله عليه وآله وسلم»، ولا اتصفت شخصياً بمثل ما اتصف به ذلك النبي العظيم. فلم يستطع أحدٌ سواه، أن يؤثر في بيئته، ثم في جميع أنحاء العالم، وينفذ إلى أعماق الأعماق بمثل السرعة والسعة التي حصلت له (صلى الله عليه وآله وسلم).

إنمطالعة عميقة لسيرة و حياة هذا الإنسان العظيم، قادرة على أن تعلمنا الكثير الكثير، وأن نوقفنا على مشاهد متنوعة في غاية النفع ومنتهى الفائدة.

وقد ألفت حول حياة رسول الإسلام كتب ورسائل ودراسات كثيرة، بحيث

(٦)

لو أتيح لنا أن نجتمعها في مكان واحد، لشكلت مكتبة ضخمة وعظيمة.

ويمكن القول بأنه ليس ثمة من عظيم استقطب اهتمام التاريخ والمؤرخين والمفكرين، كما أنه ليس ثمة شخصياً عالمية كتب حولها المؤلفون والباحثون، هذا القدر الهائل من المؤلفات والمصنّفات والرسائل والكتب، مثل ما حصل للرسول الكريم (صلى الله عليه وآله

وسلم).

إلا أن أكثر هذه الكتب والمؤلفات تعاني من أحد إشكاليين:

إما أنه جاء على نسق التسجيل المجرد للحوادث، أو النصوص التاريخية دون أن يقوم مؤلفه بتحليلها ودراسة خلفياتها ونتائجها وإصدار الحكم اللازم بشأنها.

أو عميد إلى طائفة من الآراء الحدسية والاجتهادات الباطلة العارية عن الدليل، وإثباتها في مؤلفه على أنها الحكم الحق، وخلط هذه الأحكام مع الأحداث، ليخرج كتابه إلى الجمهور المتعطش إلى تاريخ الإسلام، على أنه التاريخ المحقق.

ويمكن الرد على هؤلاء، بأن الهدف من التاريخ ليس مجرد تسجيل للحوادث وضبطها وتدوينها، بل هو تناول أحداثه من المصادر الصحيحة الموثوق بها، وإبراز عللها، وأسبابها وثمارها ونتائجها، وهو بهذا الشكل يصبح أعظم كنز تركه الأقدمون لنا.

لقد تجنّب أكثر كتّاب السيرة النبوية عن إظهار الرأي في الحوادث، أو القيام بأيّ تحليل للوقائع، بحجة الحفاظ على أصول الحوادث ونصوصها، بل إن أكثر الحوادث التاريخية في العصر الإسلامي أدرجت في الكتب من دون دراسة موضوعية وتقييم دقيق.

أما هذا الكتاب فإنه يتميز بميزتين هامتين:

أولها: إننا عمدنا فيه إلى تناول الحوادث والوقائع المهمة، ذات الفائدة

(٧)

الكبرى والعبر، بالبحث والتحليل مع إبعاد الأحداث الجزئية الصغرى، وقد اتخذنا تلك الأحداث من المصادر الأصلية والأولية التي دونت في القرون الإسلامية المشرقة الأولى.

وثانيتها: إننا أشرنا خلال الدراسة، إلى الاعتراضات والإشكالات، وإلى مواطن الإساءة التي قدّمها المستشرقون المغرضون، وتناولنا بالإجابة على كلّ تلك الانتقادات غير الصحيحة بأجوبة مقنعة وقاطعة.

ولهذا بادرنّا إلى ذكر رأي المؤلفين الشيعة في المسائل التي اختلف عليها مؤرّخو السنة والشيعة، مع ذكر المصادر والشواهد التاريخية الواضحة المبرهنة.

وإننا إذ نقدّم هذه الدراسة التحليلية لشخصية وحياء خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى القراء الكرام، نأمل أن يهتم بها عامة المسلمين وخاصة المثقفون والشباب منهم، ليتناولوا هذه السيرة العطرة بالمطالعة المتأنية والتأمل والتدبر، حتى يمكنهم أن يرسموا خريطة حياتهم وحياء مجتمعهم في ضوء ما يستلهمونه ويتعلّمونه من سيرة وحياء رسول الإسلام «صلى الله عليه وآله وسلم» في هذه الحقبة البالغة الخطورة.

والله وليّ التوفيق جعفر السبحاني قم المقدّسة - مؤسّسة الإمام الصادق (عليه السلام) الأربعاء ٢٧ محرم ١٤٢٠هـ / ١٢ | ٥ | ١٩٩٩م

(٨) (٩)

## مقدمة الملخص

### مقدمة الملخص

كان لي الشرف العظيم والافتخار أن أتقابل مع الأستاذ المحقق والعلامة الشيخ جعفر السبحاني في مكتبته بقم المقدّسة، حينما جمعتني به الظروف والصدف بالحسنة الطيبة والمباركة، أدام الله ظلّه وأطال في عمره الشريف، فقد كنت في قم المقدّسة بهدف تقييم كتابي: «أهل البيت عليهم السلام» وآثارهم في المجتمع الإنساني الذي كان يستدعي أن أعرضه على عدد من علمائنا الأفاضل - أطال الله في أعمارهم وجعلهم أنواراً في الأرض - ليقدموا ما لديهم من مقترحات حول ما جاء فيه من أفكار وآراء قد لا تتناسب مع جزئيات الدين أو المذهب أو المعتقدات الخاصة بالمسلمين عامة والشيعة خاصة.

وكان الشيخ الفاضل ممن أوصيت بالاتصال به للمساعدة في هذا الجانب، فتشرفت بلقائه وتقبل ما عرضت عليه، فله الشكر والتقدير والاحترام، إلا أنه في نفس الوقت تقدم هو الآخر بعرض مماثل، وهو أن أقوم بتلخيص كتابه الكبير: «سيد المرسلين» الذي يتناول فيه سيرة الرسول الكريم محمّد «صلى الله عليه وآله وسلم»، وذلك ليسهل تداوله في الأيدي، فيطلع عليه شبابنا المثقف في هذا الزمن الذي امتنع فيه عن قراءة الكتب المطولة ذات الأجزاء المتعددة، بل بالكاد يطلع على أقل الكتب صفحات وموضوعات وأفكار. وكان عرضه في الحقيقة شرفاً كبيراً لي، وتقديراً منه لي أيضاً، في الوقت الذي اندهشت لعرضه، إذ أنني في كتابي «أهل البيت» تناولت ما يتعلّق من أحداث عن الأئمة الاثني عشر «عليهم السلام» وأولادهم وأحفادهم، دون التعرّض للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) إلا نادراً، فأصبح هذا الكتاب وكأنه يكمل

(١٠)

ولا شكّ ما جاء من وقائع وأحداث في كتابي أهل البيت «عليهم السلام». وقد نهج الكاتب العظيم في تأليفه، بأن قسم كتابه إلى جزئين: تناول في الأوّل منهما أحداث الإسلام والمسلمين في مكّة إلى زمن الهجرة إلى يثرب. وفي الجزء الثاني، قدم شرحاً مفصلاً لأحداث المدينة المنورة سنة بعد سنة، إلا أنه لم يتخذ منهج التنظيم، شكل الأبواب والفصول، بل نهج في تنظيمه بالأعداد والأرقام. ولما كنت أميل نحو تنظيم الكتب في مؤلفاتي إلى الأقسام والأبواب والفصول، فإنني قمت بتقسيمه أولاً إلى قسمين: اختص الأوّل بأحداث مكّة المكرمة.

والثاني: ارتبط بوقائع ومجريات الأمور في المدينة المنورة. ثم إن كلّ قسم اتخذ عدة فصول بحسب الأحداث والوقائع وأهميتها. كما أتى أضفت عدة فقرات كانت بحاجة إلى تفسير بعض الأحداث أو المواقع أو الشخصيات. ثم أعددت قائمة منظمة للمراجع والمصادر التي استفاد منها المؤلف كما أعددت فصلاً خاصاً تناولت فيه ما جاء من قصص وروايات في كتاب العلامة الشيخ تثرى المعلومات المقدمة. وأرجو من الله العليّ القدير أن يكون قد وفّقني في عملي المتواضع هذا، وأن يتقبله الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأهل بيته الكرام، فيكون شفيحاً لي ولأهلي يوم القيامة، وأن يرضي به أستاذنا وشيخنا المحقق العلامة جعفر السبحاني، أطال الله عمره بالصحة الموفورة، ووفقه لما فيه الخير والمصلحة للإسلام والمسلمين. د | يوسف جعفر سعادة الكويت ٢١ ربيع الأوّل ١٤٢٠هـ | ٧/٤ (يوليو) ١٩٩٩م

(١١)

## القسم الأوّل مكّة المكرمة

### الفصل الأوّل

الفصل الأوّل العرب قبل الإسلام  
الأحوال الداخلية في شبه الجزيرة العربية  
الأحوال السياسية في المنطقة المجاورة  
التعريف بأسلاف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)  
(١٤) (١٥) ١. الأحوال في جزيرة العرب لم تكن القبائل العربية الجاهلية المتناحرة، تعيش أيّة حضارة، ولم تكن تمتلك أيّة تعاليم وقوانين وأنظمة وآداب قبل مجيء الإسلام، فقد كانت محرومةً من جميع المقومات الاجتماعية التي توجب التقدّم والرقى، ولذا فلم



يكن من المتوقع أن تصل إلى تلك الذرى الرفيعة من المجد والعظمة، ولا أن تنتقل من نمط الحياة القبلية الضيقة إلى عالم الإنسانية الواسع و أفق الحضارة الرحيب، بمثل هذه السرعة التي وصلت إليه، والزمن القصير الذي انتقلت فيه.

ويمكننا أن نقف على وصف دقيق لحالة العرب قبل الإسلام، من خلال مصدرين إسلاميين أساسيين، وهما:

١. القرآن الكريم، وهو خير مرآة تعكس أحوال العرب وأوضاعهم بالدقة والشمولية.

٢. ما صدر عن الإمام على (عليه السلام) في نهج البلاغة في وصف الحالة قبل الإسلام.

فقد ورد فيهما تصريحات ونصوص صريحة تكشف عما كان عليه العرب في الجاهلية من سوء أحوال، وأوضاع، وأخلاق في جميع الأبعاد والأصعدة.

(١٦)

وبالرغم من أن العرب من ولد عدنان قد اتصفوا بصفات حسنة، إذ كانوا يكرمون الضيف، وقلما يخونون الأمانة، ويضحون في سبيل المعتقد، ويتحلون بالصراحة الكاملة، إضافة إلى براعتهم في فن الشعر والخطابة، وكونهم يضرب بهم المثل في الشجاعة والجرأة، إلا أنهم إلى جانب كل ذلك، كانوا يعانون من مفاسد أخلاقية تطغى على ما لديهم من كمال وفضيلة.

فالمجتمع العربي وخاصة منطقة الحجاز لم تقم فيها حضارة، أو أنه لم يبق أي أثر من هذه الحضارات فيها إلى ما قبل بزوغ الإسلام، وقد شاعت فيه أخلاق وعادات كان أبرزها:

- الشرك في العبادة، حيث عبدوا الأصنام والأوثان والنجوم.

- إنكار المعاد، أي عودة الإنسان إلى الحياة في العالم الآخر.

- هيمنة الخرافات، التي كانت تكبل عقول الناس في المجتمع، حيث تركزت فيها، فكانت سبباً قوياً في تخلفهم، وسداً منيعاً في طريق تقدم الدعوة الإسلامية، فيما بعد، مما جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعمل بكل طاقاته وجهده في محو وإزالة تلك الآثار الجاهلية، والأفكار والمعتقدات الخرافية.

- الفساد الأخلاقي، مثل انتشار القمار - الميسر - والخمر و الزنا واللواط والبغاء.

- وأد البنات، وهي العادة القبيحة التي اعتبرها القرآن الكريم جريمة نكراء لا تمر في الآخرة بدون حساب شديد.

ولذا فإن المرأة كانت محرومة من جميع الحقوق الاجتماعية حتى حق الإرث، كما عدّها المثقفون من الحيوانات تباع وتشتري، وجزء من أثاث البيت.

(١٧)

وكان الرجل يتزوج بزوجة أبيه متى طلقها أو بعد وفاته، وربما تناوب الأبناء على امرأة أبيهم واحد بعد واحد، كما كان الرجل يرث امرأة من قرابته إذا مات عنها، مثلما يرث أمتعة المنزل، إضافة إلى أنهم كانوا يورثون البنين دون البنات.

- تناول الدم والميتة والخنزير، وأكل الحيوانات التي يقتلونها بقسوة.

- النسىء، وهو تأخير الأشهر الحرم، كان يقوم به سدنة الكعبة أو رؤساء العرب، عندما كانوا يقررون استمرار الحرب و الغارات في الأشهر الحرم.

- الربا، الذي شكّل العمود الفقري في اقتصادهم.

- النهب والسلب، فقد كان انتهاب ما في أيدي الناس، والإغارة والقتال، من العادات المستحكمة عندهم، حتى إن بعض حروبهم كانت تمتد إلى مائة سنة أو أكثر، حيث كانت الأجيال تتوارث تلك الحروب، وقد بلغ ولعهم بالقتال وسفك الدماء أن جعلوها من مفاخر الرجال.

- أمياً عن الجانب العلمي والثقافي، فإن أهل الحجاز وصرفوا بالأميين، فلم يتجاوز عدد الذين عرفوا القراءة والكتابة في قريش ما قبل

الإسلام عن (١٧) شخصاً في مكة ، و (١١) نفرأ في المدينة المنورة.

ومن ذلك يمكن القول أن تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، تاريخان على طرفي نقيض: الأول جاهلي ووثني وإجرامى، والثاني تاريخ علم ووحداية وإنسانية وإيمان.

ومن التخلف والانحطاط في الأول، يمكن معرفته مدى تأثير الإسلام وعظمته التعاليم الإسلامية في جميع المجالات والحقول المعيشية. فكيف تحقق

( ١٨ )

ذلك التطور العظيم لهؤلاء العرب الجاهليين في الجزيرة العربية، في حين لم يستطع عرب اليمن الذين امتلكوا الشيء الكثير من الثقافة والحضارة، وعاشوا حياة حضارية متطورة، أن يصلوا إلى هذه النهضة الشاملة، أو تقيم مثل هذه الحضارة العريضة، أو عرب الغساسنة الذين جاؤوا بلاد الشام المتحضرة، والذين عاشوا تحت ظل حضارة الروم، أن يصلوا إلى تلك الدرجة من الثقافة، أو عرب الحيرة الذين عاشوا تحت ظل إمبراطورية الفرس أن ينالوا مثل ذلك الرقي والتقدم، في الوقت الذي تمكن فيه عرب الحجاز من تحقيق تلك النهضة الجبارة، وورثوا الحضارة الإسلامية العظمى، في حين لم يكن لهم عهدٌ بأيّ تاريخ حضاري مشرق، بل كانوا يرزحون تحت أغلال الأوهام والخرافات والأساطير والعادات السيئة.

وخير من يوضح تلك الأوضاع والأحوال، هو الإمام علي (عليه السلام) في الخطبة الثانية من «نهج البلاغة»:

« والناس في فتن انجذم (١) فيها جبل الدين، وتزعزعت سوارى (٢) اليقين، واختلف النجر (٣) و تشئت الأمر، وضاق المخرج، وعمى المصدر، فالهدى شامل، والعمى شامل، عصى الرحمن ونصر الشيطان، وخذِلَ الإيمانُ فانهارت دعائمه، وتكرت معالمه، ودرست (٤) سبله، وعفت شركه (٥) ... فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دارٍ وشرٍ جيرانٍ، نومهم سُهود، وكحلهم دموع، بأرض عالمها مُلجَمٌ وجاهلها مُكْرَمٌ \_\_\_\_\_».

١ . إنقطع.

٢ . الدعائم.

٣ . الأصل.

٤ . نظمت.

٥ . الطرق.

( ١٩ )

وفي الخطبة ٢٦ قال (عليه السلام) :

«إن الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل، وأتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار منيخون (١) بين حجارة حُشن (٢) هت، وحيات صم (٣) تشربون الكدر، وتأكلون الجشب (٤) وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة (٥).

وقال (عليه السلام) في الخطبة ٩٥:

«بعثه (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والناس ضلال في حيرة، وحاطبون في فتنه، قد استهوتهم الأهواء، واسترلتهم الكبرياء، واستخفتهم (٦) الجاهلية الجهلاء، خيارى في زلال من الأمر، وبلاء من الجهل، فبالغ (صلى الله عليه وآله وسلم) في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة».

وأيضاً في الخطبة ١٥١: قال (عليه السلام) :

«أضاءت به (صلى الله عليه وآله وسلم) البلاد بعد الضلالة المظلمة، والجهالة الغالبة، والجفوة الجافية، والناس يستحلون

الحريم، ويستدلون بالحكيم، يحيون على فترة (٧) ويموتون على كفره». وقد أكد تلك الأحوال والحياة، أيضاً، جعفر بن أبي طالب، عندما خطب أمام

١ . مقيمون

٢ . جمع خشاء من الخشونة.

٣ . التي لا تسمع لعدم إنزجارها بالأصوات.

٤ . لطعام الغليظ.

٥ . مشدودة

٦ . طيشتهم.

٧ . على خلوة من الشرائع.

(٢٠)

النجاشي في الحبشة، يشرح أحوال المسلمين والمشركين، فقال:

«أيها الملك، كُنَّا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القويُّمنا الضعيف، فكُنَّا على ذلك، حتَّى بعث الله إلينا رسولاً منَّا نعرف نبيَّه وصدقته وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصله الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام». (١) ٢. الأحوال السياسية في المنطقة

لقد جاروت البيئَةُ التي ظهر فيها الإسلام أعظم امبراطوريتين في ذلك الوقت هما: إمبراطورية الروم والفرس، وهذا ممَّا يجعلنا ندرس أحوالهما لنقف على قيمة الحضارة التي قدَّمتها الإسلام.

فامبراطورية الروم تميَّزت الأحوال فيها بالحروب الداخلية والخارجية، وخاصَّة في صراعها مع دولة فارس، كما كان للمنازعات الطائفية والمذهبية نصيبها في توسيع رقعة الاختلاف فيها، كالحرب بين المسيحيين والوثنيين، حينما مارس رجال الكنيسة أشدَّ أنواع الضغط والاضطهاد بحق الآخرين، الأمر الذي ساعد على إيجاد أقلية ناقمة، كما ساعد على ظهور حالة مهدت لتقبل الشعب الروماني للدعوة الإسلامية فيما بعد. هذا مضافاً إلى أن اختلاف رجال الدين فيما

١ . السيرة النبوية ١ | ٣٣٥ والحديث عن أمسلمة.

(٢١)

بينهم، وتعدَّد المذاهب من جهة، عملاً على التقليل من هيبة الإمبراطورية واتجاهها نحو الضعف والانحلال. وقد أدَّى كل ذلك إلى انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: شرقي وغربي. وقد استغل اليهود ذلك الضعف والانحيار الداخلي فخططوا لإسقاط النظام، ممَّا جرَّ إلى ازدياد جرائم المذابح الانتقامية بين الطرفين، ولم تهدأ الأحوال إلا بعد ظهور الإسلام وانتشاره في تلك الجهات.

أمَّا إمبراطورية فارس، فقد سيطرت على معظم مناطق العالم بالاشتراك مع إمبراطورية الروم، وتميَّزت الفترة بالنزاع الدائم بين إيران الساسانية والروم للسيطرة على مناطق نفوذ جديدة، فقد بدأت الحروب بينهما منذ عهد «أنوشيروان» (٥٣١-٥٨٩م) حتى زمن «خسرو برويز» لمدة ٢٤ عاماً، ممَّا أضعف الدولتين.

وقد اشتهر «برويز» بالميل نحو الترف وحياء البذخ، حتى بلغت أعداد نسائه وجواريه الآلاف منهن، كما كان أرغب الناس في جمع

الأموال والجواهر والآواني.

وفي الجانب الاجتماعي، ظهر التمييز بين الطبقات، فالنبلاء والكهنة كانوا على رأسها تملكوا المناصب الاجتماعية العليا، بينما حرم الكسبة والمزارعون وبقية أبناء الشعب من كافة الحقوق الاجتماعية، سوى دفعهم للضرائب الثقيلة والمشاركة في الحروب. وقد أدى هذا الوضع المتردى إلى أن تمتلك أقلية صغيرة كل شيء وهي نسبة (١١/٥٪) من مجموع الشعب، بينما حرم أكثر من (٨٩٪) من حقّ الحياة تماماً. كما أنّ الأغنياء فقط هم الذين تلقوا التعليم، بينما حُرِمَ الباقون منه، واتخذ الحكّام الساسانيون سياسة الخشونة القاسية مع الناس، وأخضعوهم بالسيف والعنف، وفرضوا الضرائب الثقيلة، ممّا جعل الشعب غير راضٍ على حكمهم وسيرتهم، الأمر الذي جعل الصراع والتنافس يدب بين الأمراء والأعيان

( ٢٢ )

وقادة الجيش، فاختر كل فريق أميراً من أبناء العائلة المالكة، وتفرغ لتصفية الطوائف الأخرى، ممّا أصبح كذلك أسباباً قويّة لضعف الدولة وانقسامها وانحلالها أيام الفتح الإسلامي.

على أنّ الفساد الذي ظهر في أوساط رجال الدين الزرادشت، وتطرّق الخرافات والأساطير إلى المعتقدات الزرادشتية، تسبب في حدوث مزيد من التشتت والاختلاف في آراء الشعب الإيراني وعقيدته، ممّا أفقده الثقة والإيمان بتلك المعتقدات.

وقد أدى تردّي الأوضاع الاجتماعية، والصراع الطويل بين فارس والروم في خلال عشرين عاماً، إلى عقد الصلح بينهما على أساس أن يدفع الروم إلى فارس ما يعادل (٢٠ ألف دينار)، إلّا أنّ الروم عادوا إلى الحرب والمعارك الطاحنة مرّة أخرى لفترة سبع سنوات، تمكن فيها الملك الفارسي خسرو برويز في ٦١٤م من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين وأفريقية، ونهب أورشليم، وحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح (عليه السلام)، وقتل ٩٠ ألف نصراني. وقد حدث ذلك في زمن بعثه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد حزن المسلمون على هزيمة الروم الذين كانوا أصحاب كتاب، ولم يتخذ الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» موقفاً خاصاً اتجاه هذه الأحداث حتى نزل الوحي عليه مبشراً بانتصار الروم في المستقبل القريب، وقد تحققت هذه البشارة في سنة ٦٢٧م. (١) وقد وضع الجيش الإسلامي بحملاته الناجحة، حداً لتلك الأوضاع المضطربة، ونهايةً لذلك الصراع السياسي الدامي الذي استمر خمسين عاماً، وفسح المجال لأن يختار الشعب الفارسي دينه ومعتقداته بحرية في منأى عن القهر والقسر.

١. راجع سورة الروم: ١- ٦.

( ٢٣ ) ٣. التعريف بأسلاف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان من الواجب التحدّث عن أحوال أجداد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لما كان لهم من نصيب هام في تاريخ العرب والمسلمين . ولما كان نسب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ينتهي إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم «عليهما السلام» فإنّه من المستحب أن نتناول أسلاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالعرض والدراسة بدءاً منه (عليه السلام).

١. النبي إبراهيم (عليه السلام) هو بطل التوحيد، جاهد في سبيل إرساء قواعد التوحيد، واقتلاع جذور الوثنية. ولد في بابل - التي تعد إحدى عجائب الدنيا السبع - التي حكمها «نمرود بن كنعان» الذي أمر الناس بعبادته إضافة إلى عبادة الأصنام، ولمّا ذكر له أنّ عرشه سينهار على يد رجل يولد في بيئته، أمر بعزل الرجال عن النساء، في نفس الليلة التي انعقدت فيها نطفة النبي إبراهيم «عليه السلام»، وهي الليلة التي تكهن بها المنجمون والكهنة من أنصار نمرود، ممّا دفع جلاوزته إلى قتل كلّ وليد ذكر. وقد حملت به أمّه - أم إبراهيم - مثلما حملت أم موسى (عليه السلام) به، فأمصت فترة حملها في خفاء وتستر، ثم وضعت في غار بجبل قريب من المدينة للحفاظ عليه، وقضى في هذا الغار فترة ثلاث عشرة سنة، ثم انخرط في المجتمع الذي استغرب وجوده فأنكروه. ورأى في مجتمعه ظواهر التبعيد لغير الله، من نجوم وكواكب وأصنام وعبادة الإنسان، ممّا دعاه إلى أن يحارب في هذه الجبهات، التي أوضحها القرآن الكريم في سورة وآياته الشريفة. وقد بدأ عمّله بمكافحة ما كان عليه أقرباؤه، وعلى رأسهم عمه آزر، وهو عبادة الأصنام والآوثان، ثم

اتَّجه إلى جبهةٍ أخرى أكثر ثقافةً وعلم، وهي التي عبدت الكواكب والنجوم والأجرام السماوية.

وقد أعطى النبي إبراهيم (عليه السلام) سلسلةً من الحقائق الفلسفية والعلمية، لم يصل إليها الفكر البشري يومذاك، في حوارهِ العقائدي مع عبّاد  
(٢٤)

الأجرام السماوية، مدعماً بأدلة لا تزال إلى اليوم، موضع إعجاب كبار العلماء ورواد الفلسفة والكلام. وقد نقل القرآن الكريم في هذا المجال أدلة النبي إبراهيم (عليه السلام) باهتمام خاصٍ وعناية بالغة. (١) فقد اتخذ إبراهيم (عليه السلام) هيئة الباحث عن الحقيقة بدون أن يصدّم تلك الفرق المشركّة ويجرح مشاعرهما. وركّز في عمله على التوحيد في الربوبية، والتدبير وإدارة الكون، وأنّه لا مدبّر ولا مربّي للموجودات الأرضية إلاّ الله سبحانه و تعالي، فأبطل ربوبية الأجرام السماوية بقوله: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (٢)

أمّا بالنسبة إلى عمّه آزر الذي كان ذا مكانة اجتماعية عالية بين قومه، وصانعاً ماهراً ومنجماً، له رأيه وأفكاره في الأمور الفلكية في بلاط نمرود، فإنّه ليس أبوه بل عمّه، وذلك أنّ علماء الشيعة قد اتفقوا على أنّ آباء الأنبياء كانوا مؤمنين بالله موخّدين به، وأكد الشيخ المفيد ذلك في كتابه: «أوائل المقالات» (٣) بل إنّ كثيراً من علماء السنة قد وافقهم في ذلك أيضاً، ولعلّ مناداته بالآب، نظراً لكونه الكافل لإبراهيم (عليه السلام) ردحاً من الزمن، فنظر إليه بمنزلة الآب.

وأمّا بخصوص عقابه، وإلقائه في النار، وعدم تأثره بها وخروجه سالمًا منها، فإنّ السلطات الحاكمة قررت نفيه من البلاد فغادرها إلى الشام، ثم إلى الحجاز مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل، حينما أسكنهما في مكّة، وظهرت بفضلهما عين زمزم، ووفدت جماعات من القبائل لتسكن في تلك البقعة، وأشهرها قبيلة «جرهم» التي تزوّج منها إسماعيل وصاهرهم، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مكّة من

١. ترتبط آية ٧٤ من سورة الأنعام بحواره مع الوثنيين، بينما ترتبط الآيات اللاحقة لها بعبادة الأجرام السماوية.

٢. الأنعام: ٧٩.

٣. أوائل المقالات: ١٢، باب القول في آباء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٢٥)

المدن العامرة، بعد أن كانت صحراء قاحلة وواد غير ذي زرع.

٢. قصي بن كلاب: هو الجدّ الرابع للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمّه فاطمة التي تزوّجت برجل من بني كلاب ورزقت منه بولدين: زهرة وقصي. وقد توفّي أبوه فرباه زوج أمّه ربيعة، إلاّ أنّ خلافاً وقع بين قصي وقوم ربيعة، أدى إلى طرده من قبيلتهم، ولكن أمّه تمكنت من إرجاعه إلى مكّة، فعاش فيها متفوقاً في أعماله ومراكزه، فشغل المناصب الرفيعة، مثل حكومه مكّة، وزعامه قريش، وسدائه الكعبة المعظمة، فأصبح رئيس تلك الديار دون منازع. ومن أهم أعماله:

أ: تشجيع الناس على البناء حول الكعبة.

ب: تأسيس مجلس شوري يجتمع فيه رؤساء القبائل في حلّ مشكلاتهم، وهو دار الندوة.

وأمّا من الأولاد فقد ترك: عبد الدار وعبد مناف.

٣. عبد مناف: هو الجدّ الثالث للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) واسمه: «المغيرة»، ولقبه قمر البطحاء. ومع أنّه كان أصغر من أخيه، إلاّ أنّه حظى بمكانة خاصة عند الناس، فقد اتخذ التقوى شعاراً، ودعا إلى حسن السيرة وصلّة الرحم، ولكن الزعامه والقيادة كانت لأخيه عبد الدار، حسب وصية أبيهما. إلاّ أنّ الوضع تبدّل بعد وفاتهما، فقد وقع الخصام والتنازع بين أبنائهما على المناصب، فانتهى الأمر إلى اقتسامها بينهم، حيث تقرّر أن يتولّى أبناء عبد الدار سدائه الكعبة وزعامه دار الندوة، ويتولّى أبناء عبد مناف سقاية

الحجيج وضيافتهم ووفادتهم.

٤. هاشم: وهو الجد الثاني للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) واسمه: عمرو و لقبه العلاء، ولد مع عبد شمس توأمًا له، وله أخوان آخران هما: المطلب ونوفل.

ومن الأمور المميزة لآبناء عبد مناف، إنهم توفوا في مناطق مختلفة، فهاشم توفى في غزّة، وعبد شمس في مكّة، ونوفل في العراق، والمطلب في اليمن.

(٢٤)

كان يدعو الناس إلى الترحيب بضيوف الله وزوّاره وتكريمهم بالمال والحلال في غزّة كلّ شهر ذى الحجة: «وأسألُكم بحرمه هذا البيت ألا يخرج رجلٌ منكم من ماله لكرامة زوّار بيت الله وتقويتهم إلا طيباً لم يَؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يَؤخذ غضباً». (١) ومن أهم آثاره: أن زعامته لمكّة كانت لمنفعة أهلها وتحسين أوضاعهم، فقد ساهم كرمه في عدم انتشار القحط والجذب، كما أنه حسن من الحالة الاقتصادية في البلاد عندما عقد معاهدة مع أمير الغساسنة، ممّا دفع أخاه عبد شمس إلى أن يعاهد أمير الحبشة، وأخويه نوفل والمطلب أيضاً أن يعقدا معاهدات مع أمير اليمن وملك فارس، وذلك لتجنب الأخطار وتأمين الطرق و سير القوافل التجارية. وقد عُرف عنه أنه المؤسس لرحلتى الشتاء والصيف إلى الشام واليمن.

إلا أن كلكك الإسهامات من جانب هاشم، كانت دافعاً إلى أن يحسده أميّة بن عبد شمس ابن أخيه، وذلك لما حظى به من مكانة وعظمة وتقرّب إلى قلوب الناس، الأمر الذي أجبرهم على الحضور عند كاهن من كهنة العرب، فقضى لهاشم بالغلبة، فأخذ منه الإبل وأخرج أمية إلى الشام نافعاً لمدة عشرة سنين، حسب الشروط التي تمت بينهما. وتبين هذه القصة جذور العداء بين بني هاشم وبني أمية من ناحية، وعلاقات الأمويين بالشام وارتباطهم بها حين اتخذوها عاصمة لدولتهم بعد ذلك من ناحية أخرى.

ومن أشهر أولاده: شيبه، الذي عُرف بـ«عبد المطلب» لأنه تربى وترعرع في حجر عمه المطلب، حيث كان العرب يسمون من ترعرع في حجر أحد، وينشأ

١. السيرة الحلبية: ١/٦.

(٢٧)

تحت رعايته، عبداً لذلك الشخص.

٥. عبد المطلب: وهو الجد الأول للنبي العظيم ورئيس قريش وزعيمها. وأودعت يد المشيئة الربانية بين حنايا شخصيته نور النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» ولذا كان إنساناً طاهر السلوك، نقى الجيب، متزهاً عن أى نوع من أنواع الانحطاط والفساد، وأحد المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وقد اشتهر موقفه الإيماني في عام الفيل، حينما أمر جماعته بالخروج من مكّة إلى الجبال والشعاب، ونزل إلى الكعبة يدعو الله ويستنصره على أبرهه وجنوده مناجياً: «اللهم أنت أنيس المستوحشين، ولا وحشة معك، فاليبت بيتك والحرم حرمك والدار دارك، ونحن جيرانك، تمنع عنه ما تشاء، وربّ الدار أولى بالدار».

وفي الصباح خرجت أسرابٌ من الطيور من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجر في كلّ من رجليه وحلقت فوق رؤوس الجند، ورجمتهم بالأحجار بأمر من الله محطمة رؤوسهم وممزقة لحومهم، وقد أصاب حجر منها رأس أبرهه القائد، فأمر جنوده بالتراجع والعودة إلى اليمن، إلا أنهم أهلكوا في الطريق، حتى أبرهه نفسه مات قبل وصوله صنعاء. (١)

وقد نتج من هذه العملية، أن تحطّم جيش أبرهه، وانهمز أعداء قريش، وعظم شأن المكين، وشأن الكعبة المشرفة في نظر العرب وغيرهم، فلم يجرأ أحد بعد ذلك على غزو مكّة، أو الإغارة على قريش، أو التناول على الكعبة. كما أنّها من جانب آخر، أحدثت في



نفوس القرشيين حالات جديدة خاصة، فقد زادت من غرورهم وعنجهيتهم واعتزازهم بعنصرهم، فقرروا تحديد شؤون الآخرين والتقليل من وزنهم، على أساس أنهم فقط الطبقة الممتازة من العرب. كما دفعتهم

١ . السيرة الحلبية: ١ | ٤٣؛ الكامل في التاريخ: ١ | ٢٦٠؛ بحار الأنوار: ٥ | ١٣٠.

( ٢٨ )

إلى التصور بأنهم موضع عناية الأصنام (الـ ٣٦٠) إذ أنهم فقط الذين تحبهم تلك الأصنام وتحميمهم وتدافع عنهم!! وقد دفعهم كل ذلك إلى التمادي في لهوهم ولعبهم، والتوسع في ممارسة الترف واللذات، وإظهار الولع بشرب الخمر، حتى أنهم مدّوا موائد الخمر في فناء الكعبة، وأقاموا مجالس أنسهم إلى جانب تلك الأصنام، متصورين أن حياتهم الجميلة هذه هي من بركة تلك الأصنام والآوثان!!

كما أنهذه الحالة جعلت قريش تقوم بالغاء أي احترام وتقدير للغير فقالوا: إن جميع العرب محتاجون إلى معبدنا، فقد رأى العرب عامة كيف اعتنى بنا آلهة الكعبة خاصة، وكيف حمتنا من الأعداء.

ومن ذلك بدأت قريش تضيّق على كل من يدخل مكة للعمرة أو الحجّ، وتعاملهم بخشونة وأسلوب ديكتاتوري، وفرضت عليهم ألا يصطحب أحد منهم طعاماً معه من خارج الحرم ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتنى من طعام أهل الحرم ويأكل منه، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكة التقليدية القومية، أو يطوف عرياناً بالكعبة إذا لم يكن في مقدوره شراؤها. و من رفض الخضوع للأمر من رؤساء القبائل وزعمائها، كان عليه أن ينزع ثيابه بعد الانتهاء من الطواف ويلقيها جانباً، دون أن يكون لأحد الحقّ في مسّها حتى صاحبها. (١)

أمّا النساء فكان عليهن إذا أردن الطواف أن يظفن عراة، ويضعن خرقة على رؤوسهن. كما أنه لم يكن يحق لأي يهودي أو مسيحي أن يدخل مكة، إلا أن يكون أجيراً لمكّي، وعليه ألا يتحدث في شيء من أمر دينه وكتابه.

١ . كانت تسمّى عندهم «اللقى».

( ٢٩ )

بالإضافة إلى ذلك، فإنهم أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمناسك عرفه، كما يفعل بقية الناس، حيث تركوا الوقوف بها والإفاضة منها، بالرغم من أنآباءهم - من ولد إسماعيل - كانوا يقرون أنها من المشاعر والحج. (١)

إن كذلك الانفلات الأخلاقي والترف والانحراف، قد هيأ الأرضية وأعدّها لظهور مصلح عالمي.

أمّا بالنسبة لابن عبد المطلب، عبد الله، فقد سعى إلى أن يزوجه، فاختر له: «آمنة بنت وهب بن عبد مناف» التي عرفت بالعفة والطهر والنجابة والكمال. كما اختار لنفسه «دلالة» ابنه عم آمنة، فرزق منها حمزة، عم الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» الذي كان في نفس عمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (٢) وقد تمّ حفل الزفاف في منزل السيدة آمنة طبقاً لما كان عليه المتعارف في قريش، ثم بقي «عبدالله» مع زوجته رداً من الزمن حتى سافر في تجارة إلى الشام، وتوفّي في أثناء الطريق.

ويرتبط بموضوع أسلاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، طهارته «صلى الله عليه وآله وسلم» من دَس الآباء وعهر الأمّهات، إذ لم يكن في أجداده وجدّاته، سفاح وزنا، وهو ما اتفق عليه المسلمون، وصرّح به الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» في أحاديث رواها

السنة والشيعة. فقد جاء عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» إنه قال: «نُقِلْتُمَن الْأَصْلَابُ الطَّاهِرَةَ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةَ نَكَاحًا لَا سِفَاحًا». (٣)

وقال الإمام علي (عليه السلام): «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وسيد عباده كلّمنا نسخ الله الخلق فرقتين، جعله في خيرهما، لم يسهم فيه عاهر ولا

١ . الكامل في التاريخ: ١ | ٢٦٦.

٢ . تاريخ الطبري: ٢ | ٧ وهو يذكر أنه «هاله».

٣ . كنز الفوائد: ١ | ١٦٤.

( ٣٠ )

ضربَ فيه فاجر». (١).

كما ذكر الإمام الصادق (عليه السلام) ذلك مفسراً الآية: (وتقلبك في الساجدين): «أى في أصلاب النبيين، نبي بعد نبي، حتى أخرج من صلبِ أبيه عن نكاحٍ غير سفاح من لدن آدم». (٢)

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٢١٥، شرح محمد عبده.

٢ . تفسير مجمع البيان.

( ٣١ )

## الفصل الثاني

### الفصل الثاني الرسول الأكرم

محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - مولده

- فترة طفولته

- فترة شبابه

- فترة عمله

- زواجه

- أولاده ( ٣٢ ) ( ٣٣ ) ١ . مولده (صلى الله عليه وآله وسلم) ولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في عام الفيل (٥٧٠م) بإتفاق كتاب السيرة، ورحل عن الدنيا في (٦٣٢م) عن ٦٢ أو ٦٣ عاماً، كما اتفقوا على أنه ولد في شهر ربيع الأول، يوم الجمعة السابع عشر منه، عند الشيعة، أما السنة فقد عینوا يوم الإثنين الثاني عشر من الشهر نفسه. (١)

ولمّا كان الشيعة ينقلون أخبار أهل البيت عنهم، فلا بدّ من الإقرار بأنّ ما ينقله هؤلاء ويكتبونه من تفاصيل تتعلق بحياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هي أقرب من غيرها إلى الحقيقة، لأنّها مأخوذة عن أقربائه وأبنائه.

وقد حملت به أمّه «السيدة آمنه بنت وهب» في أيام التشريق من شهر رجب، فإذا اعتبرنا يوم ولادته، ١٧ من ربيع الأول، فتكون مدّة حملها به ثمانية أشهر وأياماً.

وقد وقعت يوم ولادته أحداث عجيبة، فقد وُلِدَ مختوناً مقطوع السرة، وهو

١ . إمتاع الأسماع: ص ٣، وقد ذكر جميع الأقوال التي وردت في ميلاد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» .

( ٣٤ )

يقول: «اللّه أكبر والحمد لله كثيراً، سبحان الله بكرةً وأصيلاً» (١) كما تساقطت الأصنام في الكعبة على وجوهها، وخرج نورٌ معه أضاء مساحه واسعة من الجزيرة العربية، وانكسر إيوان كسرى، وسقطت أربعة عشر شرفة منه، وانخمدت نار فارس التي كانت تعبد، وجفت بحيرة ساوة.



وهدفت هذه الأحداث الخارقة والعجيبة إلى أمرين مؤثرين:

١. فهي تدفع الجابرة والوثنيين إلى التفكير فيما هم فيه من أحوال، فيتساءلون عن الأسباب التي دعت إلى كل ذلك لعلمهم يعقلون. إذ أن تلك الأحداث كانت في الواقع تبشر بعصر جديد هو عصر انتهاء الوثنية وزوال مظاهر السلطنة الشيطانية واندحارها.
٢. ومن جهة أخرى، تبرهن على الشأن العظيم للوليد الجديد، على أنه ليس عادياً، بل هو كغيره من الأنبياء العظام الذين رافقت ولادتهم أمثال تلك الحوادث العجيبة والوقائع الغريبة.

وفي اليوم السابع لمولده المبارك، عقَّ عبد المطلب عنكببش شكرياً لله تعالى، واحتفل به مع عامة قريش.

وقال عن تسميته النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن سببه: أردت أن يُحمد في السماء والأرض (٢)

وكانت أمه (عليها السلام) قد سمته أحمد قبل أن يسميه جدّه (٣) وكان هذا الاسم نادراً بين العرب فلم يسم به منهم سوى ١٦ شخصاً، ولذا فإنه كان من إحدى العلامات الخاصة به \_\_\_\_\_.

١. تاريخ يعقوبي: ٢|٥؛ بحار الأنوار: ١٥|٢٤٨؛ السيرة الحلبية: ١|٦٧.

٢. السيرة الحلبية: ١|٧٨.

٣. السيرة الحلبية: ١|٨٢.

(٣٥)

أما عن رضاعته (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد ارتضع من أمه ثلاثة أيام ثم أرضعته امرأتان هما:

- ثويبة: مولاة أبي لهب، إذ أرضعته لمدة أربعة أشهر فقط، وقد قدر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وزوجته خديجة (عليها السلام) هذا العمل لها حتى آخر حياتها، فأكرمها وأراد أن يعتقها فأبى أبو لهب، وكان يبعث إليها بالصلة حتى وفاتها.
- كما أنها أرضعت من قبل حمزة، وأبا سلمة بن عبد الله المخزومي، فكانوا إخوة في الرضاعة.
- حليلة السعدية، بنت أبي ذؤيب. وكان لها من الأولاد: عبد الله، أنيسة، شيماء. وقامت «شيماء» بحضانه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً.

وقد استلمت حليلة السعدية النبي في عمر لم يتجاوز أربعة أشهر، في عام قحط وجذب، فأصابها الرخاء وازدهرت حياتها بعد ذلك.

ومن المعروف أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يقبل في ذلك الزمان أي ثدي من المرضعات إلا ثدي حليلة (١).

وفي هذه المناسبة، أودَّ القول والتذكير، أنه ينبغي أن يحتفل المسلمون جميعاً بمولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بإقامة المهرجانات الكبرى والاحتفالات، تكريماً له (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو أمر مطلوب ومحَبَّب في الشريعة المقدسة لقوله تعالى: (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٢) وعزَّر بمعنى كرم وبجل.

فلاحتفال بمولده (صلى الله عليه وآله وسلم) يعني ذكر أخلاقه العظيمة، وسجاياه النبيلة، والإشادة بشرفه وفضله، وهي أمور مدحه بها القرآن الكريم: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (٣) (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ). (٤)

١. البحار: ١٥|٣٤٢.

٢. الأعراف: ١٥٧.

٣. القلم: ٤.

٤. الإنشراح: ٤.

(٣٦)

فالاحتفال بمولده الكريم هو احتفال بالقيم السامية، وشكر لله على منة، وإظهار للحب الكامن في النفوس له، وتكريم لمن كرمه الله تعالى وأمر بتكريمه واحترامه وحبّه ومودّته. وهو ردّ على من يزعم بأن ذلك محرم لكونه بدعة، لا يخلو من منكرات ومحرمات كالرقص والغناء. فالمسلمون درجوا في العصور الإسلامية الأولى على الاحتفال بذكرى مولدها بنشاد القصائد الرائعة في مدحه، وذكر خصاله ومكارم أخلاقه وإظهار السرور والفرح، والشكر لله تعالى بلطفه وتفضّله به ص على البشرية. (١)

ولذا كان لا بدّ من أداء هذا الاحتفال في كلّ وقت وزمان، في حياته وبعد مماته. ٢. فترة طفولته (صلى الله عليه وآله وسلم) استقر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قبيلة «بنى سعد» خمسة أعوام زارته أمّه خلالها ثلاث مرّات، وقامت حليلة برعايته شؤونه خير قيام، وبالغت في كفالتة والعناية به، كما حافظ فيها (صلى الله عليه وآله وسلم) على فصاحته و بلاغته، وعندما رجع إلى أمّه (عليها السلام) فكّرت بزيارة المدينة وقبر زوجها عبدالله، ورافقتهم «أمّ أيمن» حيث أمضوا هناك شهراً، رأى فيه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بيت أبيه الذي توفّي فيه ودفن. إلا أنّ أمّه العزيزة توفّيت أيضاً في الطريق إلى مكة بمنطقة الأبواء (٢) ممّا دفع الجميع إلى إظهار المحبة له والعناية به، خاصة جدّه «عبد المطلب» الذي أحبه أكثر من أولاده.

١. للتوسع في هذا الموضوع، يرجع إلى: معالم التوحيد في القرآن الكريم.

٢. السيرة الحلبية: ١٠٥/١.

(٣٧)

وربما كان يتم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في صالحه، فقد أراد الله تعالى منه أن يهيئه لمواجهة المستقبل بشدائده و مصاعبه ومتاعبه، أو أراد ألا يكون في عنقه طاعة لأحد، فنشأ حراً من كلّ قيد، يصنع نفسه بنفسه، وليتضح أنّ نبوغه ليس نبوغاً بشرياً عادياً ومألوفاً، وأنّه لم يكن لوالديه أيّ دخل فيه وفي مصيره، فتكون بالتالي عظمتة الباهرة نابعة من مصدر الوحي وليس من العوامل العادية المتعارفة.

وقد فاجأت الحياة نفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحزينة بوفاء جدّه العظيم «عبد المطلب» وهو في الثامنة من عمره، فبكى عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» كثيراً وظلّت دموعه تجري حتى وُرى في لحدّه. (١) كفالة أبي طالب

كان أبو طالب أخاً لوالد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أمّواحدة، وقد تقبل كفالة النبيص وتحمل المسؤولية بفخر واعتزاز. وفي العاشرة من عمره، شارك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عمّه في إحدى الحروب التي وقعت في الأشهر الحرم فسُميت بحرب الفجار، إلا أنّ «اليعقوبي» ينفي في تاريخه اشتراك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي طالب فيها. (٢) ورافق عمّه في سفره إلى الشام وهو في ربيع الثاني عشر، شاهد فيها «مدين، ووادي القري، وديار ثمود»، وأطلع على مشاهد الشام وطبيعتها الجميلة.

١. تاريخ اليعقوبي: ٢/١٠ حول سيرة عبد المطلب، أنّه كان موحداً لا وثنياً، وإنّ الإسلام قد أخذ الكثير من سننه.

٢. تاريخ اليعقوبي: ٢/١٥.

(٣٨)

إلا أنّ أحداث «بصرى» غيرت برنامج رحلة أبي طالب، ودفعتة إلى العودة إلى مكة، وهي الأحداث المرتبطة بمقابلة الراهب «بحيرا» بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وما تتبأ عنه بقوله: «إنّه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، نجده في كتبنا وما رويانا عن آباءنا، هذا سيّد العالمين، هذا رسول ربّ العالمين يبعثه رحمةً للعالمين. احذر عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا ما أعرف ليقتصدنّ قتله». (١)

أمّا ما قيل عن تلك المقابلة من آراء متطرفة، وبأن الراهب بحيرا علم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمور دينه التي درسها من كتب الإنجيل والتوراة، فهو فريّة المستشرقين والكارهين للإسلام، إذ أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يمكث هناك أكثر من أربعة

أشهر هي فترة رحلة الشام عند العرب، ثم إذا كان هذا الراهب يمتلك هذه الكمية من المعلومات الدينية والعلمية التي عرضها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فلماذا لم يقيم هو بنشرها، فيأخذ شهرته منها؟ ثم لماذا اختار محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) دون غيره ليعرض عليه تلك المعلومات بالرغم من توافد القبائل عليه دوماً؟

إن الآيات القرآنية تصرح بأن الأخبار الغيبية وصلت إلى النبي ص عن طريق الوحي فقط، فلم يكن على علم بها مطلقاً. كما أن كتب التوراة والإنجيل لا تذكر أموراً طيبة عن الأنبياء، في حين أن القرآن الكريم يجعلهم ويعظمهم ويكرمهم، على عكس ما جاء عنهم في كتب هؤلاء.

ولذا لم يعقل أن يقتبس القرآن الكريم من تلك الكتب وبينهما بعد المشرقين. كما أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يشرح تلك القصص والقضايا للناس قبل الوحي والرسالة: (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ). (٢).

١. تاريخ الطبري: ٢/٣٢؛ السيرة الحلبية: ١/١٨٠.

٢. يونس: ١٦.

(٣٩)

فآلية تؤكد على أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لبث في قومه فترة طويلة لم يتلو فيها سورة من القرآن ولا آية من آياته، فكل ما أخبر به هو ممّا أوحى به الله تعالى إليه بعد أن بعثه بالرسالة. (١) ٣. فترة شبابه كانت آثار الشجاعة والقوة بادية على جبينه (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ طفولته وصباه، ففي الخامسة عشرة من عمره قيل أنه شارك في حرب الفجار بين قريش و هوازن، وهي حرب الفجار الرابعة التي استمرت أربع سنوات، كان يناول فيها أعمامه النبال. وتكشف مشاركته في تلك العمليات العسكرية وهو في تلك السن، عن شجاعته وقدرته الروحية الكبرى، ولهذا كان المسلمون - فيما بعد - يحتمون بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عند اشتداد المعركة.

وفي مقابل هذا روى المورخ اليعقوبي (المتوفى ٢٩٠هـ) في تاريخه:

وقد روى أن أبا طالب منع أن يكون فيها أحد من بني هاشم. وقال هذا ظلم وعدوان وقطيعة واستحلال للشهر الحرام ولا أحضره ولا أحد من أهلي. فأخرج الزبير بن عبد المطلب متكرهاً وقال عبد الله بن جدعان التيمي وحرب ابن أمية: لا- نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم فخرج الزبير. (٢)

١. للتوسع في الموضوع، راجع مفاهيم القرآن للشيخ جعفر السبحاني: ٣/٣٢١.

٢. تاريخ اليعقوبي: ٢/١٢، طبع النجف.

(٤٠)

كما أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أحد المشاركين في حلف الفضول، الذي اعتبر ميثاقاً بين الجرهميين يهدف إلى الدفاع عن حقوق الضعفاء والمظلومين. وقد أسسه جماعة اشتقت أسماؤهم جميعاً من لفظه «الفضل»، مثل: فضل بن فضالة، وفضل بن الحارث، وفضل بن وداعة. وقد نُقلت عبارات كثيرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أشاد فيها بالحلف، واعتز بمشاركته فيه: «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت».

كما أشاد به الإمام الحسين (عليه السلام) أيضاً، فضرب به المثل في أخذ الحفّورده لصاحبه، مثلما طلب هو حقه من «الوليد بن عتبة» أمير المدينة. ٤. فترة عمله

أمضى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) شطراً من حياته قبل البعثة، في رعى الغنم في الصحارى، لعلّه ليصبح بذلك صبوراً في تربية الناس الذين سيكلف بقيادتهم وهدايتهم، ويستسهل كلّ صعب في هذا المجال. إذ كان لابد أن يتسلّح بسلاح الصبر، ويتجهّز بأداة التحمّل، ويتزوّد بقدره الاستقامة على طريق الهدف، وذلك حتى يمكنه إدارة البشر في المستقبل. إذ أنّ ذلك لا يكون إلاّ بتعويد النفس على هذه الصفات وحملها على مشاق الأعمال. كما أنّ عمله في الصحراء والجبال، ساعده في التخلص بعض الشيء من آلامه الروحية الناشئة من روية الأوضاع المزريّة والأحوال المشينة التي كان عليها أهل مكة وما كانوا فيه من عادات سيئة وظلم وانحراف وطغيان. كما أنّ عمله في تلك البقاع، أعطاه فرصة طيبة للنظر في خلق السموات والتطلع في النجوم والكواكب وأحوالها، ثمّ الامعان (٤١)

في الآيات الدالة على وجود الله سبحانه وتعالى، وقدرته و حكمته وعلمه وإرادته.

فبالرغم من أنّ قلوب الأنبياء تكون منورة بمصابيح المعرفة، ومضاءة بأنوار الإيمان والتوحيد، إلاّ أنّهم لا يرون أنفسهم في غنى عن النظر في عالم الخلق والتفكير في الآيات الإلهية، إذ أنّه من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلى مراتب الإيمان، ويبلغون أسامي درجات اليقين، وبالتالي يتمكّنون من الوقوف على ملكوت السماوات والأرضين.

وبعد هذا العمل الصحراويّ الجبلي، تعاطى (صلى الله عليه وآله وسلم) العمل التجاري، باقتراح من عمّه أبى طالب، الذي أرشده بالتوجه للعمل في تجارة السيدة «خديجة بنت خويلد» التي كانت تعمل بالتجارة الواسعة، فأصبحت غنية ذات مال كثير وذات شرف عظيم، استخدمت الرجال في إدارة أعمالها الكثيرة. فقال أبو طالب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «يا بن أخي، هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بمالها أكثر الناس، وهي تبحث عن رجل أمين، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لآسرت إليك، وفضلتكم على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك».

إلاّ أنّ إباء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلوّ طبعه منعاه من الإقدام بنفسه على ذلك فردّ عليه: «فلعلّها أن ترسل إليّ في ذلك» لأنّها تعرف أنّه المعروف بالأمين بين الناس. وقد حدث ما أرواه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد بعثت إليه قائلة: «إنّني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك، وأبعث معك غلامين يأتمران بأمرك في السفر» (١).

ولمّا علم عمّه أبو طالب بذلك قال له: «إنّ هذا رزق ساقه الله إليك \_\_\_\_\_».

١ . البحار: ١٦/ ٢٢؛ السيرة الحلبية: ١/ ١٣٢؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ٢٤.

(٤٢)

وهكذا تمّ الاتفاق على أن يقوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالعمل في أموالها وتجارته على نحو المضاربة لا الإجارة، فقد ذكر «اليعقوبي»: إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كان أجيراً لأحد قط. (١)

ولذا فإنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حصل على أرباح وفيرة من أوّل تجارته إلى الشام. ولما مرّ في الطريق على ديار عاد وثمود، تذكر سفره الأوّل مع عمّه إلى تلك المناطق. وعند وصولهم إلى مكة، قال «ميسرة» غلام السيدة خديجة: يا محمّد لقد ربحتنا في هذه السفرة ببركتك ما لم نربح في أربعين سنة، فاستقبل بخديجة وأبشراها بربحنا. فأسرع النبي ص وسبق القافلة متوجّهاً نحو بيت خديجة، التي استقبلته بحفاوة كبيرة، وسرّت بحديثه وأخبره عن رحلته ومكاسبه التجارية. ثمّ إنّ «ميسرة» أخبرها بكلّ ما حدث وحصل لهم في السفر، منذ خروجهم ودخولهم إلى البلاد، وخاصةً ما جرى، بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأحد التجار الذي جادله في البيع طالباً منه أن يحلف باللالت والعزّي، فردّ عليه (صلى الله عليه وآله وسلم): ما حلفت بهما قط، وإنّي لأمّراً فأعرض عنهما. كما أخبرها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما استراح في ظلّ شجرة عندما كانوا في بصرى، فشاهاهده راهب فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلاّ نبي. ولما سأل عن اسمه من ميسرة فقال: هو نبيّ وهو آخر الأنبياء، إنّه هو هو ومنزلّ الإنجيل، وقد قرأت عنه بشائر

كثيرة. (٢)

وقد سلم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كل ما ربحه واستلمه من مال إلى عمه أبي طالب، ليوسع به على أهله، مما جعله فرحاً مسروراً بما قام به ابن أخيه تجاهه \_\_\_\_\_.

١ . تاريخ يعقوبى: ٢١٢.

٢ . البحار: ١٦|١٨؛ طبقات ابن سعد: ١٣٠|١٣١. (٤٣) ٥. زواجه (صلى الله عليه وآله وسلم)

فى هذا الوقت، فكر (صلى الله عليه وآله وسلم) جدياً فى أن يتخذ شريكة لحياته ويكون أسرة، فكيف وقع اختياره على السيدة خديجة التى رفضت كل من تقدم إليها من كبار الشخصيات القرشية، أمثال: عقبه بن أبى معيط، وأبى جهل، وأبى سفيان؟ وكيف أدى الارتباط بينهما والعلاقة العميقة والألفة والمحبة، إلى درجة أنها وهبت كل ثروتها للنبي حتى ينفقها فى نشر الإسلام؟ كانت السيدة خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً وأقواهن عقلاً وأكثرهن فهماً، وقد قيل لها: سيدة قريش، وسميت الطاهرة لشدة عفافها، وذلك فى أيام الجاهلية.

وحين رفضت الزواج من سادة القوم قبلت بسيد البشر لما عرفت عنه من كرم الأخلاق، وشرف النفس، والسجايا الكريمة، والصفات العالية. وهى المرأة الثرية التى وإن عاشت فى الترف وأفضل العيش، إلا أنها أصبحت فى بيت زوجها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الزوجة المطيعة الخاضعة الوفية المخلصة، و سارعت إلى قبول دعوته واعتناق دينه بوعى وبصيرة، مع علمها بما ينطوى ذلك على مخاطر ومتاعب. ثم جعلت كل ثروتها ومالها فى خدمة العقيدة والمبدأ، مشاطرة زوجها بذلك آلامه ومتاعبه، وراضية بمرارة الحصار فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات، وهى فى سن الرابعة والستين. (١)

وقد بلغ من خضوعها للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحبها له، أنها بعد أن تم الزواج بينهما قالت له: إلى بيتك، فبیتى بيتك وأنا جاريتك. (٢)

١ . شرح نهج البلاغة: ١٤|٥٩.

٢ . بحار الأنوار: ١٦|٤.

(٤٤)

ويؤكد المؤرخون أنها هى التى اقترحت على النبي الزواج، وكما يعتقد أكثر المؤرخين، أن «نفسه بنت عليّة» بلغت رسالتها إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الذى تقبل عرضها، فأخبرت السيدة خديجة بذلك، فأرسلت بوكيلها «عمرو بن أسد» لتحديد ساعه مراسم الخطبة فى محضر الأقارب. (١)

فشاور النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أعمامه وعلى رأسهم «أبو طالب» الذى خطب فى القوم يمدح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويطلب الزواج له من السيدة خديجة قائلاً: «وله فى خديجة رغبة ولها فيه رغبة، والصدّاق ما سألتم عاجله وآجله من مالى، ومحمد من قد عرفتم قرابته».

ثم أجرى عقد النكاح، ومهرها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ٤٠٠ دينار، وقيل أصدقها عشرين بكرة. (٢)

وكان عمرها فى هذا الوقت أربعين عاماً، إذ أنها وُلدت قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً، كما جاء عنها أنها تزوجت قبل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» برجلين، أولهما: «عتيق ابن عائذ»، ثم بعده: «أبو هالة التميمي». وقد توفى كل منهما بعد زواجه منها. (٣)

وقد تميّزت السيدة خديجة من نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه لم يتزوج عليها مدّة حياتها، وبلغت لديه مالم تبلغه امرأة قطن من زوجاته. (٤) ومما يدل على سمو مقامها وعلو منزلتها، أن أهل البيت «عليهم السلام» طالماً افتخروا بأنخديجة منهم، وإنهم من خديجة، فكانوا يعتزون بها ويشيدون بمكانتها. فالسيدة خديجة (عليها السلام) هى مثال الشرف والعقل، والحب العميق للرسول

١ . تاريخ الخميس: ١ | ٢٦٤.

٢ . السيرة الحلبية: ١ | ١٣٩.

٣ . الاستغاثة: ١ | ٧٠.

٤ . السيرة الحلبية: ١ | ١٦٩.

( ٤٥ )

(صلى الله عليه وآله وسلم) والوفاء والإخلاص، والتضحية بالغالى والنفيس فى سبيل الإسلام الحنيف، فهى أول من آمنت بالله ورسوله، وصدقت محمداً «صلى الله عليه وآله وسلم» وآزرتة، فكان (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه، من إيذاء وتكذيب، إلا وفرج الله عنه بخديجة التى خفت عنه، بلطفها وعطفها وعنايتها به فى غاية الإخلاص والود. (١)

لقد اكتسبت السيدة خديجة بفضل إيمانها العميق بالرسالة المحمدية، وتفانيها فى سبيل الإسلام، وحرصها العجيب على حياة صاحب الرسالة، مكانة سامية فى الإسلام، حتى أن النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) ذكرها فى أحاديثه الكثيرة، وأشاد بفضلها ومكانتها وشرفها، وذلك لآلغات نظر المرأة المسلمة إلى القدوة التى ينبغى أن تقتدى بها فى حياتها وسلوكها فى جميع المجالات والحالات، بالإضافة إلى ما يمكن أن تقدمه المرأة - وهى نصف المجتمع - من دعم جدى للرسالة، مادياً كان أم معنوياً.

ومن أشهر الأحاديث التى نقلت عن النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال عنها: «أتانى جبرائيل (عليه السلام) فقال يا رسول الله، إذا أتتك خديجة فاقراء عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب». (٢)

وقال عنها (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا-والله ما أبدلنى الله خيراً منها، آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها أولاداً إذ حرمنى أولاد النساء». (٣)

كما روى أنس بن مالك، أن النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أتى بهدية

١ . أعلام النساء: ١ | ٣٢٨.

٢ . صحيح مسلم: ٧ | ١٣٣؛ مستدرک الحاكم: ٣ | ١٨٤.

٣ . أسد الغابة: ٥ | ٤٣٨؛ صحيح مسلم: ٧ | ١٣٤؛ صحيح البخارى: ٥ | ٣٩.

( ٤٦ )

قال: «أذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة». (١)

كما قال عنها الإمام على (عليه السلام): «كنت أول من أسلم، فمكثنا بذلك ثلاث حجج وما على الأرض خلق يصلى ويشهد لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بما أتاه، غيرى، وغير ابنة خويلد رحمها الله، وقد فعل». (٢)

وقد تحدثت عنها أيضاً الكثير من الشخصيات الإسلامية المتقدمة والمتأخرة، فقد ذكر عنها «محمد بن إسحاق»: «إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب، ماتا فى عام واحد، فتتابع على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هلاك خديجة وأبى طالب، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، وكان رسول الله يسكن إليها». (٣)

ولكل ذلك، فإن وفاتها كانت من أعظم المصائب التى أحزنت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ممّا دفعه أن يسمّى العام الذى توفى فيه ناصراه وحاميه ورفيقا آلامه - زوجته خديجة، وعمّه المؤمن الصامد أبو طالب - بعام الحداد أو عام الحزن . فينزل عند دفنها فى حفرتها، ويدخلها القبر بيده فى الحجون، فيلزم بيته و يقل الخروج. (٤) ٦. أولاد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

لقد أنجبت خديجة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ستة من الأولاد، اثنين من الذكور، أكبرهما القاسم وعبدالله، وأربعة من

الإناث. وذكر ابن هاشم، ان أكبر بناته: رقية ثم زينب ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، وكلهن أدركن الإسلام، أما الذكور فقد ماتوا قبل البعثة.

١ . سفينة البحار: ١ | ٣٨٠.

٢ . شرح نهج البلاغة: ١٤ | ٥٩.

٣ . بحار الأنوار: ١٦ | ١٠.

٤ . تاريخ يعقوبى: ٣٥ | ٢؛ تاريخ الخميس: ٣٠١ | ١؛ السيرة الحلبية: ٣٤٦ | ١.

( ٤٧ ) تبني النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لزيد بن حارثة

كان ممن سباه العرب من حدود الشام وباعوه في أسواق مكة رقيقاً لأحد أقرباء السيدة خديجة ويدعى حكيم بن حزام. وقد أحبه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لذكائه وطهره، فوهبته خديجة له، حينما تزوجت به «صلى الله عليه وآله وسلم»، إلا أن أباه حارثة الذي كان يبحث عنه لقيه عند النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فطلبه منه، الأمر الذي جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يختاره بين المقام معه (صلى الله عليه وآله وسلم) والرحيل إلى وطنه، فاختار المقام مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي أخرجه إلى الحجر الأسود وأعتقه ثم بناه أمام الملائكة قائلاً: «يا من حضر اشهدوا أنزیداً ابني». (١)

١ . الإصابة في تمييز الصحابة: ٥٤٥ | ١؛ الكامل في التاريخ: ٢ | ٢٢٥.

( ٤٨ ) ( ٤٩ )

## الفصل الثالث

### الفصل الثالث

البعثة النبوية - الحالة الدينية في الجزيرة العربية عند البعثة النبوية

- إيمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآبائه وكفلاؤه قبل الإسلام

- الوحي

- المؤمنون بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والدين الإسلامي

- دعوة الأقربين

- الدعوة العامة

- الأساليب الفاشلة أمام نجاح الدعوة الجديدة ( ٥٠ ) ( ٥١ ) ١. الحالة الدينية في الجزيرة العربية

إلى جانب عبادة الأصنام والأوثان، ظهرت جماعة من العرب، أنكروا عقائدها الباطلة، واستاءوا من دينها، كما كان اليهود يتوعدون أهل الأصنام بالنبي قائلين: ليخرجن نبي فليكسرن أصنامكم. وجاء أيضاً أن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهّان من العرب، قد تحدّثوا بأمر رسول الله قبل بعثته. وظهر كذلك من انتقد عبادتهم من فئة العقلاء وأصحاب الفكر الثاقب، فكان ذلك بمثابة جرس إنذار باقتراب سقوط دولة الوثنيين وانقراضها واشتهر من هؤلاء بين العرب أربعة:

١. ورقه بن نوفل، الذي اختار النصرانية.

٢. عبيد الله بن جحش، الذي أسلم عند ظهور الإسلام.

٣. عثمان بن الحويرث، الذي تنصّر عند ملك الروم.

٤. زيد بن عمرو بن نفيل، الذي قال: أعبد رب إبراهيم. (١)



١ . السيرة النبوية: ١/ ٢٢٥ | (٥٢) . ٢ . مكانة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عند قريش

حينما كان (صلى الله عليه وآله وسلم) في عمر ٣٥ عاماً واجه اختلافاً كبيراً بين قريش، تمكن بحكمته من إزالة ذلك التخاصم، ممّا كشف عن مدى الاحترام الذى حظا به عند قريش . فعندما هُدمت الكعبة بسبب سيل عظيم، قام القوم بإعادة بنائها، إلا أنّهم اختلفوا فى وضع الحجر الأسود فى مكانه، فتنازع زعماء قريش فيمن يتولى وضعه، ممّا أّخر عملية البناء مدة خمسة أيام، وكادت أن تنشب فيما بينهم بسببه حرب دامية، وربما طويلة، حتى قام فيهم شيخ منهم وقال: يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه . فقبلوا رأيه فكان أول داخل عليهم محمّد رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» فقالوا: هذا محمّد الأمين، رضينا، هذا محمّد . فقال ص: هلّم إلىّ ثوباً فأخذ الحجر ووضعه فيه وقال: لتأخذ كلّ قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً . ثم وضعه (صلى الله عليه وآله وسلم) بيده فى مكانه . (١) ٣ . إيمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و آباءه وكفلائه قبل الإسلام تدلّ الدلائل التاريخية والعقلية والمنطقية، على أنّ النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يعبد غير الله منذ ولد حتى رحل إلى ربّه، وكذلك ما كان عليه آباؤه وكفلاؤه .

فجدّه عبد المطلب، طلب من الله وهو فى الكعبة أن يرد هجوم أبرهه ويهزم جيشه، فقد كان الموحّد الذى لا يلتجى فى المصائب والمكاره إلى غير كهف الله . كما أنّه كان يستسقى بالتوسّل إلى الله تعالى . وقد اعترف المورّخون بذلك، فقد ذكر يعقوبى: «ورفض عبد المطلب عبادة الأوثان والأصنام، ووحد الله عزّوجلّ، ووفى بالندر، وسنّ سنناً نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنّة الشريفة

١ . السيرة النبوية: ١/ ١٩٢؛ فروع الكافي: ٤/ ٢١٧ .

(٥٣)

من رسول اللّهبها، وهى الوفاء بالندر، ومائة من الإبل فى الديه، وألا- تنكح ذات محرم، ولا- توتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهى عن قتل المودّة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحدّعليه، والقرعة، وألا- يطوف أحد بالبيت عرياناً، وتكريم الضيف، وألا ينفقوا إذا حجّوا إلاّ من طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفى ذات الرايات». (١) كل ذلك يؤكّد تماماً توحيدة وإيمانه بالله واعترافه برسالة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» .

وكذلك كان عمّه أبو طالب، فله مواقف كثيرة بارزة قبل البعثه، تكشف عن عمق إيمانه وتوحيدة، فقد اعتبر حامى الدين والمدافع عن المسلمين، آمن بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واعتبره فى قمة الكمال الإنسانى، بالإضافة إلى أنّه أحلّه من قلبه محلّ الابن والآخ، فكان يصحبه معه إلى المصلّى، ويستسقى به، حيث كانت دعوته تُستجاب دون تأخير، كما اصطحبه معه فى سفره إلى الشام، كما أنّ دفاعه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن مادياً، فلم يقصد من وراء ذلك كسباً مادياً من مال وثروة، كما لم يهدف للحصول على جاه ومقام وإحراز مكانة اجتماعية مرموقة، لأنّه كان يمتلك فى المجتمع أعلى المناصب، فقد كان رئيساً لمكّة المكرّمة، بل إنّ فقد منصبه ومكانته بسبب موقفه الموالى للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعدم الاستجابة لقومه فى تسليمه «صلى الله عليه وآله وسلم» لهم، ممّا استوجب سخط الزعماء عليه واستيائهم منه، وإظهار العداء له ولبنى هاشم عامة .

١ . تاريخ يعقوبى: ٢/ ٩ .

(٥٤)

فالقول بأنّ تضحيه أبى طالب فى سبيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنفس والنفيس كان بدافع علاقة القربى والعصية القبليّة، تصوّر باطل، إذ أنّ ذلك كان بدافع اعتقاده الراسخ برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذى اعتبره مظهرًا كاملاً للفضيلة والإنسانية، وأنّ دينه أفضل برنامج للسعادة . ولما كان يحب الحقيقة والكمال والحقّ، فقد كان من الطبيعى أن يدافع عن تلك الفضائل وينصرها بكلّ جهوده وقواه. (١)



كما أن هناك مواقف محددة تؤكد المعنى السابق:

فقد أصدر تهديداً بمحاربة رجال قريش بالسلاح، إذا أقدموا على أي سوء نحو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد حافظ على حياته «صلى الله عليه وآله وسلم» لفترة ٤٢ عاماً، ودافع عنه، وخاصةً في سنوات البعثة العشرة، فهو قد تولى مهمة كفالاته والدفاع عنه والمحافظة على حياته بصدق وإخلاص، بالنفس والمال، وإيثاره على نفسه وأولاده والإنفاق عليه من ماله، منذ صغره «صلى الله عليه وآله وسلم» وحتى الخمسين من عمره. ولذا كان لفقده أكبر الأثر على سير الدعوة الإسلامية.

وهو ما دفع ابن أبي الحديد المعتزلي أن ينشد بيتين يوضح تضحيته هو وابنه علي (عليه السلام):

ولولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً وقاما

فذاك بمكة آوى وحامى وهذا يثرب جس الجماما (٢)

ويمكن التعرف على إيمانه وإخلاصه عن طريق أشعاره وخدماته القيمة في

١. وقد أشار إلى كل ذلك في قصائده وأشعاره. ونقل ابن هشام في سيرته: ١/٣٥٢، ١٥ بيتاً من قصيدته.

٢. شرح نهج البلاغة: ١٤/٨٤.

(٥٥)

السنوات العشر الأخيرة من عمره، فمن قصائده المطولة نختار البيتين التاليين:

ليعلم خيائ الناس أن محمداً نبى كموسى والمسيح بن مريم

أتى بهدى مثلما أتيا به فكل بأمر الله يهدى ويعصم (١)

لقد كان إيمانه قوياً لدرجة أنه رضى بأن يتعرض كل أبنائه لخطر القتل والاعتقال ليقى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) دون أن يمسّه أعداؤه بأي سوء. كما أنه أوصى أولاده عند وفاته قائلاً: أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين فى قريش، وهو الجامع لكلما أوصيكم به. كونوا له ولاءً، ولحزبه حماءً، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلاّ رُشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد. (٢)

وبينما كَفَره البعض من علماء السنة، إلاّ أن منهم من حكموا بإسلامه وبإيمانه، مثل: «زيني دحلان» مفتى مكة (المتوفى ١٣٠٤هـ)، وقد تمادى بعض منهم فى توسيع دائرة الكفر فشملت آباء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و كان ذلك من آثار الحكومات الأموية والعباسية التى عملت بكل جهدها لتأكيد كفر أبى طالب والإعلام ضدّ إيمانه، لأنّه كان والد الإمام على (عليه السلام) الذى اجتهدت الأجهزة الإعلامية لتلك الحكومات فى الحط من شأنه دوماً، وخاصةً إن إسلامه مع أبيه كان يعد فضيلة بارزة من فضائله.

أمّا علماء الشيعة الإمامية والزيدية فقد اتفقوا على أنه كان من أبرز المؤمنين برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يخرج من الدنيا إلاّ بقلب يفيض إيماناً بالإسلام وإخلاصاً لله تعالى وحباً للمسلمين. (٣)

١. مجمع البيان: ٧/٣٧؛ الحجّة: ٥٧؛ مستدرک الحاکم: ٣/٦٢٣.

٢. السيرة الحلبية: ١/٣٥.

٣. يوضح هذا الجانب جيداً صاحب موسوعة الغدير، العلامة الأمينى.

(٥٦)

وأما أقاربه وما قدّموه من أفعال وأقوال تؤكد موقفه الإيجابى، فإنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دفنه بنفسه. كما أن الإمام الحسين (عليه السلام) أجاب عندما سئل عن إيمانه قال: «واعجباً، إنّ الله تعالى نهى رسوله أن يقّر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت «فاطمة بنت أسد» من السابقات إلى الإسلام لم تزل تحت أبى طالب حتى مات».

وقال (عليه السلام): «ألم تعلموا أن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) كان يأمر أن يحج عن عبد الله وأبيه».

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): «إنَّمثل أبي طالب مَثَل أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك، فآتاهم الله أجرهم مرّتين، وكذلك أبو طالب».(١)

ومن المعروف، أنه للتعرف على عقيدة فردٍ ونمط تفكيره، ينبغي الاعتماد على:

- دراسة آثاره العلمية والأدبية وما تركه من أقوال وكلمات.

- و أسلوب عمله وتصرفاته في المجتمع.

- و آراء أقربائه ومعارفه حوله.

وكتلتك الجوانب أكدت إسلام أبي طالب، حامى الرسول العظيم «صلى الله عليه وآله وسلم»، فتسقط كل الآقاويل والآحاديث التي بثها أعداؤه للحط من شأنه وإصاق الكفر به.

وكذلك كان أبو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عبد الله، فقد ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إنه انتقل في الأرحام المطهرة مما يؤكد طهارة آبائه وأمهاته من كل دنس وشرك.

وقد أشار الشيخ المفيد إلى أن الإمامية تتفق على أن آباء رسول الله «صلى

١. أصول الكافي: ١/٤٤٨.

(٥٧)

الله عليه وآله وسلم» من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب كانوا مؤمنين بالله وموحّدين إِيّاه، واحتجوا في ذلك بالقرآن و الأخبار. النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل البعثة

تدلّ الشواهد التاريخية بالإضافة إلى البراهين العقلية، على أنه ص كان مؤمناً بالله وموحّداً إِيّاه قبل البعثة، فلم يعبد وثناً قط، ولم يسجد لصنم أبداً. وقد أجمع المؤرّخون على أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يخلو بحراء أشهراً كلّ عام يعبد الله تعالى فيه، فقد ذكر الإمام علي (عليه السلام): «ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري».(١)

حتى وافاه جبرائيل (عليه السلام) بالرسالة في هذا المكان وفي تلك الحال، وقد صرح بهذا أيضاً أصحاب الصحاح الستة، وجاء في الأخبار أن الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» حجّ قبل البعثة عدّة حجّات، وكان يأتي بمناسكها على وجه صحيح بعيداً عن أعين قريش، فقال الإمام الصادق (عليه السلام): «حجّ رسول الله عشر حجّات مستتراً في كلّها».(٢)

وكلّ تلك الوقائع أصدق دليل على إيمانه وتوحيده، وهو النبي الخاتم والأفضل من جميع الأنبياء والمرسلين بنص القرآن الكريم. وجاء عن «العلامة المجلسي»، أنه قد وردت أخبار كثيرة أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يطوف ويعبد الله في حراء، ويرعى الآداب المنقولة من التسمية والتحميد عند الأكل وغيره، فكيف يمكن لله تعالى أن يهمل أفضل أنبيائه أربعين سنة بغير عبادة (٣)

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

٢. وسائل الشيعة: ٨/٨٨.

٣. بحار الأنوار: ١٨/٢٨٠.

(٥٨)

والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مؤمناً موحّداً عابداً لله ساجداً قائماً بالفرائض العقلية والشرعية، مجتنباً عن المحرمات، عالماً بالكتاب ومؤمناً به إجمالاً، وراجياً لنزوله إليه، إلى أن بعثه الله لإنقاذ البشرية عن الجهل وسوقها إلى الكمال.

فكان (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل الخلق وأكملهم خلقاً وخلقاً وعقلاً، وأنه كان يعمل حسب ما يُلهم سواء كان مطابقاً لشرع ما قبله أم مخالفاً، وأن هاديه وقائده، منذ صباه إلى أن بُعث هو نفس هاديه بعد البعثة. (١) ٤. الوحي في غار حراء ويقع جبل حراء في شمال مكة، ويستغرق الصعود إليه مدة نصف ساعة، ويتكوّن من قطع صخرية لا أثر للحياة فيها. أما الغار فيقع في شمال الجبل، وهو يحكى ذكريات رجل طالما تردّد عليه وقضى الساعات والأيام والأشهر في رحابه، يتعبد الله ويتأمل في الكون وفي آثار قدرة الله وعظمته. إذ أن النبي ص كان يفكر في أمرين، قبل أن يبلغ مقام النبوة:

١. ملكوت السماوات والأرض، فيرى في ملامح كل من الكائنات نور الخالق العظيم وقدرته وعظمته، فتفتح عليه نوافذ من الغيب تحمل إلى قلبه وعقله النور الإلهي المقدّس.

٢. المسؤولية الثقيلة التي ستوضع على كاهله، فكان يفكر في فساد حياة المجتمع المكي، وكيفية رفع كلك وإصلاحه. وأما الرسالة الإلهية إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد أمر الله تعالى

١ . للتوسع في ذلك يراجع مفاهيم القرآن للمؤلف: ١٣٥/٥.

(٥٩)

جبرائيل (عليه السلام) بأن ينزل على أمين قريش في الغار ويتلو على مسامعه بضع آيات كبدية لكتاب الهداية والسعادة، معلناً بذلك تنويجه بالنبوة ونصبه لمقام الرسالة، وطلب منه أن يقرأ، أو قال: يا محمد اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال يا محمد (اقرأ باسم ربك الذي خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذي علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم) (١) ثم أوحى إليه ربه عز وجل ما أمره به ثمّصعد إلى العلو ونزل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من الجبل، وقد غشيه من تعظيم جلال الله وورد عليه من كبير شأنه ما ركه الحمى والنافض.

وقد أوضحت هذه الآيات برنامج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبيّنت بشكل واضح أن أساس الدين يقوم على القراءة والكتابة والعلم والمعرفة باستخدام القلم. ثم خاطبه الملك: «يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبرائيل».

وقد اضطرب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لهذين الحديثين، لعظمة المسؤولية التي أُلقيت على كاهله، فترك غار حراء متوجّهاً إلى بيت السيدة خديجة (عليها السلام)، التي لاحظت الاضطراب والتعب على ملامحه فسألت عنه، فأجابها وحدّثها بكل ما سمع وجرى، فعظمت خديجة (عليها السلام) أمره ودعت له وقالت: «أبشر، فوالله لا يزيك الله أبداً». ثمّ بدّثته فنام بعض الشيء. ثم انطلقت إلى بيت ورقة تخبره بما سمعته من زوجها الكريم، فأجابها: إنابن عمك لصادق وإن هذا لبدء النبوة، وإنه ليأتيه ناموس الأكبر - أي الرسالة والنبوة - (٢).

وقد اختلقت قصص كثيرة عن تخوف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

١ . العلق: ٥١.

٢ . طبقات ابن سعد: ١/١٩٥.

(٦٠)

واضطرابه ممّا حدث له في الغار، ودست تلك الروايات في التاريخ والتفسير عن قصد وهدف أو دخلت فيها عن غير ذلك. فالنبي الكريم «صلى الله عليه وآله وسلم» كانت روحه مهتأة من جميع الجهات وبصورة كاملة لتلقى السرّ الإلهي - النبوة - وما لم تكن نفسيته كذلك، فإن الله تعالى لم يكن ليمن عليه بمنصب النبوة ويختاره لمقام الرسالة، لأن الهدف الجوهرى من انبعاث الرسل والأنبياء هو هداية الناس وإرشادهم. وتدل تلك القصص على أن ثمة يداً إسرائيلية وراءها فصاحتها، ولهذا فإن أئمة الشيعة حاربوا هذه الأساطير

بكلقوة وأبطلوها برمتها. فقد قال الإمام الصادق (عليه السلام): «إنَّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عزوجل مثل الذي يراه بعينه». (١)

وفسر العلامة الكبير الطبرسي ذلك، بأنَّ الله لا يوحى إلى رسوله إلا بالبراهين الثيرة والآيات البينة الدالة على أن ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع ولا يفرق. (٢)

أمّا بالنسبة إلى يوم مبعثه، فإنَّ هناك اختلافاً فيه مثلما اختلف في يوم ولادته، فاتفق علماء الشيعة على أنه بُعث بالرسالة يوم ٢٧ من شهر رجب، وأنزل الوحي بدأ من هذا اليوم، بينما اشتهر عند السنة أنه حدث في شهر رمضان. فهناك فرق في نزول القرآن جميعه على الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» ونزول الآيات الأولى عليه يوم المبعث. فالآيات التي تصرح بنزول القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر المباركة، لا تدل على أن يوم المبعث - الذي نزلت فيه بضع آيات - كان ذلك في الشهر نفسه، لأن الآيات المذكورة الدالة على

١ . بحار الأنوار: ١٨/ ٢٤٢؛ الكافي: ١/ ٢٧١.

٢ . مجمع البيان: ١٠/ ٣٨٤.

(٤١)

أنالقرآن نزل في شهر رمضان تدل على أن مجموع القرآن لا- بعضه قد نزل في ذلك الشهر، في حين أنه لم ينزل في يوم المبعث سوى آيات معدودة. كما أنتفسيراً آخر يؤكد أن للقرآن الكريم وجوداً جمعياً علمياً واقعياً وهو الذي نزل على الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) مرة واحدة في شهر رمضان، وآخر وجوداً تدريجياً كان بدء نزوله على النبي ص في يوم المبعث، واستمر نزوله إلى آخر حياته الشريفة على نحو التدرج. وهو ما قدّمه العلامة الطباطبائي من تفسير (١). كما أن ثمة قولاً آخر ذهب إلى أن ابتعث الرسول بالرسالة في شهر رجب، لا يلزم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً. (٢)

وأبرز ما في هذا الموضوع، أن الرسالة المحمدية المباركة، بَشَّر بها جميع الأنبياء المتقدمين زمنياً على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» وأشار القرآن إلى ذلك في آيات كثيرة.

والأمر الهام الآخر، إنه كان خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبى بعده ولا رساله، حيث قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «أرسلت إلى الناس كافةً، وبى ختم النبوت». (٣) ٥. أوائل المؤمنين بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والدين الإسلامى

بدأ انتشار الإسلام تدريجياً، وكان هناك سابقون كما كان هناك لاحقون، وعُدَّ السابق إلى الإيمان برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في صدر الإسلام، معياراً للفضل، ولذا كان لابد من التعرف على هؤلاء السابقين. ومن المسلمات، أن السيدة خديجة (عليها السلام) كانت أول امرأة آمنت به فلم

١ . تفسير الميزان: ٢/ ١٤.

٢ . للمزيد من التوضيح والتوسع راجع البحار: ١٨/ ١٨٤، ٢٥٣؛ الكافي: ٢/ ٤٦٠.

٣ . طبقات ابن سعد: ١/ ١٢٨.

(٤٢)

يختلف في هذا أحد. (١) وخاصة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أكد بنفسه ذلك في قوله: «آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبني الناس». (٢) فهي أول من التقت بعد نزول الوحي عليه في الغار، فأمنت به وصدقته.

كما أنعلي بن أبى طالب (عليه السلام) كان أول من آمن به من الرجال، حيث اتفق العلماء كلهم على ذلك، إذ أن الإمام (عليه

السلام) كان قد عاش في كنف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى بعثه الله تعالى نبياً فاتبعه وآمن به وصدقته. (٣) فكان ممّا أنعم الله به على الإمام (عليه السلام) أنّه كان في حجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل الإسلام وهو دون الثامنة. فحينما أُجذبت مكة وضواحيها وأصاب الناس أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال، رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يخفف عنه، فطلب من عمّه العباس أن يأخذ منه بعض عياله، فكفل العباس جعفرًا، وكفل رسول اللّٰه عليًا، وقيل أنحمزة أخذ جعفرًا، والعباس طالبًا، وأبو طالب عقيلاً، وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إخترت من اختار الله لي عليكم، علياً». (٤)

ويظهر أنّ الهدف من ذلك كان هو أن يترتب على (عليه السلام) في حجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويتغذى من مكارم أخلاقه ويتبعه في كريم أفعاله.

ويؤكد الإمام (عليه السلام) موقفه بقوله: «اللهم إني أول من أناب وسمع وأجاب، ولم يسبقني إلا رسول الله بالصلاة». (٥)

١ . السيرة النبوية: ١ | ٢٤٠.

٢ . صحيح مسلم: ٧ | ١٣٤؛ صحيح البخاري: ٥ | ٣٩؛ أسد الغابة: ٥ | ٤٢٨؛ البحار: ١٦ | ٨.

٣ . السيرة النبوية: ١ | ٢٤٦؛ البداية والنهاية: ٢ | ٢٥.

٤ . مقاتل الطالبيين: ٢٦ | ٣٧؛ السيرة النبوية: ١ | ٢٤٥.

٥ . نهج البلاغة: ٢ | ١٨٢.

(٦٣)

كما جاء عن «عفيف الكندي» أنّه شاهد النبي صو زوجته وعلياً (عليه السلام) يؤدّون الصلاة أمام الكعبة. (١)

وجاء في خطبة له (عليه السلام) قوله: «أنا الصديق الأكبر، لقد صليت مع رسول الله قبل الناس سبع سنين، وأنا أول من صلّى معه». (٢)

كما أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أكّد ذلك أيضاً في أحاديثه المتكررة: «أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب». (٣)

ومن أقوال الإمام علي (عليه السلام) في ذلك، يذكر حكيم مولى زاذان، إنّ قال، سمعت علياً يقول: «صلّيت قبل الناس سبع سنين، وكنا نسجد ولا نركع، وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر». (٤)

وقال أيضاً: «بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء». (٥)

وقد أكّد هذا الموقف أكثر من ستين صحابياً وتابعياً أيّدوا القول الذي يذكر أنّ الإمام علياً (عليه السلام) كان أول القوم إسلاماً. وأشهر هؤلاء:

- أنس بن مالك: بعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الإثنين وأسلم عليّ يوم الثلاثاء.

- بريدة الأسلمي: ذكر نفس القول.

- زيد بن أرقم: أول من أسلم مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علي

١ . الإصابة: ٢ | ٤٨٠.

٢ . خصائص النسائي: ٣؛ سنن ابن ماجه: ١ | ٥٧؛ مستدرک الحاكم: ١ | ١١٢.

٣ . الغدير: ٣ | ٢٢٠.

٤ . شرح نهج البلاغة: ٣ | ٢٥٨.

٥ . مجمع الزوائد: ٩ | ١٠٢.

(٦٤)

بن أبي طالب، وأول من صلى مع الرسول صلى، وأول من آمن بالله بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علي (عليه السلام).  
- عبد الله بن عباس: أول من صلى علي.

لعلي أربع خصال ليست لأحد هو أول عربي وأعجمي صلى مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، كان علي أول من آمن من الناس بعد خديجة (عليه السلام).

- سلمان الفارسي: أول هذه الأمة وروداً على نبيها الحوض أولها إسلاماً، علي بن أبي طالب (عليه السلام).

- أبو رافع: مكث علي يصلي متخفياً سبع سنين وأشهرًا قبل أن يصلي أحد.

- كما نقل نفس الأقوال والأعمال التي قام بها الإمام (عليه السلام) كلمن:

أبو ذر الغفاري، خباب بن الارت، المقداد بن عمرو الكندي، جابر بن عبد الله الأنصاري، أبو سعيد الخدري، حذيفة بن اليمان، عمر بن الخطاب، عبد الله بن مسعود، أبو أيوب الأنصاري، هاشم بن عتبة المرقال، مالك بن الحارث الأشتر، عدى بن حاتم، محمد بن الحنفية، محمد بن أبي بكر، عبد الله بن أبي سفيان، الحسن البصري، الإمام محمد الباقر (عليه السلام). (١) ٦. دعوة الأقربين استمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو إلى دينه سرًا مدة ثلاثة أعوام، عمد فيها إلى بناء الكوادر وإعدادها من أفراد محددين، كانوا السبب في أن ينجذب إلى الدين الجديد جماعة آخرون تقبلت دعوته \_\_\_\_\_.

١. الصواعق المحرقة: ٧٢؛ تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١١٢.

(٦٥)

واشتهر من بين السابقين إلى الإيمان برسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: (١)

- السيدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام) - علي بن أبي طالب (عليه السلام)

- زيد بن حارثة - الزبير بن العوام

- عبد الرحمن بن عوف - سعد بن أبي وقاص

- طلحة بن عبيد الله - أبو عبيدة الجراح

- أبو سلمة - الأرقم بن أبي الأرقم

- عثمان بن مظعون - قدامة بن مظعون

- عبد الله بن مظعون - عبيدة بن الحارث

- سعيد بن زيد - خباب بن الارت

- أبو بكر بن أبي قحافة - عثمان بن عفان

وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يخرج مع بعض أتباعه إلى شعاب مكة للصلاة فيها بعيداً عن أنظار قريش، إلا أن البعض منهم رأوهم يصلون، فحدث نزاع قصير بين الطرفين، حين استنكروا فعلهم، وهو ما جعل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يقرر اتخاذ بيت «الأرقم بن أبي الأرقم» مكاناً للعبادة (٢) حيث آمن في هذا البيت عددٌ آخر من المشركين، كان أبرزهم: عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي.

وقد ركز الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) جهده في الدعوة السريّة، دون عجله أو تسرع، يعرض فيها دينه على كلمن وجده أهلاً لتقبل المبادئ السامية،

١. السيرة النبوية: ١ | ٢٤٥.

٢. وكان البيت عند جبل الصفا عرف إلى فترة بدار الخيزران. أسد الغابة: ٤ | ٤٤؛ السيرة الحلبية: ١ | ٢٨٣.

( ٦٦ )

من الناحية الفكرية، ففي خلال ثلاثة أعوام اكتفى بالاتصال الشخصي بمن وجرده مؤهلاً وصالحاً للدعوة ومستعداً لقبول الدين الجديد، مما ساعده في أن يكسب فريقاً من الأتباع الذين اهتموا إلى دينه بقبول دعوته.

أمّا زعماء قريش فإنهم لم يعتنوا بالدعوة الجديدة، كما لم يتعرضوا بأى عمل عدائى للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بل ظلوا ينظرون إليه باحترام، مراعين قواعد الآداب والسلوك، في الوقت الذى لم يتعرض فيه النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» أيضاً لأصنامهم وآلهتهم بسوء، ولا تناولها بالنقد والاعتراض بصورة عليه، وذلك أن زعماء قريش كانوا متأكدين من أن دعوته ستنتهى فى العاجل بقولهم: إنها أيام وتنتفى بعدها شعله الدعوة هذه فوراً، كما انطفت من قبل دعوة «ورقة وأمّية» اللذين دعيا إلى نبذ الوثنية واعتناق المسيحية، ثم نسي الأمر.

وقد جمع النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) فى السنوات الثلاث الأولى، أربعين شخصاً، لم يكن فيهم كفاية لأن يصبخوا قوة دفاعية لحماية النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» ورسالته، مما جعله يسعى إلى دعوة أقربائه، فكسر بذلك جدار الصمت، بالشروع فى دعوة الأقربين ثم الناس أجمعين، فالنبى «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يؤمن ويعتقد أن أى إصلاح وتغيير لابد أن يبدأ من إصلاح الداخل وتغييره، ومن هنا أمره الله تعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين، الذين تمنى أن يكون منهم سياجاً قوياً يحفظه ويحفظ رسالته من الأخطار المحتملة: (وَإِنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (١) كما خاطبه بصدد دعوة الناس عامة ٥٤٣٢١ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين \* إنا كفيناك المستهزئين). (٢).

١ . الشعراء: ٢١٤.

٢ . الحجر: ٩٤-٩٥.

( ٦٧ )

وقد اتخذ النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) أسلوباً مميزاً فى دعوة أقربائه، إذ أنه أعد لهم مائدة كبرى، لـ ٤٥ فرداً من سراة بنى هاشم ووجهائهم، ليكشف لهم أمر رسالته خلال تلك الضيافة، إلا أن الجوّ لم يناسب الحدث، فانفض المجلس دون تحقيق الغرض، مما اضطره إلى إعادتها فى اليوم التالى. فقام النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» بعد تناول الطعام، خطيباً فيهم وقال: «إن الرائد لا يكذب أهله، واللّه الذى لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، واللّه ليموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً والنار أبداً. يا بنى عبدالمطلب، إني واللّه ما أعلم شاباً فى العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى الله عزوجل أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤمن بى ويؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟» فقام على (عليه السلام) وهو فى الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره قائلاً: «أنا يا رسول الله أكون وزيرك على ما بعثك الله». وبعدما تكرّر هذا الموقف ثلاث مرّات، أخذ النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) بيد على «عليه السلام» والتفت إلى القوم قائلاً: «إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا».

فضحك الجميع مستهزئين، وقالوا لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه وجعله عليك أميراً. (١)

إنّ هذا الإعلان عن وصاية الإمام على (عليه السلام) وخلافته فى مطلع عهد الرسالة وبداية أمر النبوة، يفيد أن هذين المنصبين ليسا منفصلين، فقد

١ . هذا ملخص لتفصيل ما رواه أكثر المفسرين والمؤرخين دون أن يشكك فى صحته أحد، إلا ابن تيمية الذى اتخذ موقفاً فريداً من أهل البيت «عليهم السلام» راجع تاريخ الطبرى: ٢/٦٢؛ الكامل: ٢/٤٠؛ مسند أحمد: ١/١١؛ شرح نهج البلاغة: ١٣/٢١٠.



( ٦٨ )

أعلنهما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في يوم إعلانه للدعوة والنبوة، مما يؤكد أن النبوة والإمامة يشكّلان قاعدة واحدة، وإنهما حلقتان متصلتان لا يفصل بينهما شيء، كما أن موقف الإمام علي (عليه السلام) يكشف عن مدى شجاعته الروحية، حينما أعلن بكل جرأة وشجاعة، موازرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حضور قوم ضمّ شيوخهم وساداتهم، معلناً استعداده للتضحية في سبيل دينه، وهو غلام لم يتعد الخامسة عشرة.

وقد تناول «أبو جعفر الإسكافي» هذا الموقف موضعاً إذ كتب يقول:

هل يكلف عمل الطعام، ودعاء القوم، صغير غير ممّيز وغير عاقل؟! و هل يؤتمن على سرّ النبوة طفل؟! و هل يُدعى في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب و هل يضع رسول الله ص يده في يده، ويعطيه صفة يمينه بالأخوة والوصية والخلافة، إلا وهو أهل لذلك، بالغ التكليف، محتمل لولاية الله، وعداوة أعدائه، ما بالهَذَا الطفل لم يأنس بأقرانه ولم يلصق بأشكاله، ولم يُر مع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه، ولم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته، بل ما رأينا إلا ماضياً على إسلامه، مصمماً في أمره، محققاً لقوله بفعله، ولصق برسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» من بين جميع من حضره، فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته. (١)

(٦٩) ٧. الدعوة العامة وتطور ردود أفعال قريش تجاهها

بعد تلك السنوات الثلاث، عمد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى إعلان الدعوة جهراً، حين وقف ذات يوم على صخرة عند جبل الصفا منادياً بصوت عالٍ: «أرأيتمكم إن أخبرتكم إنالعدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونني؟» قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». (١) فرد عليه أحدهم: تبياً لك ألهذا دعوتنا؟ فتفرق الناس على أثر ذلك. إلا أنه بعد فترة من الدعوة العامة، تشكلت جماعة قوية متعاطفة متحابّة، من السابقين واللاحقين، أو القدامى والجدد، كانت بمثابة إنذار لآوساط الكفر والشرك والوثنية، وهم المخالفون، وقد تألفت تلك الجماعة من قبائل مختلفة منعوا الكفار من التعرض لهم، إذ لم يكن اتّخاذ أي قرار حاسم بحقهم، أمراً سهلاً ومريحاً. ولذا قرر سادة قريش مواجهته قائد تلك الجماعة ومحرّكهم، بوسائل الترغيب والترهيب، بالإغراء والتطميع، والإيذاء والتهديد، واستمرت برامج قريش وموقفها من الدعوة بهذه الأساليب طيلة عشر سنوات هي عمر الدعوة العامة في مكة، حتى اتّخذوا قرارهم النهائي بالتخلّص منه بقتله، في الوقت الذي تمكن (صلى الله عليه وآله وسلم) من إبطال مؤامرتهم وإفشالها بالهجرة إلى المدينة.

وقد بدأوا التحرك في مطالبته كفيله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبي طالب بأن يبعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عنهم قائلين له: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضللّ آباءنا، فإما أن تكفّه عنّا، وإما أن تُخلى بينا وبينه. إلا أنّأبا طالب ردّهم بقولجميلٍ حكيم. (٢)

ولكن الدين الجديد انتشر بقوة بين العرب، والقادمين إلى مكة خلال الأشهر الحرم، فأدرك طغاة قريش أن محمداً بدأ يفتح له مكاناً في قلوب جميع القبائل، فكثّر أنصاره منها، الأمر الذي دفعهم إلى مقابلة أبي طالب مرة أخرى، ليذكروه إشارة وتصريحاً، بالأخطار التي أحدثت بهم وبعقائدهم نتيجة نفوذ الإسلام وقوته: «إنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وعيب آلهتنا حتى تكفّه

١. السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ١ | ١٩٤.

٢. السيرة النبوية: ١ | ٢٦٤.

( ٧٠ )

عنا أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. فسكن غضبهم وأطفأ ثائرتهم وهدأ خواطرهم، ليتم معالجة هذه المشكلة بطريقة أفضل.



فأتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخبره بأمرهم، فردّ عليه بالجواب التاريخي الخالد، والذي يعتبر من أسطع وألمع السطور في حياة قائد الإسلام الأكبر محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم):

«يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته». ممّا أثر في عمّه بتلك الكلمات العظيمة، فأظهر استعداده الكامل للوقوف إلى جانبه قائلاً: إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشئٍ أبداً».

وحاولت قريش مساومة أبي طالب مرةً أخرى، للتخلّص من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ودعوته، إلاّ أنه رفض أى نوع من المساومة في هذه القضية، محافظاً على محمّد ودينه.

فسلكوا طريقاً آخر، ووسيلة أجدى لإثناء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن المضى في دعوته، وهي تطميعه بالمناصب والهدايا والأموال والفتيات الجميلات: فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً، وإن كنتَ إنما تطلب الشرفَ فينا فنحن نسوّدك ونشرّفك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك تابِعاً من الجنّ قد غلب عليك، بذلنا أموالنا في طَبِّكَ. إلاّ أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لعمّه: «يا عمّ أريدهم على كلمةٍ واحدةٍ يقولونها، تدين لهم العرب، وتودّي إليهم بها العجم الجزيّة».

( ٧١ )

قالوا: ما هي؟ قال: «لا إله إلاّ الله». فقاموا فرعين قائلين: (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشئ عجاب). (١) ٨. استخدام الأساليب المتعدّدة لمنع انتشار الدعوة الجديدة

بعد استخدام أسلوب الأخذ والرّد مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن طريق كفيله، وعدم جدواه، اضطرت قريش إلى تغيير أسلوبها ونهجها مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في منع انتشار دينه، مهما كلف الثمن. فقرّروا اتخاذ سلاح السخريّة والاستهزاء، والإيذاء والتهديد.

وكان أبو طالب من جانب آخر، قد طلب من بنى هاشم جميعاً القيام بحماية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلبّوا نداءه سواء بدافع الإيمان أو الرحم، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من إيقاع الأذى بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كلّما وجدوا الفرصة السانحة، وخاصةً إذا وجدوه وحيداً بعيداً عن أعين حماته.

إنّ التاريخ يشهد بأنّ وجود رجال ذوى بأس شديد وقوة بين صفوف المسلمين، مثل «حمزة» الذي أصبح فيما بعد أحد كبار قادة الإسلام، كان لهم أثر كبير في حفظ الإسلام وحماية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ودعم جماعته. فقد جاء عنه: لما أسلم حمزة عرف قريش أنّ رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قد عزّ وامتنع، فكفّوا عمّا كانوا يتناولون منه. (٢)

أمّا أساليب قريش فتعددت في الإيذاء والإيقاع بالرسول وجماعته، فقد كمن أبو جهل للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما وقف للصلاة بين الركن اليماني والحجر الأسود، ليضربه بحجر، إلاّ أنّه رجع عن عزمه دون أن ينفذ خطته، مجيئاً أصحابه في ذلك: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلمّا دنوتُ منه

١ . السيرة الحلبية: ٣٠٣ | ١؛ تاريخ الطبري: ٢ | ٦٥.

٢ . الكامل: ٢ | ٥٦.

( ٧٢ )

عرض لي دونه ما لا رأيت مثله في حياتي، فتركته. (١)

ولا شك أنّ قوةً غيبيةً أدركت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في تلك اللحظة وحفظته، كما وعده الله تعالى قائلاً: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ

المُستَهزئين) (٢) فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يواجه في كل يوم نوعاً خاصاً من الأذى والمضايقه من هؤلاء الأشرار، وأشهرهم: عقبه بن أبي معيط الذي شتمه وضربه، فكان أشد خصومه بغضاً له (صلى الله عليه وآله وسلم). وعمه أبو لهب الذي تعرض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأذاه مع زوجته أم جميل، فقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يجاورهم فقاموا بإيذائه وإزعاجه، بإلقاء الرماد والتراب على رأسه الشريف، ونشر الشوك على طريقه أو عند باب بيته. والأسود بن عبد يغوث، أحد المستهزئين، والوليد بن المغيرة، شيخ قريش وحكيمها وأكبر الملاك فيها، وأميه وأبي، ابنا خلف، وأبو جهل (أبو الحكم بن هشام)، و العاص بن وائل، والد عمرو بن العاص الذي وصف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالأبتر.

وعندما فشلت أساليب قريش وأسلحتها الصديئة في القضاء على الدين الجديد وأهله، عمدوا إلى استخدام سلاح جديد لعله يكون أقوى من سوابقه، للحيلولة دون انتشار الإسلام واتساع رقعته، وقطع علاقته بالمجتمع العربي، وهو سلاح الدعاية ضد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). و من أساليبه:

الآتهامات الباطلة، وقد أقرت استخدامها في دار الندوة، حين طرحوا فكرتها على «الوليد بن المغيرة» (٣) الذي كان ذا مكانة مميزة عندهم، فقال: يا معشر قريش، إنّه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد

١ . السيرة النبوية: ١ | ٢٩٨.

٢ . الحجر: ٩٥.

٣ . أبو خالد بن الوليد.

(٧٣)

قولكم بعضه بعضاً، ورأى ألا يقولوا عنه كاهن أو مجنون أو ساحر. وهكذا تحيروا في ما ينسبون إلى رسول الله حتى اتفقوا على أن يقولوا: إنّه ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وأخيه وزوجته وعشيرته، والدليل على ذلك ما أوجده من خلاف وانشقاق وتفرق بين أهل مكة الذين عرفوا بالوحدة والاتفاق. (١)

كما أشاعوا عنه الجنون، وأنما يقوله ويقراه ما هو إلا من نسج الخيال ومن أثر الجنون الذي لا يتنافى مع الزهد والأمانة.

وقد رد القرآن الكريم على جميع تلك الاتهامات في آيات كثيرة وفنّدها.

وقد استمر أسلوبهم في الاتهام والتشويش على شخصية النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) والرسالة المحمدية بكلام الصور والمظاهر، فوصفوه بالكاهن، والساحر، والمجنون، وأنه معلّم من قبل نصراني، وكذاب و مفتر و شاعر، وما يقوله أضغاث أحلام. ولما لم تأت كالتلك الاتهامات بالنتيجة المرجوة، ولم تنفع في الإيقاع به، لمعرفة الناس بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وصفاته وأخلاقه منذ سنين بعيدة، اتجهوا إلى أسلوب آخر، وهو معارضة القرآن الكريم عن طريق «النضر بن الحارث» أحد أعداء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي تعلم في العراق شيئاً من أساطير الفرس وحكاياتهم، ليقصّ منها على الناس فيلهم عن السماع لرسول الله الأصغاء للقرآن الكريم. إلا أنّ ذلك لم يدم طويلاً، فقد سأمت قريش أحاديثه فتفرقت عنه.

فاتجهوا إلى أسلوب المجادلات الجاهلية والمآخذ السخيفة على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ورسالته، وهي تبرز تكبرهم وعنادهم وجهلهم التي

١ . السيرة النبوية: ١ | ٢٧٠.

(٧٤)

طبعوا عليها. ومن أمثال هذه الوسيلة الاعتراض على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» للآمور التالية :

١. عدم نزول القرآن على أحد أثريائهم.

٢. عدم إرسال الملائكة إليهم.

٣. تبديل الآلهة بآله واحد.

٤. جدد الحياة يوم القيامة.

٥. عدم تملكه لمعجزات متعدده كما كان لموسى (عليه السلام).

وفى الوقت نفسه قدموا مقترحات لإصلاح الوضع بينهم وبين النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) مثل:

- أن يقوم بعبادة أصنامهم سنة، على أن يعبدوا إلهه سنة أخرى.

- تبديل القرآن على ألا يحتوى على شجب عبادة الأوثان.

- مطالب مادية عجيبة مستحيلة ومتناقضة، كأن يفجر لهم ينابيع، أو يأتي بالله سبحانه وتعالى.

وعندما قدم وفد مسيحي تكوّن من عشرين رجلاً من قبل أساقفة الحبشة لتقصي الحقائق في مكة والتعرف على الإسلام، وزيارة النبي

الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» في مكة، فجالسوه في المسجد وكلموه وسألوه بعض المسائل، حتى عرض عليهم دينه وقرأ عليهم

آيات من القرآن الكريم، فتأثرت نفوسهم وآمنوا به وصدقوه.

وكان أبو جهل قد شاهد ما حدث فوبّخهم على موقفهم وبما عملوا دون أن يودّوا عملهم كوفد من بلدهم، إلا أنهم لم يردوا عليه إلا

بخير. فكان لهذا الموقف أثره السيء في قريش دفعهم إلى تكوين وفد من «النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط» للسير إلى أحبار

يهود المدينة وسؤالهم عن دين الرسول «صلى الله

(٧٥)

عليه وآله وسلم» فأخبرهم اليهود أن يسألوه عن ثلاث، إذا عرفها فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو متقول.

١. عن فتيه ذهبوا في الدهر الأول.

٢. عن رجل طواف.

٣. عن الروح، ماهي؟

فأجابهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالآيات القرآنية، عن الروح في الآية ٨٥ من سورة الإسراء، وأصحاب الكهف وذو

القرنين في سورة الكهف.

فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قابل تلك الآراء الشاذة والمقترحات المؤذية بصبر عظيم وثبات هائل، حرصاً منه على إبلاغ رسالته.

وبعد هذه الخطة الفاشلة، نفذوا خطة أخرى وهي: منع كل من رغب في الإسلام وقدم إلى مكة للتعرف على النبي والاتصال به، وذلك

بنشر الجواسيس في الطرقات للتعرض لهؤلاء ومنعهم من الوصول إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وممن تعرضوا له في الطريق:

الشاعر الأعشى، الذي قدم إلى مكة ليهدى للرسول أبياتاً شعريّة ويعلن إسلامه على يديه، فأقنعوه بالعودة إلى بلده بعد أن أخبروه أن

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يحرم الخمر، وكان الأعشى يحب الخمر والنساء. وقد مات في نفس العام فلم يقد على رسول الله

«صلى الله عليه وآله وسلم». (١) كما تعرّضوا للطفيل بن عمرو الدوسي الذي خشيت قريش أن يقوم بالاتصال بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

وآله وسلم) وهو شاعر حكيم، صاحب نفوذ وكلمة مسموعة في قبيلته، فخوّفوه من كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسحره. إلا

أنّه عندما سمع شيئاً من أقوال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دون وعى منه، أحسن القول فأسلم وشهد شهادة الحق، ورجع إلى

بلاده داعياً قومه إلى

١ . السيرة النبوية: ١ | ٣٨٦.

( ٧٦ )

الإسلام، إلى أن تمّ اتصاله بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بخيبر فبقى معه حتى قبض (صلى الله عليه وآله وسلم) ثمّ شارك المسلمين بعد ذلك في معارك اليمامة زمن الخلفاء الراشدين، وقتل فيها. (١)

وتطورت وسائل وأساليب قريش في التخلص من دعوة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وإيقاف زحف تلك الدعوة الإسلامية واتساعها في مدّة غير طويلة، إلى فرض حصار اقتصادى قوى على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين، تُقطع به كلاً للشرايين الحيوية لهم، فتحدّد بذلك من سرعة انتشار الدين، وتخنق مؤسسه وأنصاره. ولهذا وقّع زعماء قريش فى دار الندوة ميثاقاً كتبه: «منصور بن عكرمة» وعلّقه فى جوف الكعبة، وتحالفوا على الالتزام ببنوده حتى الموت، وذلك فى السنة السابعة من البعثة. وقد ضمّ الميثاق البنود التالية:

١. عدم التعامل التجارى مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنصاره.

٢. عدم التزاج منهم.

٣. عدم التحدّث معهم أو تناول الطعام معهم.

٤. وأن يكونوا يداً واحداً على محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنصاره.

فما كان من «أبى طالب» إلاّ أن طلب من بنى هاشم وبنى المطلب، الاستعداد للدفاع عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والحفاظ على حياته وسلامته، على أن يستقرّوا خارج مكّة فى شعب بين جبال مكّة عُرفَ بشعب أبى طالب، والذى شمل بعض البيوت البسيطة، كما عيّن بعض الرجال فى جوانب مختلفه ومتفرقة، لمراقبة الطرق وحراسه المكان تحسباً لآى طارى. (٢)

١ . السيرة النبوية: ١ | ٣٨٢.

٢ . السيرة النبوية: ١ | ٣٥٠؛ تاريخ الطبرى: ٢ | ٧٨.

( ٧٧ )

ويشهد التاريخ أنّ أقوى العوامل فى ثبات أقلية وصمودها فى وجه الأكتريه هو: قوة الإيمان و الاعتقاد، وهذا ما تجلّى فى أبى طالب و بنى هاشم فى هذه المأساة.

فقد استمر الحصار ثلاثة أعوام، جاع فيها الأطفال والكبار متحمّلين قسوة الحال، فكان يعيش الفرد منهم على ثمرة واحدة طوال اليوم، وربما تقاسمها اثنان.

ولمّا كان لايسمح لهم بالخروج من الشعب إلاّ فى الأشهر الحرم حيث يسود الأمن فى أنحاء الجزيرة العربية، فيخرج بنو هاشم للشراء والبيع ثمّ العودة إلى الملجأ، فإنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يستغل هذا الموسم فى نشر دينه ودعوته. إلاّ أنّ تجار قريش كانوا يزيدون فى سعر السلعة إذا أرادها مسلم، على أن يقوم أبو لهب والوليد بن المغيرة بتعويض خسارة هؤلاء التجار. كما أنّهم عينوا الجواسيس على الطرق المؤدية للشعب حتى يمنعوا الاتصال بالمسلمين. إلاّ أنّ بعضاً من أنصار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يوصل الطعام إليهم سرّاً خلال الليل كما أنّ قريشاً كانوا يصادرون مال كلّمّن أراد التعامل مع أصحاب الشعب، فى الوقت الذى اشتدّ إيذاؤهم لمن أعلن إسلامه.

ولكنّهم تأكّدوا بعد فترة ليست قليلة بأنّ حصارهم هذا لم يأت بنتيجة مرجوة، ولم يتحقّق هدفهم منه و من غيره من الوسائل والأساليب، ففكروا فى نقض الميثاق بأى شكل. فقد صرّح «زهير بن أبى أميّة» فى مجلس قريش فى المسجد الحرام بعدما اتّفق مع عدد آخر من المعارضين لمقاطعة بنى هاشم:

يا أهل مكّة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلأى لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصأيفة القاطعة الظالمة.

وقام «المطعم بن عدى» إلى الصأيفة ليشقها، فوجد أن الأرضة قد أكلتها إلا  
(٧٨)

عبارة: «باسمك اللهم» فأسرع «أبو طالب» إلى الشعب يخبر الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بما جرى، وانفك الحصار وعاد المحاصرون إلى منازلهم مرة أخرى. وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد علم بأمر تقطيع الصأيفة والأرضة التي أكلتها إلا اسم الله، فأخبر أبا طالب بذلك، الذى قام بإخبار زعماء قريش بذلك، وأتفق معهم على: إن كان حقاً ما ذكر الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» فاتقوا الله وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعه الرحم، وإن كان باطلاً دفعته إليكم، فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم استحيتتموه. وبقالوا: رضىنا، وتعاقدوا على ذلك. إلا أنهم نقضوا اتفاقهم و نكثوا عهدهم لما شاهدوا وتأكدوا ما قاله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بل ازدادوا شراً وعناداً، ورجع بنو هاشم مرة أخرى إلى الشعب محاصرين فيه فترة أخرى، حتى نقضها «هشام بن عمرو» فأنهى الحصار الاقصادى لبنى هاشم فى منتصف شهر رجب من السنة العاشرة للبعثة النبوية الشريفة. وإلى جانب ذلك، فإن أفراداً من المسلمين تعرّضوا لإيذاء قريش وتحملوا أشد أنواع العذاب، واشتهر منهم:

١. بلال الحبشى، الذى كان غلاماً لـ «أمية بن خلف» وهو أشد أعداء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فعمد إلى تعذيب هذا الغلام انتقاماً و تشفياً من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ أنه تردد - أى أمية - من إلحاق الأذى به (صلى الله عليه وآله وسلم) خوفاً من عشيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحامية له. (١)

٢. وعمار بن ياسر، الذى كان والده من السابقين إلى الإسلام، فعمد المشركون إلى إيذائهم وتعذيبهم بعد ما انضموا إلى المسلمين، فكانوا يُخرجون «عماراً وياسر وسمية» فى وقت الظهيرة وبقونهم طويلاً تحت أشعة الشمس، حتى مات ياسر، كما طعن أبو جهل بالرمح سمية فى قلبها فماتت، فاعتبرا أول

١. قتله بلال بالإضافة إلى ابنه بعد أن أسر فى معركة بدر.

(٧٩)

شهيدين فى الإسلام. (١)

أمّا عمار فقد استخدم التقية للإبقاء على نفسه، حيث تظاهر بترك الدين الإسلامى حسب طلبهم، فانصرفوا عنه وتركوه. ولما ندم على فعله، طمأنه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن عادوا فعد».

٣. «عبد الله بن مسعود» الذى أبدى استعداداً للقيام بتلاوة القرآن جهراً على مسامع قريش فى المسجد الحرام، فقرأ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ) فقام إليه الجميع يضربونه فى وجهه وهو يقرأ حتى أدمى جسمه ووجهه فتركوه، وهو مسرور بما عمله فى تمكين قريش من الاستماع إلى كتاب الله تعالى وآياته المباركة. (٢)

٤. وأبو ذر، أيضاً جاهر بالدين حين كان المسلمون يدعون سراً، فقد نادى فى المسجد: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. (٣) ويؤكد التاريخ أن نداءه هذا كان أول نداء تحدى جيروت قريش وظلمها، أطلقه رجل غريب عن مكّة وأهلها. فهجم عليه جماعة من قريش وضربوه بشدة حتى أنقذه «العباس بن عبد المطلب» من الموت. بحجة أنه من غفار، وتمر تجارة قريش على بلده، فخافوا على تجارتهم فأمسكوا عنه.

ولما لم يحن الوقت بعد للدخول فى مواجهات ساخنة مع المشركين، فإن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أمره بأن يلحق بقومه

يدعوهم للإسلام: «إلحق

١ . بحار الأنوار: ١٨ | ٢٤١؛ السيرة الحلبية: ١ | ٣٠٠.

٢ . السيرة النبوية: ١ | ٣١٤.

٣ . حلية الأولياء: ١ | ١٥٨، طبقات ابن سعد: ٤ | ٢٢٥؛ الاستيعاب: ٤ | ٦٣.

( ٨٠ )

بقومك فإذا بلغك ظهورى فأنتى».

وقد تمكن من التأثير فى قومه، فأسلم أبواه، ونصف رجال قبيلته - غفار - ثم أسلم الباقي بعد هجرة النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة، ثم تبعها قبيلة «أسلم» التى وفدت على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واعتنقوا الإسلام.

وقد التحق «أبو ذر» بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فى المدينة وأقام بها (١) و هو أول المهاجرين بالإسلام، ورابع أو خامس من أسلم، فكان من

السابقين والأوليين، الذين لهم مكانة عظيمة عند الله تعالى ومقاماً لا يضاهاى \_\_\_\_\_.

١ . الدرجات الرفيعة: ٢٢٥ - ٢٣٠.

## الفصل الرابع

الفصل الرابع موقف النبى (صلى الله عليه وآله وسلم)

من إيذاء الكفار للمسلمين

- الهجرة إلى الحبشة

- الإسراء والمعراج

- سفره (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الطائف

- المرحلة الجديدة فى الدعوة ونتائجها: بيعة العقبة

- الهجرة الكبرى

- الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فى المدينة ( ٨٢ ) ( ٨٣ ) مواجهة المسلمين أمام أفعال قريش

١ . الهجرة إلى الحبشة

تعتبر هجرة فريق من المسلمين إلى الحبشة دليلاً بارزاً على إيمانهم وإخلاصهم العميق لدينهم وربهم، فقد قرّر فريق من الرجال والنساء، بهدف الحفاظ على عقيدتهم، والتخلص من أذى قريش، والإقامة فى مكان آمن يقيمون فيه شعائرهم بحرية ويعبدون الله الواحد، أن يغادروا مكة إلى جهة تحقّق أهدافهم، فنصحهم النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) بالاتجاه إلى الحبشة قائلاً: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدقٍ حتى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه».

لماذا اختار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تلك الأرض؟ ويتضح السّر إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها. فالهجرة إلى المناطق العربية التى سكنها المشركون والوثنيون كانت تنطوى على خطر كبير على هؤلاء الأفراد من المسلمين، إذ أنّهم سيمتنعون عن قبولهم فى أرضهم إرضاءً لقريش أو وفاءً وتعصباً لدين الآباء. وكذلك لم تصلح المناطق التى عاش بها اليهود

( ٨٤ )

والنصارى لذلك إذ أنّ الصراع المذهبى والطائفى كان شائعاً بينهما، فلم تكن الأوضاع لتسمح بدخول طرف ثالث فى حلبة الصراع،

كما أن هؤلاء الفريقين - اليهود والنصارى - كانوا يحتقرون العنصر العربي أساساً، مما يمنع التعايش معهم.

أما المناطق الخارجية، فإن اليمن كانت تحت حكم الفرس، الذين لم يقبلوا بدعوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما بعد، حتى إن إمبراطور فارس طلب من عامله على اليمن، القيام بالقبض على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإرساله إليه. وكذلك الحيرة فقد كانت تحت النفوذ الإيراني وسيطرته. أما الشام فكانت بعيدة عن مكة المكرمة، لم تصلح للجوء المسلمين إليها، كما أنها كانت سوقاً لقريش تربط سكانها بهم روابط وعلاقات وثيقة، وهي علاقات اقتصادية قوية.

ولذا فإن الفريق المؤمن غادر مكة ليلاً في غفلة من المشركين نحو ميناء جدة للسفر عبر مينائها إلى أرض الحبشة، حيث وصلوا في الوقت الذي كانت فيه سفينتان تجاريتان على أهبه الإقلاع، فبادر المسلمون إلى ركبوها لقاء نصف دينار عن كل راكب. وكان الفريق مكوناً من عشرة أو خمسة عشر شخصاً، بينهم أربع من النسوة المسلمات، ولم يكونوا من قبيلة واحدة، بل انتمى كل واحد منهم إلى قبيلة معينة. وقد حدث ذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). (١)

وقد حاول المشركون في مكة اللحاق بهم، فبعثوا جماعة من رجالهم لإعادتهم إلى مكة، إلا أن السفينة كانت قد غادرت الميناء. وكان رؤساء «دار الندوة» بمكة وأقطابها، يعلمون جيداً أضرار هذه الهجرة وآثارها على أوضاعهم،

١. بحار الأنوار: ١٨ | ٤١٢.

(٨٥)

ولذا اهتموا في إعادتهم فوراً إلى ديارهم.

وقد تبعت هذه الهجرة، خروج جماعة أخرى بلغ عددها ٨٣ فرداً على رأسهم: «جعفر بن أبي طالب» ابن عم الرسول حيث تمت بحرية، وقد اصطحبوا فيها نساءهم وأولادهم، إلى أرض الحبشة أيضاً. وقد وجد المسلمون أرضها كما وصفها النبي ص: عامرة، وبيئته آمنة حرة، تصلح لعبادة الله تعالى بحرية وأمان. وبيئته «السيدة أم سلمة» الوضع بقولها: «لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمننا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذي، ولا نسمع شيئاً نكرهه».

وقد حدثت هذه الهجرة في رجب من السنة الخامسة من النبوة، وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة، فأقاموا شعبان ورمضان، وقدموا في شوال، لما بلغهم أن قريشاً أسلمت فعاد منهم قوم وتخلف آخرون. (١) إلا أن ذلك كان كذباً، فلم يدخل منهم مكة إلا القليل، وعادت الأكتريه إلى الحبشة ثانية. وكان ممن دخل مكة منهم: «عثمان بن مظعون» الذي دخل بجوار الوليد بن المغيرة، ولكنه رد عليه جواره فاختر جوار الله ليواسي المسلمين ويشاركهم آلامهم ومتاعبهم، مما جعله يتلقى فيما بعد شيئاً من تعذيب الكفار وأذيتهم فأصابوا عينه.

وحيثما علمت قريش ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون من أمن وحرية، ثار فيهم الحسد، وتوجسوا خيفة من نفوذهم هناك في الحبشة، التي اعتبرت أرضها الآن قاعدة قوية لهم، كما أنهم تخوفوا من اعتناق نجاشي الحبشة لدينهم، فيكسبوا تأييده، مما يدفعه إلى محاربة مكة فيما بعد للقضاء على حكمه

١. الكامل في التاريخ: ٢ | ٥٢.

(٨٦)

المشركين الوثنيين في شبه الجزيرة العربية. ولذا فقد اجتمع الأقطاب في «دار الندوة» للتشاور في هذا الأمر الخطير، فاستقر رأيهم على إرسال وفد منهم إلى البلاط الحبشي لاستمالة القواد والوزراء بالهدايا القيمة، لإخراج المسلمين من أرضهم، فقد تحدت تعليماتهم إلى رئيس الوفد: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة: ادفعا إلى كل بطريقهديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثمقداً إلى



النجاشي هداياه، وأسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

وحيثما توجهنا إلى الملك الذي تقبل الهدايا، قال له: أيها الملك إنه قد ضوى - أي لجأ ليلاً - إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردّهم إليهم، فهم أبصر بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وقد شجعهم على قولهم هذا بطارفتهم الذين حصلوا على الهدايا من قبل، إلا أن النجاشي الحكيم العادل رفض إجابته مطالبهم دون أن يرجع إلى المسلمين فيرى رأيهم. وعندما حضروا أمامه بقيادة «جعفر بن أبي طالب» الناطق باسمهم، سأله الملك: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فقال جعفر بن أبي طالب بعد أن وصف حالهم قبل الإسلام وكيف أن الله هداهم بالنبى (صلى الله عليه وآله وسلم): وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا،

(٨٧)

فعدنا علينا قوماً فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنّا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلّم عندك أيها الملك. (١)

وقد أثرت كلمات «جعفر» البليغة وحديثه العذب تأثيراً عجبياً في نفس النجاشي حتى أغرورقت عيناه بالدموع، وخاصة عندما قرأ عليه بعض الآيات القرآنية التي تخص عيسى و مريم «عليهما السلام» فبكى النجاشي وبكى أساقفته معه، وقال: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»، ويقصد أن القرآن والإنجيل كلام الله وأنهما شيء واحد. ثم التفت نحو موفدي قريش قائلاً: انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما.

إلا أن «عمرو بن العاص» فكّر في حيلة جديدة تخلّصهم من موقفهم السيء والمخزي، وهى: أن يخبر الملك بما يسىء إلى المسيح (عليه السلام) فقال في اليوم التالي للملك: إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً. ولكن جعفر أجاب الملك في ذلك: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم)، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. ممّا سرّ النجاشي ورضى به وقال: هذا والله هو الحق. وقال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون في أرضي، من سبكم غرم، ما أحب أن لى دبراً من ذهب، وإنى آذيت رجلاً منكم. ثم ردّ على وفد قريش هداياهم قائلاً: فلا حاجة لى بها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين ردّ على ملكى فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. (٢) لا فخر جوا من عنده خائبين مقبوحين.

١. أول الخطاب في ص ٢٠ من الكتاب.

٢. السيرة النبوية: ١/٣٣٨؛ إمتاع الأسماع: ٢١؛ بحار الأنوار: ١٨/٤١٤.

(٨٨) ٢. الإسراء والمعراج

بدأ النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) رحلته الفضائية من بيت «أم هانئ» أخت الإمام على (عليه السلام) (١) إلى بيت المقدس في فلسطين، والذي يسمّى المسجد الأقصى، وتفقد بيت لحم مسقط رأس السيد المسيح (عليه السلام) ومنازل الأنبياء وآثارهم، وصلى عند كل محراب ركعتين. ثم بدأ في القسم الثانى من رحلته، المعراج إلى السماوات العلى، فشاهد النجوم والكواكب، وأطلع على نظام العالم العلوى، وتحدّث مع أرواح الأنبياء والملائكة، وأطلع على مراكز الرحمة والعذاب - الجنة والنار - ورأى درجات أهل الجنة، و تعرّف على أسرار الوجود و رموز الطبيعة، ووقف على سعة الكون وآثار القدرة الإلهية المطلقة، ثم واصل رحلته حتى بلغ سدره المنتهى، فوجدها مسربلة بالعظمة المتناهية والجلال العظيم. وهنا كان قد انتهى برنامج الرحلة، فأمر بالعودة من حيث أتى، فمرّ في



طريق عودته، على بيت المقدس ثانية، ثم توجه نحو مكة، ماراً على قافلة تجارية خاصة بقريش، وبعير لهم قد ضلّ في البيداء يبحثون عنه، وشرب من مائهم، ثم ترجل عن مركبته الفضائية - البراق - في بيت أم هانئ، قبل طلوع الفجر. فأخبرها بما حدث، كما كشف عنه في أنديه قریش صباح نفس تلك الليلة. إلا أن قریشاً كعادتها كذّبت وأنكرته، على أساس عدم استطاعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) القيام بذلك في ليلة واحدة، وطلبوا منه أن يصف بيت المقدس، فوصفه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وصفاً شاملاً، مع ما شاهده في الطريق، وخاصة

١ . مجمع البيان: ٦/٣٩٥؛ السيرة النبوية: ١/٣٩٦.

(٨٩)

عير قریش، التي أكد لهم بأنها الآن في موقع التنعيم، فلم تمض لحظات حتى طلعت عليهم العير، فحدّثهم أبو سفيان بكلّ ما أخبرهم به الرسول من ضياع بعيرهم في الطريق والبحث عنه. (١)

وقد اختلفت الأقوال عن وقت حدوث الإسراء والمعراج، فادّعى «ابن هشام و ابن إسحاق» أنه وقع في السنة العاشرة من البعثة الشريفة، وذهب المورّخ «البيهقي» أنه حدث في السنة الثانية عشرة منها، بينما قال آخرون إنه وقع في أوائل البعثة، في حين أن فريقاً رابعاً أكد وقوعه في أواسطها. وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال أنه كان لرسول اللّهمعراج متعدّدة.

وهناك اعتقاد أن المعراج الذي فرضت فيه الصلاة وقع بعد وفاة أبي طالب (عليه السلام) في السنة ١٠ من البعثة. والذين تصوّروا أن المعراج وقع قبل هذه السنة مخطئون، لأنّ النبي ص كان محصوراً في شعب أبي طالب منذ عام ٨ وحتى ١٠، فلم يكن المسلمون مستعدّين لوضع التكاليف عليهم. و أمّا سنوات ما قبل الحصار، فعلاوة على ضغوط قریش على المسلمين، والتي كانت مانعاً من فرض الصلاة عليهم، فإنّ المسلمين كانوا قلّة، ولم يكن نور الإيمان وأصول الإسلام قد ترسخت بعد في قلوب ذلك العدد القليل، ولذا يستبعد أن يكونوا قد كلّفوا بأمر زائد مثل الصلاة في مثل تلك الظروف.

أمّا ما ورد في بعض الأخبار والروايات، بأنّ الإمام علياً (عليه السلام) صلّى مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل البعثة بثلاث سنوات، فليس المراد منها الصلاة المكتوبة، بل كانت عبارة عن عبادة خاصة غير محدّدة، أو كان المراد

١ . بحار الأنوار: ١٨/٢٨٣ و ٤١٠.

(٩٠)

منها الصلوات المندوبة والعبادات غير الواجبة. (١)

وأما بالنسبة لما قيل وذكر عن معراج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جسمانياً أو روحانياً، فقد قيل فيه الكثير، بالرغم من أنّ القرآن الكريم والأحاديث النبوية تؤكد أنّ ذلك حدث جسمانياً، إلا أنّ بعض الآراء ترى أنّ ذلك وقع روحانياً، أي أنّ روح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) طافت في تلك العوالم ثمّ عادت إلى جسده (صلى الله عليه وآله وسلم) مرّة أخرى، وذهب آخرون إلى أنّ كلّ ذلك حدث في عالم الرويا، ورويا الأنبياء صادقة. (٢) وربما دلّ تكذيب قریش وانزعاجها واستنكارها لحديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على أنّ ذلك حدث جسمانياً. وإذا كان المراد من المعراج الروحاني هو التفكير في عظمة الحقّ وسعة الخلق والتدبير في مخلوقات الله ومصنوعاته ومشاهدته وجماله وجلاله، فلا شكّ أنّ ذلك ليس من خصائص رسولنا الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بل إنّ كثيراً من الأنبياء والأولياء امتلكوا هذه المرتبة، بينما اعتبره القرآن الكريم من خصائصه (صلى الله عليه وآله وسلم) ونوع من الامتياز الخاصّ بهص. كما أنّ حالة التفكير في عظمة الخالق والاستغراق في التوجه إليه، كانت تتكرر للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في كلّ ليلة، وليس ليلة بعينها كما جرى وحدث في المعراج.

أمّا في العلم الحديث، فإنّ القوانين الطبيعية والعلمية الحالية لا تتلاءم مع معراج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك للأسباب التالية:

١. إنّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلّص من جاذبيتها، أى إبطال مفعولها، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد خرج عن محيط الجاذبية وأصبح في حالة انعدام الوزن، فكيف تمكن أن يطوى هذه المسافات بدون الوسائل

١. يراجع في ذلك الكافي: ٣/٤٨٢.

٢. نقل العلامة الطبرسي في تفسير مجمع البيان إجماع علماء الشيعة على جسمانية المعراج: ٦/٣٩٥.

(٩١)

والأدوات اللازمة، وعدم توافر الغطاء الواقى، الذى يصون الجسم من التبثر والذوبان بفعل السرعة الهائلة؟

٢. و كيف تمكن من العيش و الحياة فى أعالي الجو بدون وجود أوكسجين؟

٣. و كيف تمكن أن يصون نفسه من الأشعة الفضائية والأحجار السماوية؟

٤. و إذا كان الإنسان يعيش تحت ضغط معين من الهواء لا يوجد فى الطبقات العليا من الجو، فكيف حافظ على حياته هناك؟

٥. لا يستطيع أى جسم أن يتحرّك بسرعة تفوق سرعة النور، التى هى ٣٠ ألف كم فى الثانية، فكيف استطاع النبيالسير بتلك السرعة

الهائلة ويرجع إلى الأرض سالمًا الجسم!؟

و الجواب على ذلك سهل ويسير، فإنّ البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكلات عديدة فى مجال ارتياد

الفضاء، مثل مشكلة الأشعة الفضائية وانعدام الغاز اللازم للتنفس، كما أنّ العلماء يخطّطون للعيش على سطح الكواكب كالقمر

والمريخ، وبذا فإنّ العلم يؤكّد سهولة ارتياد الفضاء وعدم استحالته، فإذا كان البشر فى إمكانه أن يقوم بذلك عن طريق الأدوات

والآلات العلمية، فإنّ الأنبياء يمكنهم فعلها بواسطة قدرة الله سبحانه و تعالى وفعله. فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عرج بعناية

وقدره الله الذى خلق الوجود كلّ، وأقام هذا النظام البديع. فجميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخرة لله تعالى وخاضعة لإرادته،

ومطبعة لأمره. وكأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يخبر البشرية وحتى الذين يعيشون فى هذا القرن: إننى فعلت هذا بدون أية

وسيلة، وإنّ ربّى قد منّ عليّ وعزّفتنى على نظام السماوات والأرض، وأطلعنى بقدرته وعنايته على أسرار الوجود و رموز الكون.

(٩٢)

وقال الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) فى ذلك: «إنّ الله يوصّف بمكان ولا يجرى عليه زمان، ولكنّه عزّ وجلّ أراد أن يشرف به

ملائكته وسكان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمتة ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون ،

سبحان الله تعالى عمّا يصفون». (١) (٣). سفر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الطائف

توفيت السيدة خديجة (عليها السلام) بعد وفاة أبى طالب، بشهر وخمسة أيام، فى السنة العاشرة من البعثة. (٢) وهى التى سمّاها الرسول

«صلى الله عليه وآله وسلم» عام الحداد أو الحزن. ومنذ هذا الوقت واجه (صلى الله عليه وآله وسلم) ظروفًا صعبة قاسية قلّما واجهها من

قبل. فقد اصطدم منذ بداية السنة الحادية عشرة بأحوال قاسية مفعمة بالعداء والحقد والأخطار التى هدّدت حياته الشريفه، بل افتقاد

إمكانية نشر الدعوة. فلمّا هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الأذى ما لم تكن تطمع به فى

حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فشر على رأسه ترابًا. وفى البيت عندما بكت ابنته على وضعه هذا قال: «ما نالت

منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب». (٣)

وقد دفع هذا الأمر المتردّى، أن يبحث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن بيئة أخرى أفضل من بيئته لنشر الدعوة فيها، فاختار

الطائف التى كانت تعتبر مركزاً هاماً آنذاك، فقرر السفر إليها وحيداً لمقابلة زعماء ثقيف، لعلّه يكسب نجاحاً فى مهمته أو أنصاراً

جدداً \_\_\_\_\_.

١ . علل الشرائع: ٥٥؛ البحار: ١٨ | ٣٤٧؛ تفسير البرهان: ٢ | ٤٠٠.

٢ . تاريخ الخميس: ١ | ٣٠١.

٣ . السيرة النبوية: ١ | ٤١٥؛ بحار الأنوار: ١٩ | ٥.

(٩٣)

إلا- أن عرضه لم يؤثر فيهم، بل إنهم ردوا عليه بصيانية أوضحت تملصهم من قبول الدعوة أو اعتناق الدين، بل أنهم تهادوا في سلوكهم العدواني فأحاط به جمع كبير منهم يستبونه ويصيحون به، فالتجأ إلى بستان «عتبة وشيبة ابني ربيعة» للتخلص من هؤلاء السفهاء، وعمد إلى ظل جلس فيه وهو يتصبب عرقاً، فقد ألحقوا الأذى بمواضع عديدة من بدنه الشريف، كما أن رجليه سالت منهما الدماء، ولما دعا الله سبحانه وتعالى أن يعينه على هؤلاء الأشرار، فقد تقدم إليه ابنا ربيعة - اللذان كانا ينظران إليه و يريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف - بطبق من عنب قدمه إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) غلام لهما اسمه «عداس النصراني» من أهل نينوى، فلما رأى ما يعلمه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من علوم عن المسيح (عليه السلام) أسلم على يديه.

إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يتمكن من الرجوع إلى مكة بسهولة، حيث خاف أذى المشركين، مما جعله يترك «نخلة» وهي واد بين الطائف ومكة، إلى حراء، فالتقى رجلاً من بني خزاعة طلب منه أن يخبر «المطعم بن عدي» بحالته، ويسأله أن يجير رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يدخل مكة في أمان.

ورغم أن «المطعم» كان وثنياً، إلا أنه قبل أن يجيره «صلى الله عليه وآله وسلم» فدخل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مكة ليلاً، ونزل في بيت «المطعم» و بات فيه، ثم دخل في الصباح مع أهل بيته إلى المسجد الحرام ثم إلى منزله. (١)  
ولم ينس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عمله الطيب هذا، بل تذكره حتى بعد وفاة المطعم، إذ أنه أعلن في معركة بدر عن استعداده للإفراج عن جميع

١ . السيرة النبوية: ١ | ٣٨١؛ بحار الأنوار: ١٩ | ٧.

(٩٤)

الأسرى لو كان حياً، تقديراً لما قام به من إجارة وخدمته كبيرة له.

وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يستخدم كل وسيلة وطريقة لنشر دعوته، فكان يقوم بالدعوة في كل وقت وكل مكان، منتهزاً الفرص المناسبة لذلك، مثل استغلاله لأسواق العرب الشهيرة: عكاظ والمجنة وذى المجاز، حيث كان الخطباء والشعراء يقفون فيها ليلقوا ما عندهم من شعر وخطب، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقف على مكان مرتفع خاطباً: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدلّ لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة». (١)

كما أنه كان يلتقى في مواسم الحج بروساء القبائل وأشرفها يعرض عليهم دينه، ويدعوهم إلى الله سبحانه، ويخبرهم بأنه نبي مرسل، ويقول ابن هشام في ذلك: كان (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يسمع بقادم من العرب إلى مكة له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده \_\_\_\_\_.

١ . طبقات ابن سعد: ١ | ٢١٦.

(٩٥) المرحلة الجديدة في الدعوة و نتائجها المؤثرة ٤. بيعة العقبة

سكنت يثرب قبيلتا الأوس والخزرج في القرن الرابع الميلادي يعد هجرتهم من اليمن، وهم من القحطانيين . كما سكن بجانبهم اليهود القادمين من شمال الجزيرة العربية. وكثيراً ما كان يحضر منهم جماعة إلى مكة، فكان النبي يلتقى بهم ويتصل معهم عارضاً عليهم دينه،

وقد كان لهذه اللقاءات والاتصالات أثرها فيما بعد ودافعاً لهجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يثرب، فقد كان حجاجهم ينقلون أخباره (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أهاليهم، مما مكنهم التعرف عليه وعلى أهدافه. وقد تمت تلك الاتصالات فيما بين سنوات ١١، ١٢، ١٣ من البعثة.

ومن أشهر من تشرف بمقابلة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «سويد بن الصامت» الذى أسلم ونشر الإسلام بين قومه، إلا أن الخزرج قتلته قبل يوم بعث. (١) و «إياس بن معاذ» الذى رأى فى إسلام أهله تخلصاً من النزاع والتناحر بينهم، ليصبحوا بفضل الدين الجديد إخوة تزول بينهم أسباب العداة والقتال.

وكذلك تمت مبايعة ستة أفراد من الخزرج والإيمان به وبالإسلام: إننا قد

١ . بعث، موضع جرت فيه حرب بين الأوس والخزرج.

(٩٤)

تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك. (١)

وكان لهؤلاء تأثيرهم الإيجابى فى أهل يثرب، حيث أسلم عدد منهم، وقدم فى السنة التالية ١٢ من البعثة، اثنا عشر رجلاً منهم، عقدوا مع النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» بيعة العقبة، وهى أول بيعة فى الإسلام، وكان أبرزهم: أسعد بن زرارة، وعبادة الصامت.

وكان نص البيعة، بعد الاعتراف بالإسلام والإيمان بالله وبرسوله: «بايعنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف» ويرد عليهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر». وطلبوا من النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يرسل إليهم من يعلمهم القرآن والدين، إذ أنهم نشطوا فى نشر الإسلام بعد عودتهم إلى يثرب، فبعث إليهم: «مصعب بن عمير» الداعية النشط الذى تمكن من أن يجمع المسلمين فى غياب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويوصلهم ويصلى بهم. (٢)

وهكذا فقد أحدث تقدم الإسلام فى يثرب، هيجاناً كبيراً، وشوقاً عجبياً فى نفوس المسلمين من أهلها، فانتظروا حلول موسم الحج للالتقاء بالرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، فخرجت قافلة كبيرة منهم ضمت ٥٠٠ نفر، فيهم ٧٣ مسلماً

١ . تاريخ الطبرى: ٢/٨٦؛ السيرة النبوية: ١/٤٢٧؛ بحار الأنوار: ١٩/٢٥.

٢ . السيرة النبوية: ١/٤٣٤؛ بحار الأنوار: ١٩/٢٥.

(٩٧)

بينهم امرأتان، فالتقوا بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذى واعدهم بالعقبة: «موعدكم العقبة فى الليلة الوسطى من ليلالى التشريق»، وهى الليلة ١٣ من شهر ذى الحجة، فاجتمع بهم مع عمه «العباس بن عبد المطلب» بعد أن مضى ثلث الليل ونام الناس، حتى لا يشعروا بخروجهم.

فتكلم فيهم العباس قائلاً: إنمحمداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو فى عز من قومه ومنعه فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعه من قومه وبلده.

ثم تكلم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما

تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فبايعوه على ذلك و هم في حماس وسرور عظيم.

كما أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عاهدهم على أن يبقى معهم، ويكون بجانبهم في سلمهم و حربهم: «أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم» ثم قال لهم: «أخرجوا إليمنكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، فقالص: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - أي المسلمين - فأبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون نساءكم وأولادكم». فقالوا: نعم. فبايعوه على ذلك».

وكان النقباء ، ٩ من الخزرج و ٣ من الأوس، وقد انفضّ الجمع بعد ذلك، بعد أن وعدهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يهاجر إليهم في الوقت المناسب. (١)

١ . بحار الأنوار: ١٩ | ٢٥؛ السيرة النبوية: ١ | ٤٤١؛ طبقات ابن سعد: ١ | ٢٢١.

(٩٨)

أمّا بخصوص قبول أهل يثرب الدين الإسلامي أسرع من أهل مكّة الذين رفضوه خلال ثلاثة عشر عاماً، فإنّ هناك عاملين هامين كان لهما التأثير المباشر القويّ في ذلك:

١. وجود اليهود بالمدينة، وقيامهم بنشر الأخبار عن ظهور نبي جديد ودين جديد، ممّا هيأ أهلها لقبول هذا الدين الذي كانوا ينتظرونه، الأمر الذي جعلهم أسرع في تقبلهم للدعوة خلال البيعة الأولى، حين قال بعضهم لبعض: واللّه إنّه للنبيّ الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه.

٢. كما أنّ الحروب الطويلة التي جرت بين أطراف أهل يثرب، والتي استمرت مائة وعشرين عاماً، قد أنهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقى من رمقهم، فملّوا الحياة، وفقدوا كلّ أمل في تحسن الأحوال والأوضاع، فبحثوا عن مخلص لما هم فيه من حالة سيئة ومشكلات مزمنة. ولهذا تمّوا أن يضع النبي ص حداً لأوضاعهم المتردية فقالوا: «عسى أن يجمعهم الله بك، فإن جمعهم الله بك فلا رجل أعزّ منك».

وقد أحدث كذلك خوفاً عجبياً في قلوب قادة قريش وسادة مكّة المشركين المتغترسين، إذ أنّ ذلك يعني أنّ المسلمين وجدوا قاعدة قوية في قلب الجزيرة العربية، تجمع كلّ طاقات المسلمين المبعثرة، و تعمل معاً في نشر دينهم وعقيدتهم، ممّا سيشكل خطراً جديداً يهدّدهم في الصميم، ولهذا بادرت قريش في الاتّصال بالخزرجيين للاستفسار عمّا حدث في العقبة. فحلف لهم المشركون من أهل يثرب أنّه لم يحدث ما يؤذيهم أو يهدد مصالحهم، ولم يعلموا عنه، وهم في قولهم صادقون، إذ أنّهم لم يعلموا بما حدث في العقبة. وحاولوا إلقاء القبض عليهم قبل خروجهم من مكّة، إلّا أنّهم كانوا قد

(٩٩)

توجهوا قبل ذلك نحو المدينة، فظفروا بـ «سعد بن عباد» الذي تولّوا ضربه بعد ربط يديه إلى عنقه، حتى خلّصه منهم: «المطعم بن عدى». (١)

وفي المدينة المنورة، كان قد أسلم فيها كلّ قبيلة «بنو عبد الأشهل» قبل أن يروا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأصبحوا من الدعاة إلى الإسلام والمدافعين عن عقيدة التوحيد، بفضل نشاط الدعاة: مصعب بن عمير، وأسعد بن زرارة، اللذين أثرا في إسلام قادة القبيلة: أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، ثمّ إسلام الباقي. (٢)

وعندما اشتدّ إيذاء قريش للمسلمين بعد إسلام جماعة من أهل يثرب، طلب بعضهم النجاة بنفسه والهجرة إلى أيّمكان، فاستمهلهم الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» وقال: «لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها». (٣)

وبذا فقد ترك المسلمون مكّة وهاجروا إلى المدينة تدريجياً، حتّى لا تعلم بهم قريش، إلّا أنّ زعماءها فطنوا لسرهم، فمنعوا السفر والتنقل لأيّ مسلم، وإعادة كلّ من وجدوه أثناء الطريق، وحبس زوجته كلّ مسلم أراد الهجرة. ولكن لحسن الحظ، لم يثمر كلّ ذلك،

فإنَّ معظم المسلمين تمكَّنوا من الفرار والهجرة إلى يثرب، ما عدا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام على (عليه السلام) و أبو بكر، وعدد قليل من المسجونين والمرضى من المسلمين. حتى حان الوقت الذي أقرَّ فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الهجرة من مكة في شهر ربيع الأول من السنة ١٣ من البعثة النبوية المباركة. ٥. الهجرة الكبرى  
اجتمع رؤساء قريش في دار الندوة، للتشاور فيما حدث أخيراً، من تجمع

١. السيرة النبوية: ١/٤٤٩.

٢. إعلام الوری: ٥٩؛ بحار الأنوار: ١٩/١٠.

٣. طبقات ابن سعد: ١/٢٢٦.

(١٠٠)

القوى والعناصر الإسلامية وتمركزها في المدينة، فأتخذوا قراراً قاطعاً وحاسماً وخطيراً، وهو القضاء على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والتخلص منه بقتله، بواسطة اشتراك جميع القبائل في هذا العمل الإجرامى حيث قال المقترح: فتخاروا من كل قبيلة رجلاً قوياً ثم تسلحوه حساماً عضباً، وليهجموا عليه بالليل ويقطعوه إرباً إرباً، فيتفرق دمه في قبائل قريش جميعها، فلا يستطيع بنو هاشم و بنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلها في صاحبهم، فيرضون حينئذٍ بالدية منهم. فاستحسن الجميع هذا الرأي واتفقوا عليه، ثم اختاروا القتلة، على أن يؤدوا مهمتهم بالليل أثناء الظلام. (١)

إلا- أن جبرائيل (عليه السلام) نزل على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبلغه بمؤامرة المشركين فقرأ عليه قول الله تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَثْبُتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ). (٢)

ثم إنَّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرر أن ينام شخص في فراشه ليتصوّر المشركون أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) موجود في منزله لم يبرحه، فيرتكز عملهم على محاصرة البيت دون الاهتمام بمراقبة الطرقات في نواحي مكة. فنام الإمام على (عليه السلام) في فراش النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحاصر المنزل أربعون فرداً من قريش، وخرج النبي ص من الباب دون أن يشعر به أفراد قريش المكلفون بقتله، حينما قرأ (صلى الله عليه وآله وسلم) سورة «يس» إلى قوله: (فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ). وخروج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه الصورة والكيفية، فسيره البعض بأن القوم المحاصرين كانوا نياماً لحظة خروجه، إلا أن آخرين يرون أنه خرج من البيت عن طريق الإعجاز والكرامة دون أن يروه ويحسوا به.

وقبيل طلوع الفجر عند ساعة الصفر، هجم المتآمرون على فراش النبي

١. طبقات ابن سعد: ١/٢٢٧؛ السيرة النبوية: ١/٤٨٠.

٢. الأنفال: ٣٠. ليثبتوك: ليسجنوك.

(١٠١)

(صلى الله عليه وآله وسلم) ففوجئوا بوجود الإمام على (عليه السلام) يكشف عن نفسه، فغضبوا وندموا على انتظارهم الطويل حتى الفجر، ولاموا أبا جهل الذي منعهم من دخول البيت فحملوه مسؤلية فشل الخطة، ولكنهم أسرعوا في وضع خطه جديدة لترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبو بكر قد أمضيا ليلة الهجرة وليلتين آخرين في غار ثور الواقع في جنوب مكة، وذلك ليعمى على قريش فلا يتبعوا أثره، إذ أن الطريق إلى المدينة يقع في شمال مكة.

وبالنسبة إلى مصاحبة أبي بكر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهي مسألة تاريخية غامضة، فيعتقد البعض أنها كانت بالصدفة، أي أنه



تقابل معه في الطريق فاصطحبه معه إلى غار ثور، بينما يرى آخرون أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذهب في نفس الليلة إلى منزل أبي بكر فخرجا في منتصف الليل إلى الغار. (١) في حين أنفريقاً ثالثاً يذهب إلى أن أبا بكر جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأرشده الإمام علي (عليه السلام) إلى مخبأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

أما قريش فقد بادرت إلى بث العيون والجواسيس في طرقات مكة، ومراقبه مداخلها ومخارجها، وبعثت القافلة تقتص أثره ص في كلمكان وخاصة طريق مكة - المدينة، كما عيّنت مائة من الإبل جائزة لمن يقبض عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» ويرده إليهم، أو لمن يأتي عنه بخبر صحيح.

وقد تمكن المتتبعون لآثر قدم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الوصول إليه عند باب الغار، إلا أنهم استبعدوا وجودهما فيه، نظراً لنسج العنكبوت وبيض الحمام. فاستمرت محاولات البحث ثلاثة أيام بلياليها دون جدوى\_\_\_\_\_.

١. تاريخ الطبري: ٢/ ١٠٠.

(١٠٢)

وقد تردد على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خلال تواجده في الغار: علي (عليه السلام) وهند بن أبي هالة (ابن خديجة) حسب رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبد الله بن أبي بكر وعامر ابن فهيرة راعي أغنام أبي بكر، حسب رواية كثير من المؤرخين. والنقطة الهامة في هذه القضية هي مفاداة الإمام علي (عليه السلام) النبي بنفسه. وتعريض حياته لخطر الموت في سبيل الدين والإسلام وحياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو نموذج رائع من الحب الحقيقي للحق، وقد مدحه الله تعالى في كتابه العظيم قائلاً: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ). (١)

وقد دفعت هذه العملية التضحية الكبرى كبار علماء الإسلام إلى اعتبارها واحدة من أبرز وأكبر فضائل الإمام (عليه السلام) وإلى وصفه بالفداء والبذل والإيثار، واعتبار الآية المذكورة في شأنه من المسلمات قلما بلغ الحديث في التفسير والتاريخ إليها. (٢)

وقد طلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الإمام علي (عليه السلام) أن يتنازع بعيرين له ولصاحبه، فقال أبو بكر: قد كنت أعددت لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب، فدفعت إليه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثمنهما. (٣)

كما أوصى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) بأن يودى أمانته على أعين الناس، وأمره بترتيب رحلة الفواطم: فاطمة الزهراء (عليها السلام)، وفاطمة بنت أسد أم الإمام علي (عليه السلام) وفاطمة بنت الزبير، ومن يريد الهجرة معه من بني هاشم إلى يثرب، وما يحتاجون له من زاد وراحلة\_\_\_\_\_.

١. البقرة: ٢٠٧.

٢. مسند أحمد: ١/ ٨٧؛ كنز العمال: ٦/ ٤٠٧؛ الغدير: ٢/ ٤٧.

٣. الكامل: ٢/ ٧٣؛ السيرة الحلبية: ٢/ ٥٣.

(١٠٣)

وقد هتياً الإمام (عليه السلام) أولاً- ثلاث راحل ودليلاً أميناً يدعى «أريقط» للترحال إلى المدينة، فخرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع صاحبه متوجهين إلى يثرب سالكين الخط الساحلي.

ومن هذه الليلة يبدأ تاريخ المسلمين، حيث بدأوا يقيسون كل ما يقع من الحوادث بذلك العام فيحددون تاريخه وزمان حدوثه. ففي العام الأول للهجرة، حقق المسلمون انتصاراً عظيماً وباهراً، وتأسست لهم فيه حكومة مستقلة، وتخلصوا من التشردم والتبعثر، وتمركزت قواهم وعناصرهم في نقطة واحدة وبيئة حرة، لا أثر فيها للكبت والاضطهاد، مما جعلهم لكل ذلك يتخذون هذا العام مبدأ لتاريخهم.

فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه جعل التاريخ الهجري، وإن أي إعراض وتجاهل له واختيار تاريخ آخر مكانه، إعراض عن



سنة رسول الإسلام الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) ومخالفة لما رسمه للمسلمين. وأما ما اشتهر بين المؤرخين من أن الخليفة «عمر بن الخطاب» هو الذى جعل هجرة النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) مبدأ للتاريخ باقتراح وتأييد الإمام على (عليه السلام) فهو غير صحيح، لأن شيئاً من الإمعان والتبصير فى مراسلات النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» ومكاتباته المدرجة فى كتب التاريخ والسيرة والحديث، تثبت أن النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذى اعتمد تلك الحادثة الكبرى كمبدأ للتاريخ، فقد أرخ رسائله وكتبه إلى أمراء العرب وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزة، بذلك التاريخ الهجرى، فهناك كثير من الكتب أرخت قبل السنة ١٦ أو ١٧ من الهجرة، وقد يكون فى السنة الخامسة الهجرية.

كما أن أصحابه (صلى الله عليه وآله وسلم) أرخوا فى أيام حياته، الحوادث الإسلامية بهجرته، فقالوا: وقع كذا فى شهر كذا من الهجرة، فمثلاً قيل: حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فى شهر شعبان، سنة عشر شهراً أو ١٧ شهراً أو ١٨ شهراً. (١٠٤)

وفى السنة الخامسة من الهجرة، أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بإحلال السنة الهجرية مكان الشهر الهجرى. ٦. وصول النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة

تمكن «سراقة بن مالك» من اللحاق بالنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبى بكر وهما فى الطريق إلى المدينة، فدعا عليه النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) فجمع به فرسه وطرحه أرضاً، فعرف أن ذلك من دعاء النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» عليه، فاعتذر له وطلب منه السماح له بالعودة على ألا يخبر أحداً بمكانهما وموقعهما. ففعل، ورد كل من بحث عنهما فى الطريق.

أما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد وصل إلى قباء فى ١٢ من شهر ربيع الأول، يوم الاثنين، ونزل على: «كلثوم بن الهرم» شيخ بنى عمرو بن عوف، ولبت فى قباء إلى آخر الاسبوع، وبنى فيها مسجداً. (١)

وانتظر لحين قدوم الإمام على (عليه السلام) والسيدة فاطمة (عليها السلام) حيث كان قد لحق به الكفار وحاولوا محاربتة، إلا أنه (عليه السلام) تمكن من التخلص منهم، فتركه القوم خائفين من غضبه وقوته، فواصل سيره باتجاه المدينة، حيث وصلها فى منتصف شهر ربيع الأول.

ولما انحدر النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) من ثنية الوداع - وهى منطقة قريبة من المدينة - وخط قدمه على تراب يثرب، استقبله الناس رجالاً - ونساء، كباراً و صغاراً، استقبلاً عظيماً، ورحبوا به أعظم ترحيب، مرددين أناشيد فرحين به: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع \_\_\_\_\_.

١. تاريخ الخميس: ١/٣٣٨.

(١٠٥)

وأصّر القوم على النزول عند أحدهم، إلا أن النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يقول عن ناقته: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة». فانتهدت الناقة إلى أرض واسعة كانت لثيمين من الخزرج يقال لهما: «سهل و سهيل» كانا فى حجر أسعد بن زرارة، فبركت على باب «أبى أيوب خالد بن يزيد الأنصارى»، فاغتنمت أم أيوب الفرصة وبادرت إلى رحل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فحلتته وأدخلته منزلها، وعندما تنازع القوم فى أخذه، قال الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»: «أين الرحل؟» فقالوا: أدخلته أم أيوب فى بيتها، فقال «صلى الله عليه وآله وسلم»: «المرء مع رحله».

وقد اتفق كتاب السيرة على أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دخل المدينة يوم الجمعة، حيث صلى الجمعة فى بنى سالم بن عوف، وهى أول جمعة جمعها (صلى الله عليه وآله وسلم) فى الإسلام، وخطب أول خطبة فى المدينة كان لها الأثر العميق فى قلوب أهلها ونفوسهم. (١٠٦) (١٠٧)

## الفصل الخامس الأحداث السنة الأولى والثانية

### إشاره

الفصل الخامس الأحداث السنة الأولى و الثانية في المدينة المنورة

### حوادث السنة الأولى من الهجرة

الفصل الخامس الأحداث في المدينة المنورة

- السنة الأولى من الهجرة

- بناء مسجد في المدينة المنورة

- المواخاة بين المهاجرين والأنصار

- معاهدة التعايش السلمى مع اليهود

- السنة الثانية من الهجرة

- تغيير اتجاه القبلة

- معركة بدر وتناجها الإيجابية

- العمليات العسكرية الصغرى

- زواج السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام). ( ١١٠ ) ( ١١١ ) حوادث السنة الأولى من الهجرة كان أول عمل رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقوم به قبل أى عمل آخر، هو أن يبنى محلاً للمسلمين ليتسنى لهم أن يعبدوا الله فيه ويذكروه فى أوقات الصلوات، مضافاً إلى أنه كان هناك حاجة أكيدة لمركز يجتمع فيه أعضاء حزب الإسلام - حزب الله - كل أسبوع فى يوم معين، ويتشاوروا فى مصالحهم وشؤونهم، بجانب أدائهم صلاة العيد فيه مرتين كل عام. ولم يكن المسجد فى عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) للعبادة فحسب، بل لتلقى فيه العلوم والمعارف الإسلامية والتربوية، إضافة إلى الأمور القضائية والفصل بين الخصومات وإصدار الحكم على المجرمين، فكان بمنزلة المحكمة فى هذا اليوم. كما استخدمه الشعراء فى إلقاء قصائدهم أمام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذى اتخذ قاعة لإلقاء خطبه الحماسية والجهادية فى تعبئة المسلمين ضد الكفار والمشركين. مما يبين أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد بذلك أن يعلن للجميع أن دينه ليس مجرد أمر معنوى لا يتصل بالأمور الدنيوية، بل هو دين شامل كامل يهتم بالتقوى وشؤون المعيشة والأوضاع الاجتماعية.

( ١١٢ )

وقد استمرت أغلبية المساجد على هذا المنوال حتى مطلع القرن ٤ هـ حيث كانت تتحول فى غير أوقات الصلاة إلى مراكز لتدريس العلوم المتنوعة، بل إنها حتى بعدما فصلت المراكز العلمية عن المساجد فيما بعد، بقيت المدارس تبنى بجانب المساجد، الأمر الذى جسّد الصلة الوثيقة والارتباط الأقوى بين العلم والدين.

وفى بناء المسجد اشترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه فى عملية البناء، ينقل الحجارة واللبن، ويردّد وهو يعمل: «لا عيش إلاّ عيش الآخرة، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة». وكان «عمار بن ياسر» ممن عمل بشدة وقوة مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فى البناء، إذ كان يحمل اللبن والأحجار بدل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبدل الآخرين، حتى شكّا إليه «صلى الله عليه وآله وسلم» فعلهم وقال: يا رسول الله قتلونى يحملون على ما لا يحملون. فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «ويح ابن سمية ليسوا

بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية» (١).

وبنى كذلك بجانب المسجد صُفَّة يسكن فيها الفقراء والمهاجرون المحرومون، وكلف «عبادة بن الصامت» بأن يعلمهم الكتابة وقرأة القرآن.

ثم بعد ذلك بنيت منازل ومنازل أصحابه حول المسجد.

وفي هذه البيئة الجديدة، واجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاث مشكلات أو قضايا أساسية:

١. قريش و الوثنيين في شبه الجزيرة العربية.

٢. اليهود في المدينة أو خارجها، مع توافر الأموال لديهم.

٣. الاختلاف بين المهاجرين والأنصار، و بين الأنصار أنفسهم - الأوس

١. السيرة الحلبية: ٢ | ٧١؛ تاريخ الخميس: ١ | ٣٤٥.

(١١٣)

والخزرج - أي الجبهة الداخلية.

وقد تمكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من التغلب على تلك المشكلات والقضايا بأساليب حكيمة وسياسية محكمة. فبالنسبة إلى التناقضات بين فئات المجتمع، فقد عالجه بالموآخاة بين المهاجرين والأنصار، حينما جمعهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال لهم: «تآخوا في الله أخوين أخوين». فأصبح هذا التآخي والوحدة بين الأطراف المتنازعة، طريقاً لحل المشكلات الأخرى. كما اختار علياً (عليه السلام) أحاً لنفسه وقال: «يا علي أنت أخي في الدنيا والآخرة».

أما مشكلة يهود يثرب، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أدرك أنه ما لم تصلح الأوضاع الداخلية في المدينة، ومالم يضم اليهود إلى جانبه، أي أن يقيم وحدة سياسية متوسعة، فإن شجرة الإسلام لن تتمكن من النمو، بالإضافة إلى أنه لن يتمكن من معالجة القضية الأخرى وهي خطر قريش. ومن هنا رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتقدم بالتفاهم معهم بعقد معاهدة تعايش سلمى ودفاع مشترك بين الأنصار والمهاجرين، يوقع عليها اليهود أيضاً.

وتعتبر هذه المعاهدة من أهم الأعمال، ومسنداً تاريخياً قوى للدلالة، تكشف عن مدى التزام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بمبادئ الحرية والعدالة، كما تكشف عن حنكته السياسية حيث استفاد من هذه الوسيلة من أجل إيجاد جبهة متحدة قوية في وجه الحملات الخارجية، فهي في الواقع واحدة من أكبر الانتصارات السياسية التي أحرزتها الحكومة الإسلامية الناشئة في ذلك الوقت، بل هي أعظم معاهدة تاريخية على الإطلاق. وهي نموذج كامل لرعاية الإسلام وحرصه على مبدأ حرية الفكر والاعتقاد، وضرورة التعاون، وتوضيح

(١١٤)

حدود صلاحيات واختيارات القائد ومسؤولية الموقعين عليها. وقد احترم فيها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دين اليهود وثوراتهم في إطار شرائط معينة.

وبالإضافة إلى التعاقد مع يهود يثرب، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عقد مع طوائف اليهود الأخرى: بنى قريظة، بنى النضير، وبنى قينقاع، معاهدات مماثلة فيما بعد، كان من أهم بنودها:

- عدم الاعتداء على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه، فإن فعلوا فإن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حل من سفك دمائهم وسبى ذراريهم ونسائهم والاستيلاء على أموالهم.

إلا أن اليهود تميزوا بمجادلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وطرح الأسئلة العويصة عليه بغية إحراجه وزعزعة إيمان المسلمين به «صلى الله عليه وآله وسلم»، و لكن جميع تلك المخططات باءت بالفشل، و قلّ تأثيرها في صفوف المسلمين، بل إنها ساعدت في

الواقع على إقبال بعضهم على الإسلام، كما حدث لعبد الله بن سلام الذي كان من علماء اليهود و أحبارهم، أعلن إسلامه بعد سلسلة مناظرات و مجادلات مطوّلة، كما التحق بعده عالم آخر منهم هو «المخيري».

ولم يكتف اليهود بذلك أنهم استخدموا أسلوب المَوَامرات والدسائس مثل: «فَرَّق تسد» لِإضعاف المسلمين، وذلك باستغلال رواسب الماضي بين الأوس والخزرج، وإثارة العداء بينهم، وإقامة العلاقات السريّة مع مشركى الأوس والخزرج والمنافقين، واشتراكهم صراحةً فى اعتداءات قريش على المسلمين فى الحروب التى دارت بين الطرفين، فقدموا كَلدعم و مساندةً للوثنيين والعمل لصالحهم، كما اشتهروا بنقض العهود والمواثيق، الأمر الذى أدى إلى وقوع مصادمات وحروب مستمرة بينهم و بين المسلمين، نتج عنه إنهاء الوجود (١١٥)

اليهودى فى المدينة.

أما المشكلة الأخيرة والمرتبطة بإعتداءات قريش، فإنّ الفصل القادم يتناولها بالتفصيل.

وقد أقام النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) فى المدينة، منذ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة إلى شهر صفر من السنة الثانية. وأسلم فى هذه الفترة من تبقى من الأوس والخزرج، و لم يبق دار من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلها، ماعدا بعض الفروع و العوائل ممن بقوا على شركهم، إلاّ أنهم أسلموا بعد معركة بدر. (١)

١. السيرة النبوية: ١ | ٥٠.

(١١٦)

### أحداث السنة الثانية من الهجرة

أحداث السنة الثانية من الهجرة تميّزت هذه الفترة بالاستعراضات العسكرية، و المناورات الحربية، واستعراض القوّة، التى أمر بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ الشهر الثامن من الهجرة حتى رمضان من السنة الثانية، وهى أوّل مناورات عسكرية فى تاريخ المسلمين.

كما تميزت الفترة بحدثين عظيمين كان لهما الأثر الكبير فى حياة المسلمين وهما: واقعة بدر الكبرى، وتغيير جهة القبلة.

وقد راج فى كتابات المؤرّخين وكتاب السيرة، مصطلح الغزوة، والسريّة. فالغزوة هى تلك العمليات العسكرية التى كان يقودها النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» بنفسه. أما السريّة فهى مجموعات عسكرية صغيرة يقودها أحد قواده، دون أن يشترك فيها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد أعد أوّل لواء عسكري بقيادة «حمزة بن عبد المطلب» حيث سيّره النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) مع ثلاثين فرداً إلى سواحل البحر الأحمر حيث تمر فى طرقاته قوافل قريش التجارية. ولم يحدث أى قتال بينهم.

وبعث النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) بسريّة أخرى بقيادة «عبدة بن

(١١٧)

الحارث بن عبد المطلب» فى ستين فرداً بهدف التعرض لقافلة قريش التجارية. إلاّ أن قتالاً لم يجر بين الأطراف.

كما بعث سريّة قادها «سعد بن أبى وقاص» لرصد تحركات قريش. أما فى شهر صفر من السنة ٢ هـ فقد أناب على المدينة «سعد بن عبادة» وقاد بنفسه مجموعة من المهاجرين والأنصار لملاحقة ركب قريش التجارى واعتراضه، حتى بلغ «الأبواء»، ولكنّه رجع دون أن يلقى أحداً منهم. (١)

وخرج أيضاً فى شهر ربيع الأول من السنة نفسها مع ٢٠٠ فرد حتى وصل إلى «بواط» قرب ينبع، - على بعد ٩٠ كم من المدينة - ولكنّه

لم يظفر بقافلة قريش بقيادة «أمية بن خلف».

كما أنه خرج في شهر جمادى الأولى لاعتراض أكبر قافلة تجارية لقريش خارجة من مكة نحو الشام، بقيادة «أبي سفيان» إلا أنه لم يلتق بهم في «ذات العشيرة».

أما «عبد الله بن جحش» فقد بعثه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في شهر رجب على رأس أفراد، لملاحقة قافلة قريش التجارية، فنزل نخلة - بين مكة والطائف - و تقابل مع قافلة قرشية بقيادة - «عمرو بن الحضرمي» فباغتهم المسلمون و قاتلوهم واستولوا على أموالهم بالإضافة إلى القبض على أسيرين.

إلا أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) انزعج لحدوث القتال في شهر رجب الحرام، وخاصة عندما استغلت أطراف عدّة كاليهود وقريش هذه القضية للتشهير بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنه استخدم الشهر الحرام فسفك فيه الدماء وأخذ الأموال.

١ . تاريخ الخميس: ١ | ٣٦٣.

( ١١٨ )

وكذلك المسلمون فقد عابوا على عبد الله بن جحش فعلته هذه. إلا أن آية قرآنية نزلت فأبعدت تلك المخاوف والحيرة التي أصبح فيها المسلمون.

وقد غنم المسلمون منها، فكانت أول غنيمه حصل عليها المسلمون، وأما الأسيران فلم يقبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إطلاق سراحهما إلا بعد أن تطلق قريش سراح أسيرين مسلمين، فتم تبادل الأسرى بين الطرفين. (١)

وبذا فإن الهدف من تلك العمليات العسكرية الصغرى، وإرسال القوات الصغيرة، كان هو تحصيل وجمع المعلومات عن العدو ورصد تحركاته وخطته، وليس كما ادعى المستشرقون، إنها لمصادرة أموال قريش والسيطرة عليها لتقوية نفسه. إذ أن السرايا لم يتعد عدد أفرادها عن الستين أو الثمانين رجلاً، بينما كان يحرس قوافل قريش أعداد أكبر من ذلك، كما أن الهدف منها لم يكن لمجرد القتال وسفك الدماء أو الانتقام، لأنّ الأعداد لم تكن كافية لإجراء قتال أو حرب مع العدو. ويؤكد ذلك انزعاج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من حدوث القتال الذي جرى بين «ابن جحش» و بين أفراد من قريش، لأنه: «ما أمرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقتال في الشهر الحرام ولا غير الشهر الحرام، وإنما أمرهم أن يتحسسوا أخبار قريش». (٢)

كما أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يستخدم في تلك الغزوات الصغرى أحداً من الأنصار، وذلك أنهم بايعوه في «العقبه» على الدفاع عن المسلمين، فالمعاهدة بينهم كانت دفاعية، وقد تعهدوا بموجها بالدفاع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قصده عدو، وبالرغم من ذلك، فإنه إذا خرج بنفسه قائداً للعمليات، فإنه كان يأخذ معه جماعة من الأنصار، تقوية لروابط الإخوة والوحدة بين المهاجرين والأنصار.

١ . المغازي: ١ | ١٣؛ السيرة النبوية: ١ | ٦٠٣.

٢ . المغازي: ١ | ١٦.

( ١١٩ )

ويؤكد ذلك إنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يشركهم في عمليات قتالية هجومية ابتداءً، إلا ما حدث بعد ذلك في معركة بدر. وهكذا فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) استهدف من تلك السرايا والعمليات العسكرية التفتيشية، وعقد الاتفاقات والمعاهدات العسكرية مع القبائل المتواجدة على خطوط التجارة المكية، هو إعلام قريش بقوة المسلمين عسكرياً، وإنّ جميع طرق التجارة المكية أصبحت في متناول يده، بحيث غدا في إمكانه أن يشل إقتصاد مكة و يهدد خطوطهم، خاصة أن التجارة كانت عمود الإقتصاد المكي وأمرأ حيويًا لهم، ولذا كان على قريش في هذه الحالة أن تعيد النظر في مواقفها العدائية، وحساباتها في ضوء الأحوال الجديدة، فترك

للمسلمين حرية الدعوة والعقيدة، وتفتح لهم الطريق لزيارة بيت الله الحرام، ونشر التوحيد في أنحاء الجزيرة العربية وخاصة الحجاز. ١. تغيير اتجاه القبلة

أما الحدث الآخر الهام في هذه الفترة فكان تحويل القبلة إلى الكعبة، فقد تم في الشهر ١٧ من الهجرة، أى في شهر رجب، حين أصبحت قبلة للمسلمين بمعنى أنهم غدوا يتوجهون إلى المسجد الحرام أثناء الصلوات بدل بيت المقدس، فقد صلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ١٣ عاماً في مكة نحو بيت المقدس. ولمّا زاد إيذاء اليهود للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد تنامي قوة المسلمين وانتشار الإسلام، وقولهم: «أنت تابع لنا تصلى إلى قبلتنا» (١) فاغتم

١. أو قولهم: مادري محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم. مجمع البيان: ١/٢٥٥.

(١٢٠)

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لذلك وشق عليه، فانتظر فرجاً وحياناً من جانب الله، حتى نزلت الآية: (فَدَنَزَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا). (١) فكان تغيير القبلة واحداً من مظاهر الابتعاد عن اليهود واجتنبهم، كما أنّ أخذ القبلة، كان من شأنه كسب رضا العرب واستمالة قلوبهم، وترغيبهم في الإسلام، تمهيداً لاعتماد دين التوحيد، ونيل الأصنام، وخاصة أن الكعبة كانت موضع احترام العرب وتقديسهم منذ أن رفع النبي إبراهيم (عليه السلام) قواعدها.

وقد تمّ التحويل خلال الركعة الثانية من صلاة الظهر، حين أخذ جبرائيل (عليه السلام) يد النبيص وأداره نحو المسجد الحرام، فتبعه الرجال والنساء في المسجد، فتوجه الرجال مكان النساء واتخذت النساء مكان الرجال. (٢) ٢. معركة بدر

كان من أساليب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحروب، جمع المعلومات حول استعدادات العدو، ومدى تهيئته و مكان تواجدته و تمرّزه، ومعنويات أفرادها، وهى مسائل تحظى بالأهمية في المجال العسكري حتى اليوم. وحيث إنّ المعلومات التي تجمعت لدى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تؤكد أنّ قافلة كبرى لقريش شارك فيها كل أهل مكة بأموالهم، ويحمل بضائعها ألف بعير، وتقيم بخمسين ألف دينار، ويقودها أبو سفيان بن حرب، في أربعين رجلاً، وحيث إنّ أموال المسلمين كانت قد صودرت في مكة على أيدي قريش، فإنّ الوقت كان مناسباً للمسلمين لاستعادة أموالهم، بالاحتفاظ بأموال قريش إلى أن يعيدوا إليهم أموالهم المصادرة، وإلاّ فإنهم يتصرفون في هذا المال كغنائم

١. البقرة: ١٤٤.

٢. بحار الأنوار: ١٩/٢٠١.

(١٢١)

حرب يقسمونها فيما بينهم.

ولذا فإنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج في ٣١٣ رجلاً، كان منهم ٨٢ من المهاجرين، و ١٧٠ من الخزرج، و ٦١ من الأوس، في يوم الاثنين الثامن من شهر رمضان، قاصداً تحقيق ذلك الهدف، وعقد رايتين سلم إحداهما إلى مصعب بن عمير والأخرى وهى العقاب إلى الإمام على (عليه السلام)، فوصل إلى «وادي ذفران». (١)

ونظراً لتخوف أبي سفيان من التعرض لهجوم من جانب المسلمين، فقد أرسل أحد رجاله إلى مكة يستغيث بهم لنصرته، ممّا دعا أهلها إلى الاستعداد والتجهز للخروج بقيادة رؤسائهم وعظمائهم. وكان ذلك مفاجأة للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الذي لم يعدّ رجاله للحرب والمواجهة العسكرية، بل لهجوم يحصل منه على الأموال المصادرة. فعقد مجلساً للشورى استطلع فيه آراء رجاله في الانسحاب من الموقع إلى المدينة، أو مجابهة العدو القائم عسكرياً؟ فاتفق الجميع على المواجهة بالسير لملاقاة العدو رغم عددهم القليل،



فتحركوا نحو بدر. (٢)

وبالأسلوب العسكري السليم عرف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مكان العدو، وعددهم وزعماءهم كما عرف موعد وصولهم إلى ماء بدر. فقال لأصحابه: «هذه مكة قد ألت إليكم بأفلاذ كبدها». (٣)  
إلا- أن أبا سفيان علم بملاحقة المسلمين له ومطاردتهم لقافلته، فابتعد عن بدر عند رجوعه من الشام واتخذ جهة ساحل البحر الأحمر، وبعث أحدهم يخبر قريشاً بإمكانية الإفلات من يد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه، ولكن

١ . كانت تمر به قافلة قريش التجارية، ويقع على مرحلتين من بدر.

٢ . المغازي للواقدي: ١/٤٨؛ السيرة النبوية: ١/٦١٥.

٣ . السيرة النبوية: ١/٦١٧.

(١٢٢)

«أبا جهل» أصر على مواصلة التقدم نحو يثرب وعدم الرجوع إلى مكة قائلاً: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ، فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُرُ - الأباغر - ونطعم الطعام ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان والمغنيات، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. وكان لكلماته أثرها في تشجيعهم على السير نحو المدينة، فزلوا في بدر.

أما في الجانب الإسلامي فقد تقدم الحباب بن المنذر باقتراح، على السير إلى أدنى ماء من القوم، ودفن العين والآبار، وبناء حوض يُملأ بالماء يستخدمونه للشرب، كما اقترح سعد بن معاذ بناء برج عسكري يقود منه النبال لعمليات العسكرية، ويشرف على سيرها، فيكون مأمناً له من كيد الأعداء.

أما قريش فقد تحركت باتجاه بدر صباح يوم ١٧ من شهر رمضان، فاستطلعوا أخبار المسلمين، فعرفوا عددهم وعدتهم. إلا أنه حدث انقسام في الرأي بينهم، حول الموقع، حين دعا بعض زعمائهم إلى ترك الموقع والعودة إلى مكة دون إجراء أي قتال أو إبداء أي عمل عدائي ضد المسلمين، كان من بينهم: عتبة بن ربيعة، الذي طلب منهم العودة إلى مكة دون حرب، إلا أن أبا جهل تمكن من تغيير الموقف لصالح الحرب فحتمسهم للقتال.

وكان التقليد المتبع عند العرب في الحروب، أن يبدأ القتال بالمبارزات الفردية، ثم تتبع بعدها الحملات الجماعية، فدعا ثلاثة من صناديد قريش، المسلمين إلى المبارزة وهم: عتبة، وشيبة، وهما ابنا ربيعة بن عبد شمس، والوليد بن عتبة بن ربيعة، فخرج إليهم من المسلمين ثلاثة من الأنصار هم: عوف و معاذ ابنا الحارث، و عبد الله بن رواحة. إلا أن قريشاً رفضت منازلتهم وطلبت أفراداً من مكة، فأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عبيدة بن الحارث وحمزة و علياً

(١٢٣)

بالمبارزة. فبارز حمزة شيبة، وبارز عبيدة عتبة، وعلي بارز الوليد، ثم أتجه حمزة وعلي بعد الفراغ من قتل خصميهما إلى عتبة وقتلاه. وبعد هذه المبارزة بدأ الهجوم العام وتراحفوا، فعدّل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الصفوف ورجع إلى العريش - برج القيادة - فكان ينزل بين الحين والآخر ويحرضهم على القتال والمقاومة، فقد كان لكلماته أثرها العميق في النفس، والشوق إلى الجنة بالشهادة. أما خسائر الحرب، في الأرواح والأموال، فإن المسلمين فقدوا ١٤ رجلاً، بينما قُتل من المشركين سبعون، وأسر منهم سبعون، كان من أبرزهم: النضر بن الحارث، عقبه بن أبي معيط، وسهيل بن عمرو، و العباس بن عبد المطلب، وأبو العاص بن الربيع - صهر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وقد دفن شهداء بدر في جانب من أرض المعركة، ولا تزال قبورهم موجودة، أما قتلى المشركين فأمر الرسول لبقائهم في البئر، ووقفص عليها فخطب القتلى قائلاً: «يا أهل القلب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتوني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس



وقاتلموني ونصرني الناس، ثمقال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً». (١)

ثم صلى العصر بالناس وغادر أرض المعركة - أرض بدر - قبل غروب الشمس، وقسم الغنائم بينهم أثناء الطريق على قدم المساواة ومنح ذوى الشهداء أسهماً منها، كما وزع خمسها على المشاركين في المعركة، فربما لم تكن آية

١ . السيرة النبوية: ١/٦٣٩؛ السيرة الحلبية: ٢/١٨٠. إن مسألة محادثة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» مع رُوس الشرك في البئر من مسلمات التاريخ والحديث، وقد أشار إليه كثير من المؤرخين والمحدثين، أبرزهم: صحيح البخارى ج ٥ فى معركة بدر؛ صحيح مسلم: ٨، كتاب الجنة؛ سنن النسائي: ٤، باب أرواح المؤمنين؛ مسند الإمام أحمد: ٢/١٣١؛ المغازى: ١/١١٢؛ بحار الأنوار: ١٩/٣٤٦. (١٢٤)

الخمس قد نزلت بعد آنذاك، أو فعل ذلك لمصلحة خاصة.

كما قرر أسهماً لأشخاص لم يحضروا المعركة، لأسباب خاصة بهم منعتهم من الاشتراك فيها، أو لمهمات خاصة أنيطوا بها فى المدينة والطرق. وبعث عبد الله ابن رواح، وزيد بن حارث، إلى المدينة يبشرون أهلها بالانتصار، إلا أنهما علما هناك بوفاء ابنه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) زوجته عثمان بن عفان، فامتزجت الأفراح بالأحزان، فى الوقت الذى تخوف فيه المشركون واليهود والمنافقون من الانتصار الكبير من جانب آخر.

أما بالنسبة لاشتراك العباس بن عبدالمطلب فى المعركة، فإن ذلك كان أمراً خاصاً، لأنه كان قد أسلم وكنتم إسلامه مخافة قومه وكره خلافهم مثل أخيه أبى طالب، فكان يساعد النبي ص ويخبره بمخططات العدو ونوايا وتحركاته واستعداداته، مثلما عمل فى معركة أحد.

وفى مكة، تحولت بيوتها إلى مأتم كبير وناحت قريش على قتلاها، إلا أنأبا سفيان منعهم من النوح والبكاء على القتلى، وحثهم على الاستعداد للثأر والانتقام من محمد وأصحابه، فقال: الدهن والنساء على حرام حتى أغزو محمداً. وقد ساعدت عوامل كثيرة فى انتصار المسلمين ببدر، كان أهمها:

١. عدم معرفة المسلمين بما لدى المشركين من إمكانيات بشرية و قتالية، فواجهوا الأمر الواقع وتعاملوا من دون أن يثبطهم شىء.  
٢. تقليل عد المسلمين فى أعين المشركين، وعدد المشركين فى أعين المسلمين فى أول القتال، و تكثير عدد المسلمين فى أعين الكفار أثناء الحرب.

(١٢٥)

٣. الأمور الغيبية، مثل مساعدة المطر ونزوله فى هذه الفترة، ومساعدة الملائكة، وتثبيت قلوب المؤمنين بواسطة هولاء الملائكة، وإلقاء الرعب فى قلوب الكفار، حيث تشير الآيات القرآنية فى سورة الأنفال وآل عمران إلى كل ذلك. نتائج وآثار معركة بدر أعلن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قراراً تاريخياً بعد المعركة خاصاً بأسلوب المعاملة مع الأسرى، وذلك بأن من علم منهم عشرة من الصبيان، الكتابة والقراءة، كان ذلك فداؤه ويخلى سبيله دون أن يؤخذ منه مال. (١) وإن من دفع فدية قدرها ٤٠٠٠ درهم إلى ألف، خلى سبيله، و من كان فقيراً لا مال له، أفرج عنه دون فداء. وإن الباب مفتوح أمامهم للدخول فى الإسلام لينعموا فى كنفه مع المسلمين.

ولقد أحدث هذا القرار رد فعل كبير لدى عائلات مكة، دفعهم إلى تقديم الفداء إلى المسلمين لإطلاق سراحهم. وكان «أبو العاص بن الربيع» من ضمن الأسرى، وهو زوج زينب ابنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) التى تزوجها فى الجاهلية، وثبت على دينه بعد إيمان بنات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كلهم، فبعثت زينب فى فدائه بمال فيه قلادة كانت هدية أمها السيدة خديجة عليها السلام» لها ليلة زفافها، فلما رأى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) القلادة، تذكر زوجته الوفية وبكى بشدة، ممّا أثر فى المسلمين

فأطلقوا سراحه دون أخذ الفدية. وأخذ (صلى الله عليه وآله وسلم) على أبي العاص الميثاق بأن يخلى سبيل زينب ويبعثها إلى المدينة ففعل، مع إعلان الإسلام فيما بعد. ويعتبر تعليم الأولاد من قبل الأسارى المتعلمين، أول عملية تعليمية لمكافحة الأمية، وهي أعظم خطوة حضارية وثقافية.

١. السيرة الحلبية: ٢/١٩٣.

(١٢٤)

كما أنه كان لانتصار المسلمين أثر كبير على المراكز السياسية المتناثرة في شبه الجزيرة العربية، فكما كان له أثره القوي على قريش وأهلها، فإنه هدد مراكز أخرى في المدينة وخارجها، كاليهود الذين أبدوا تخوفهم من تطور قوة المسلمين، وخاصة يهود بنى قينقاع، الذين بدأوا بتدبير المؤامرات، وممارسة الأعمال العدوانية ضد المسلمين، وإعلان الحرب الباردة بنشر الأكاذيب وبث المعلومات المزيفة، وإطلاق الشعارات القبيحة لتحقيرهم وتخريب سمعتهم وإضعاف معنوياتهم. إلا أنهم بذلك، كانوا قد أعلنوا نقضهم لمعاهدة التعايش السلمى التي عقدها معهم الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) إبان قدومه إلى المدينة. وبالرغم من ذلك فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حاول النصيحة بأن يتعايشوا معهم دون إظهار أى عمل تخريبي أو سبى، وذلك لأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن يريد أن يرفع السلاح ويحاربهم حتى يحافظ على الأمن والاستقرار فى يثرب، إذ لم يكن من المصلحة تفجير الموقف فى هذه الفترة الحرجة، إلا أنهم أصروا على موقفهم العدائى، دون أن يقتنعوا بالتغيير أو التخلّى عن مؤامراتهم، ممّا اضطر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى استخدام السلاح والقوة فى الفرصة المناسبة، وقد حدثت تلك المناسبة، عندما اعتدى يهودى على امرأة عربية فى السوق، بإظهار عورتها والضحك عليها، فقتله رجل مسلم، فاجتمع عليه عددٌ من اليهود فقتلوه، ممّا اعتبر الشرارة الأولى فى إعلان الحرب عليهم. فسارعوا إلى حصونهم وقلاعهم خوفاً من هجوم المسلمين، فحاصرهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خمسة عشر ليلة، قذف الله فى قلوبهم الرعب ففقدوا القدرة على المقاومة، ونزلوا عند حكم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وهو الجلاء عن المدينة، على أن يتركوا أسلحتهم وأموالهم ودروعهم، فخرجوا من المدينة إلى منطقة «أذرعان» فى أطراف الشام. (١)

١. المغازى: ١/١٧٧؛ طبقات ابن سعد: ٢/٢٨.

(١٢٧)

واضطرت قريش فى هذه السنة إلى أن تغيّر طريقها التجارى إلى الشام، خوفاً من تعرض المسلمين لهم، فاتفقت على أن تتخذ طريق العراق، إلا أن المسلمين علموا بذلك، فأرسل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) زيد بن حارثة فى مائة نفر، تمكّنوا من الاستيلاء على القافلة، وتقسيم الأموال على المسلمين، بعد فرار القوم.

ولأهمية معركة بدر التى هى من المعارك الكبرى للإسلام، اكتسب المشاركون فيها منزلة خاصة بين المسلمين، فقد دعوا بالبدرين. ٣. العمليات العسكرية الصغيرة

وقد جرت فى هذه السنة أيضاً عدّة غزوات، كان أهمها:

غزوة قرقرة الكدّر: قرقرة الكدر ناحية بين المعدن و المدينة يسكنها قبيلة بنى سلم حيث بلغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّ القبيلة المذكورة تنهياً للهجوم على يثرب فخرج ص بنفسه لتأديبهم، إلا أنهم تفرقوا.

غزوة السويق: وذلك عندما قتل أبو سفيان رجلاً من الأنصار وأجيراً له، وحرقت بيتاً وزرعاً، على أساس أنّ له نذراً للثأر من المسلمين بعد معركة بدر، بأن لا يقارب زوجته مالم يثار لقتلى بدر.. فهاجمه المسلمون، إلا أنه فرّ وترك وراءه أكياس السويق. (١)

غزوة ذى أمر: وهو واد بطريق المدينة، وقد جرت عندما أعدت قبيلة غطفان هجوماً على المدينة، فخرج الرسول للمحاربة، ولكنهم

فَرَّوا وهربوا. وأراد أحدهم أن يتخلَّص من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مستريح تحت

١ . المغازي: ١/١٨٢؛ طبقات ابن سعد: ٢/٣٠.

(١٢٨)

شجرة في وادي ذي أمر، إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تمكَّن من السيطرة عليه بفعل معجزة إلهية، فأسلم الرجل. ٤. زواج السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)

تقدَّم أشرف العرب للزواج من السيدة فاطمة سيِّدة النساء (عليها السلام) إذ تصوَّروا أن كونهم ذوى ثروة ومكانة اجتماعية مرموقة توهلهم لذلك ولا يُرد لهم طلب، ولكنهم أخطأوا في تصوُّرهم، فلم يعلموا أن زوج فاطمة (عليها السلام) لا يكون إلا كفوها في التقوى والفضل والإيمان والإخلاص، وليس المال والثروة والجاه. ولما كان الرسول ص يرد الخطاب بقوله: «أمرها بيد الله» فقد أدركوا أن زواجها ليس سهلاً وبسيطاً. إلا أن الإمام على (عليه السلام) حينما تقدَّم إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يخطبها وافق على طلبه وقال: «يا عليّ إنَّه قد ذكرها قبلك رجال فدكرت ذلك لها، فرأيت الكراهة في وجهها، ولكن على رسلك حتى أخرج إليك». فدخل على السيدة الزهراء (عليها السلام) قائلاً: «إنَّ على بن أبي طالب من قد عرفت قرابته، وفضله وإسلامه، وإنِّي قد سألت ربِّي أن يزوّجك خير خلقه وأحبهم إليه، وقد ذكر من أمرك شيئاً، فما ترين؟».

فسكتت السيدة فاطمة (عليها السلام) ولم ير الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» في وجهها كراهة، فقال: «اللَّه أكبر، سكوتها إقرارها». (١)

ولما لم يكن الإمام على (عليه السلام) يملك مالاً أمره النبي ص ببيع درعه لصرفه على نفقات الزواج، وكان مهرها ٥٠٠ درهم، وسكن أول الأمر في منزل أحد الصحابة بصورة مؤقتة، وعمل فرحاً وزفافاً جميلاً، وأطعم فيه كلاً المسلمين.

١ . بحار الأنوار: ٤٣/٩٣.

(١٢٩)

ونقل ابن بابويه، أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة (عليها السلام) وأن يفرحن ويرجنن ويكبرن ويحمدن ولا يقولن ما لا يرضى الله. ثم دعا لهما النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «اللَّهم إجمع شملهما، وألف بين قلوبهما، واجعلهما وذريتهما من ورثة جنَّة النعيم، وارزقهما ذريةً طاهرةً طيبةً مباركةً، واجعل في ذريتهما البركة، واجعلهم أئمةً يهدون بأمرك إلى طاعتك، ويأمرون بما يرضيك. اللَّهم إنَّهما أحبُّ خلقك إليّ فأحبَّهما، واجعل عليهما منك حافظاً، وإنِّي أعيدهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم». (١)

فكانت أفضل زيجة في الإسلام وأكثرها خير وبركة، إذ أنجبا أفضل الأولاد والبنات وأطهرهم: الحسن والحسين السبطان، وزينب (عليهم السلام) التي اشتهرت في نصره أخيها بكرباء.

أمّا ما دسّه أصحاب الأقلام المأجورة و ذوو النفوس الضعيفة والقلوب الحاقدة من أباطيل و ترهات حول وجود خلاف و تنازع بين الزوجين الطاهرين، فتكذّبه الأحاديث الكثيرة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حول مكانتهما و علو شأنهما، نقتطف منها ما يلي:

- «أحبَّ الناس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من النساء فاطمة ومن الرجال عليّ».

- «خير رجالكم على بن أبي طالب، وخير نساءكم فاطمة بنت محمّد». (٢)

١ . بحار الأنوار: ٤٣/٩٦-١١٤.

٢ . للمزيد من الإطلاع، راجع سيد المرسلين: ٢/١١٠-١٢٠.

## الفصل السادس أحداث السنة الثالثة والرابعة من

## إشاره

الفصل السادس أحداث السنة الثالثة والرابعة من الهجرة

## أحداث السنة الثالثة من الهجرة

أحداث السنة الثالثة من الهجرة

الفصل السادس ١. أحداث السنة الثالثة من الهجرة - الدفاع عن الحرية والكرامة

- معركة أحد

- غزوة حمراء الأسد ٢. أحداث السنة الرابعة من الهجرة - النتائج السلبية لمعركة أحد

- غزوة بني النضير

- غزوة ذات الرقاع

- تحريم الخمر (١٣٢) (١٣٣) أحداث السنة الثالثة من الهجرة ١. معركة أحد

وهي سنة الدفاع عن الحرية والكرامة، وقد وقعت فيها معركة أحد التي تعد من أعظم المعارك في الإسلام.

فقد قرر كفار قريش إعلان الحرب على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على أن تتكفل قريش نفقاتها، فأعدت ٤ آلاف مقاتل،

إضافة إلى النساء اللاتي هدفوا من اشتراكهن: تحريض الرجال على القتال، والصمود وعدم الفرار، وإشعال الحماس في النفوس، وإن

فرار الرجال يعني أسرهم، فتصبح الغيرة والحمية سبباً للمقاومة والصمود. كما اشترك في الجيش عدد من العبيد والرقيق طمعاً في

العتق الذي وعدوا به متى ما نصرُوا أسيادهم، مثل وحشى الحبشى (١).

إلا أن العباس بن عبد المطلب الذي عاش بين قريش كاتماً لإيمانه، كتب تقريراً مفصلاً عن تلك الاستعدادات وأرسله مع رجل

غفارى إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

١. بحار الأنوار: ٢٠/٩٦.

(١٣٤)

الذى أخبر أصحابه بالأمر. ثم عقد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في يوم الجمعة اجتماعاً عسكرياً للتشاور مع القادة وأهل الخبرة

في وسائل مواجهة العدو، فأشار «عبد الله بن أبي بن سلول» - من منافقى المدينة - بالقتال داخل المدينة، أى لا يخرج المسلمون منها

بل يقاتلونهم حرب الشوارع. إلا أن فتیان المسلمين شجوا هذا الرأى وأقروا الخروج من المدينة لملاقاة العدو، بعد أن أريد الرأى

السابق أكابر أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من المهاجرين والأنصار. وكان حمزة وسعد بن عباد على رأس القائلين

بلقاء العدو خارج المدينة، فأيد النبیرأى الأكثرية بالخروج للحرب، إذ أن محاصرة العدو للمدينة وسيطرته على مداخلها وطرقاتها

وسكوت جنود الإسلام على ذلك، من شأنه أن يقتل الروح القتالية والفروسية في أبناء الإسلام المجاهدين.

وكان جيش الكفار قد وصل أطراف المدينة، حتى استقر قرب جبل أحد، يوم الخميس، الخامس من شهر شوال، فاستعد النبي (صلى

الله عليه وآله وسلم) بأن لبس لامته والدرع وتقلد السيف واعتم، فخرج من بيته، مما أثار المسلمين وهزهم بشدة حتى تصور بعضهم

أنهم قد أجبروه (صلى الله عليه وآله وسلم) على الخروج، فطلبوا منه المعذرة وإجراء أى فعل يقصده، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم)

: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل». (١) ثم صلى الناس الجمعة، وخرج على رأس ألف مقاتل قاصداً أحد.

وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد رفض اشتراك جماعة من اليهود الذين تحالفوا مع «عبد الله بن أبي بن سلول» معهم، فانعزل عن الجيش وعاد بثلاث الناس كلهم من الأوس المتحالفين معه، إلى المدينة، بحجة أن الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» أخذ برأى الفتية والشباب. ولذا لم يشترك اليهود والمنافقون في هذه الحرب \_\_\_\_\_.

١ . السيرة النبوية: ٢/٢٣؛ المغازي: ١/٢١٤؛ طبقات ابن سعد: ٢/٣٨.

( ١٣٥ )

وفي يوم السبت ٧ من شهر شوال، اصطف الجيش الإسلامي أمام قوى الشرك المعتدية، فجعل ظهره إلى جبل أحد كمانع طبيعي يحفظ الخلف، ووضع جماعة من الرماة عند ثغرة في الجبل، عليهم «عبد الله بن جبير» وطلب منهم الالتزام بالموقع: «إلزموا مكانكم لا تبرحوا منه إن كانت لنا أو علينا فلا تفارقوا مكانكم».

إلا أن المسلمين انهزموا بعد انتصارهم في بداية المعركة نتيجة تجاهل هؤلاء الرماة لأوامر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين أخلوا هذا الموقع الاستراتيجي.

وكانت قريش قد أعدت تسعة رجال شجعان من بني الدار لحمل الراية، قتلهم الإمام علي (عليه السلام) جميعاً، كما قتل غلامهم حين برز أيضاً. (١) وبذا فإن النتيجة الأولى كانت هزيمة الكفار مخلّفين وراءهم غنائم وأموالاً كثيرة، فانتصر المسلمون على عدوهم القوى عدداً وعدة، لأسباب منها:

- أنهم قاتلوا في مرضاة الله، ونشر عقيدة التوحيد، دون أن يهدفوا إلى مصلحة مادية.

ولكنهم انهزموا بعد انتصارهم الساحق لأسباب كان أهمها:

- تغير أهدافهم، فقد اتجهت أنظارهم إلى الغنائم في أرض المعركة، ونسوا أوامر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتعاليمه بالتمسك بها مهما حدث. وخاصة أولئك الرماة الحامين ظهر المسلمين على جبل أحد، حين تركوا مواقعهم ونزلوا إلى الساحة يريدون جمع الغنائم قائلين: «ولم نقيم هنا من غير شيء وقد هزم الله العدو، فلنذهب ونغنم مع إخواننا». وهو الأمر الذي استغله «خالد بن الوليد» الذي كان آنذاك مع المشركين و كان يترصد خلّو الثغرة من الرماة، فقتل

١ . بحار الأنوار: ٢٠/٨١.

( ١٣٦ )

باقي الرماة وكانوا عشرة من خمسين، ثم هاجم المسلمين الغافلين عن الوضع السيئ والذين انشغلوا بجمع الغنائم، ففترقت جموعهم، و اجتمع جنود قريش الهاربون فقاتلوا المسلمين قتالاً ضارياً، حتى قُتل منهم سبعون رجلاً. وعندما قتل أحد أبطال المشركين من قريش، حامل لواء الإسلام: «مصعب بن عمير» ظن أنه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فصاح: قتلت محمداً. فانتشر الخبر بين المسلمين وقريش الذين سرّوا بذلك فصاحوا: ألا قد قتل محمد. فاضطر المسلمون - بعد انقراط القيادة، وإشاعة الفوضى والهرج والمرج في الجيش - إلى أن يهرب معظمهم إلى الجبل تاركين أرض المعركة، لإعداداً قليلاً منهم.

وكان خمسة من صناديد قريش قد تعاهدوا على أن يضعوا نهاية لحياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مهما كلفهم الأمر، وهم:

١. عبد الله بن شهاب، الذي جرح جبهة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢. عتبة بن أبي وقاص، الذي رمى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأحجار فكسر ربايته.

٣. ابن قميئة الليثي، الذي رمى وجنتي الرسول وجرحهما.

٤. عبد الله بن حميد، الذي حمل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقتله أبو دجانه بطل الإسلام.

٥. أبي بن خلف، الذي قتله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بيده عندما حمل عليه.

وقد دلت مواقف الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه المعركة وغيرها على شجاعته وقوته، وقد أكدها الإمام على (عليه السلام) قائلاً: «كنا إذا حمزّ البأس، اتقينا برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يكن أحد أقرب منا إلى العدو منه». (١)

١ . شرح نهج البلاغة، فصل في غريب كلامه، رقم ٩.

(١٣٧)

ومن هنا فإن سلامة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الحرب بل وفي عامة الحروب تعود في أكثر أسبابها إلى: - حسن دفاعه عن دينه وعن نفسه، وإلى شجاعته وبأسه في المعارك، إضافة إلى تضحية تلك القلة من أصحابه الأوفياء الذين بذلوا غاية جهدهم للحفاظ على حياته وسلامته واشتهر من هؤلاء:

١. الإمام على (عليه السلام) الذي بلغ ٢٦ عاماً من عمره، حيث قتل ١٢ من رجال قريش، والباقي وهم عشرة قتلهم باقي المسلمين. وهنا سمع هتاف بين السماء والأرض يقول: لا فتى إلا على ولا سيف إلا ذو الفقار.

٢. أبو دجانه، الذي جعل من نفسه ترساً يقي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من سيوف الكفار.

٣. حمزة بن عبد المطلب، الذي دأب على حماية الرسول ص من أذى المشركين دائماً في الظروف القاسية، إلا أن وحشى العبد قتله في هذه المعركة.

٤. أمّ عماره، نسيبة المازنية، وقد باشرت القتال وذبت عن الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بالسيف، ورمت بالقوس حتى جرحت. وقد أعجب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشجاعته فأشاد بموقفها يوم أحد: «لما نسيبة بنت كعب اليوم خير من فلان وفلان» فطلبت منه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يدعو لها بالجنة فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «بارك الله عليكم من أهل بيت رحمكم الله، اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة».

وقد استغل أبو سفيان وقريش انتصارهم فاعتمدوا الإعلام المزيف في ذلك، بأن آلهتهم أعظم من إله المسلمين، قاصداً من ذلك التأثير النفسي، فقد رأى أن الحملة النفسية والحرب الباردة يمكنها أن تحطم إيمان المسلمين.

أما هند زوجة أبي سفيان، فقد مثلت مع بعض النساء بجثث المسلمين، من

(١٣٨)

قطع الأنوف وجذع الأذان وسمل العيون وقطع الأصابع والأرجل والمذاكير، نكاية بالمسلمين وإطفاءً للحقد الدفين. وقد بقرت هند صدر حمزة وأخرجت كبده ولاكته بين أسنانها، دون أن تستطيع أكله فَعُرِفَتْ بِأَكْلَةِ الْأَكْبَادِ، كما عرف أبنائها فيما بعد ببنى آكلة الأكباد.

وقال الرسولص عندما شاهد عمه حمزة: «ما وقفت موقفاً قط أعيظ إلي من هذا».

وهكذا غادر كفار قريش أرض المعركة إلى مكة، أما المسلمون، فبعد أن صلى بهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الظهر والعصر، دفنوا الشهداء واحداً واحداً أو اثنين اثنين، عند جبل أحد. (١)

أمّا الشهداء فكانوا ما بين ٧٠ أو ٨١ مسلماً على روايات مختلفة، ولم يتجاوز عدد قتلى قريش ٢٢ فرداً، وأمّا النبي ص فقد عالجتة السيدة فاطمة «عليها السلام» والإمام على ص حينما رجع إلى المدينة. غزوة حمراء الأسد

إلا أن الوضع لم يستقر، بل أن الأحداث استمرت إلى يوم الجمعة حيث غزوة «حمراء الأسد». (٢) ذلك أن اليهود والمنافقين أتباع «عبد الله بن أبي» استغلوا الوضع الخطير الذي أصبح فيه المسلمون، وكانوا قد سرّوا لما أصابهم، ووجدوا البيوت حزينه يسمع منها

أنين الجرحى والبكاء على الموتى والشهداء. ولما كان



١ . السيرة النبوية: ٢|٩٨؛ بحار الأنوار: ٢٠|١٣١.

٢ . تبعد عن المدينة ثمانية أميال.

( ١٣٩ )

هناك خوف أن يودى ذلك إلى ضعف الجبهة الداخلية، إذ أن انهيار الوحدة والانسحاب في هذه الجبهة أخطر بكثير من تعرض البلاد لهجوم خارجي. ولذا فقد أمر (صلى الله عليه وآله وسلم) بملاحقة العدو في نفس هذه الليلة حتى يهرب العدو ويبلغه قوة المسلمين واتحادهم وأن ما أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم. (١) فخرج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأصحابه إلى «حمراء الأسد» مخلفاً على المدينة: ابن أم مكتوم.

وقد استطاع «معبد بن أبي معبد الخزاعي» رئيس بني خزاعة، الذي ارتبط بعلاقات ودية طيبة مع الرسول والمسلمين بالرغم من كفره وشركه، من أن يخوف أبا سفيان ويرعبه بما ذكره له عن قوة المسلمين، وأعدادهم وملاحقتهم لقريش، مما دعاه إلى الانصراف عن مهاجمة المدينة مرة أخرى.

وفي هذه السنة (٣هـ)، أيضاً بعث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً السرايا، واشتهرت منها: سرية محمد بن مسلمة، عندما انزعج كعب بن الأشرف لانتصار المسلمين في بدر، وحاول إثارة قريش عليهم، فبدأ بإيذاء نساء المسلمين، مما جعل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرر التخلص منه، فأرسل إليه محمد بن مسلمة، الذي أعد خطة محكمة للقضاء عليه، فقتلوه بمساعدة أخيه بالرضاعة «أبونائلة». كما تخلصوا من مفسد آخر هو: «أبو رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي» الذي قام بنفس دور كعب بن الأشرف في إيذاء الرسول والمسلمين.

وفي هذه السنة، ولد السبط الإمام الحسن (عليه السلام) في ١٥ من شهر رمضان \_\_\_\_\_.

١ . مجمع البيان: ٢|٢٣٥.

( ١٤٠ )

### أحداث السنة الرابعة من الهجرة

أحداث السنة الرابعة من الهجرة ١. النتائج السلبية لمعركة أحد

بالرغم من إظهار المسلمين قوتهم، ومطاردتهم للعدو ومنعهم من مهاجمة المدينة، فإن المنافقين واليهود والمشركين أعدوا المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين، وجهزوا العدة لمحاربتهم، مثل قبيلة «بنى أسد» التي أرادت الهجوم على المدينة لنهبها، فأرسل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ١٥٠ فرداً بقيادة أبي مسلمة الذي تمكن من القضاء عليهم والتخلص منهم.

ومن المعروف أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يرسل الدعاء و المبلغين من قراء القرآن الكريم، والمسلمين بالأحكام الإسلامية والتعاليم النبوية، لينقلوا تلك التعاليم والأحكام إلى الناس في المناطق البعيدة والأماكن النائية، كما كان يبعث من جانب آخر، السرايا والمجموعات العسكرية للقضاء على محاولات التمرد والمؤامرات، ليتسنى لهؤلاء المبلغين والدعاة في ضوء الأمن والحرية والأمان، الدعوة إلى الإسلام وإرساء دعائم الحكومة الإسلامية في القلوب، وتنوير الأفكار وإيقاظ العقول. إلا أنه كان يحدث أن بعض القبائل المتوحشة والمتخلفة فكراً وأخلاقياً كانت تعتدى على هؤلاء المبلغين وتقتلهم

( ١٤١ )

بصورة مفرجة مأساوية. (١) مثلما قامت به جماعة من قبيلة «عضل والقارة» الذين طلبوا القراء من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وغدروا بهم أثناء الطريق إلى مكان سكنهم. ومن قبلهم طلب أبو براء العامري في شهر صفر من هذه السنة، من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يبعث رجلاً إلى نجد يدعوهم للإسلام مع أنه لم يسلم، فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «إني أخشى عليهم



أهل نجد». ولكن أبا براء أعلن عن استعداده لإجارتهم وضمن أمنهم فقال: أنا لهم جار. فبعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أربعين رجلاً من أصحابه الخيار من حفظة القرآن و أحكام الإسلام بقيادة «المنذر بن عمرو» و معه كتاب إلى «عامر بن الطفيل» أحد زعماء نجد، الذي قرر الغدر بهم، فقتل رسول المنذر، وطلب من بنى عامر قتل المبلّغين، إلا أنّهم رفضوا على أساس أن لهم عقداً وجواراً مع أبى براء. فاستصرخ عليهم قبائل «بنى سليم» الذين أجابوه، فأحاطوا بالدعاء وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم بعد أن قاوموا بقوة و بسالة عظيمة. وتسمّى هذه الحادثة بجريمة بئر معونة، التي لم ينسها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان يذكر شهداءها فترة من الزمان (٢) كما أنّ تلك الحادثنان: الرجيع وبئر معونة، تركتا آثاراً سيئة، وخلفتا موجة من الحزن والأسى فى نفوس المسلمين.

٢. غزوة بنى النضير

لقد طلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من يهود بنى النضير المساهمة فى دفع دية اثنين قتلا خطأ، بموجب الاتفاقية المعقودة بين الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» و اليهود، والتي تقضى بالتعاون فيما بينهم فى تسديد الدية، إلا

١. السيرة النبوية: ٢/١٦٩؛ طبقات ابن سعد: ٢/٥٥.

٢. السيرة النبوية: ٢/١٨٣؛ إمتاع الأسماع: ١/١٧٠.

(١٤٢)

أنّهم أضمروا له الشر، حينما سار إليهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فى عدد قليل من أصحابه، وقصدوا قتله غدراً، وذلك بإلقاء صخرة عليه من فوق البيت الذى أستند الرسول ص إلى جداره، ولكنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) علم بمؤامراتهم سواء من تحركاتهم المشبوهة، أو بخبر جاء من السماء، فترك المكان مسرعاً بالعودة إلى المدينة، دون أن يخبر أصحابه الذين انتظروه طويلاً دون جدوى. وقد أخبرهم عند عودتهم بالسبب: «همت اليهود بالغدر بى فأخبرنى الله بذلك فقامت». (١)

ورداً على الموقف الغادر لليهود، فقد أمر الرسول للمسلمين بالإعداد لحربهم، وبعث رسالة إليهم مع «محمّد بن مسلمة» يبلغ فيها سادتهم: «قد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم به من الغدر بى. أخرجوا من بلادى، فقد أخلتكم عشراً، فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه».

وكان حكم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا مطابقاً لما جاء فى الميثاق الذى عقد بينهم عند دخوله المدينة: «ألا يعينوا على رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» ولا على أحد أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح فى السر والعلانية، والله بذلك عليهم شهيد. فإن فعلوا فرسول الله فى حلّ من سفك دمائهم وسبى ذراريهم ونسائهم وأخذ أموالهم». إلا أنّ المناقنين برئاسة «عبد الله بن أبى» اتّصلوا ببني النضير يعرضون عليهم المساعدة والتعاون، بعدم تنفيذ أوامر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالخروج من المدينة، ممّا دفعهم إلى اللجوء إلى حصونهم، والإعداد للحرب ومقاومة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى لا يسيطر المسلمون على ديارهم وبتاتينهم وممتلكاتهم، وأرسل «حبيى بن أخطب» إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّا لا نبرح من دارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع؛ فما كان من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن خرج إليهم، بعد أن استخلف على المدينة «ابن أم مكتوم» و سار لمحاصرة بنى النضير،

١. طبقات ابن سعد: ٢/٥٧؛ إمتاع الأسماع: ١/١٧٨.

(١٤٣)

فاستمر الحصار ست ليال على رواية ابن هشام، أو ١٥ يوماً حسب الروايات الأخرى. وأمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بقطع النخيل المحيطة بحصونهم، وإلقاء النار عليهم، حتى يكرهوا البقاء فى تلك الديار بعد إعدام بتاتينهم.

فدفعهم ذلك فعلياً إلى الرضوخ لمطالب الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بالجلء عن موطنهم، على أن تحمل إبلهم ما لهم من مال دون أن يأخذوا السلاح والدروع، فرضى النبي ص بذلك، فخرج جماعة منهم إلى خيبر وأخرى إلى الشام. أمّا تقسيم أموالهم فحيث إن المسلمين غنموها دون قتال - وهو الفىء - فإنه يعود أمره إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة يضعه حيث يشاء ويصرفه فيما يرى من مصالح الإسلام، وقد فعل النبي ذلك وقسم المزارع والبساتين على المهاجرين فقط دون الأنصار، وذلك لما حرموا من ممتلكاتهم وثوراتهم في مكة، وقد أيده في ذلك: سعد بن عباد و سعد بن معاذ. (١)

وقد جرت هذه الحادثة في ربيع الأول ٤هـ وأوردتها سورة الحشر في القرآن الكريم. ٣. غزوة ذات الرقاع  
جاء الخبر إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن قبائل بنى محارب و بنى ثعلبة من قبائل غطفان، أعدتا للهجوم على المدينة، فسار إليهم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وأدبهم، دون أن يحدث قتال، وأصاب بعض الغنائم.  
كما خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوة بلغت ١٥٠٠ فرد من المحاربين قاصداً بدرًا لملاقاة أبي سفيان، الذي كان قد قرر في أحد أن يلتقى بهم

١. إمتاع الأسماع: ١/١٨٢.

(١٤٤)

في هذه السنة، إلا أنهم تخوفوا من مواجهة المسلمين، وذلك من أظهر الصور لحكمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في إجراءاته العسكرية، فقد أظهر قوته وعزيمته أمامهم، مما كان له أثره القوي في نفوس الأعداء. ٤. تحريم الخمر  
وقد حرمت في أربع مراحل تدريجية ضمن آيات أربع أظهرت الاستياء من الخمر، فبدأت من مرحلة مخففة حتى انتهت إلى مرحلة الإعلان عن التحريم القطعي. فالآيات الأربع منعت من الخمر، بعد أن وصفتها بالرجس وإنها نظير الميسر وإنها عمل شيطاني، مناقض للفلاح ومسبب للعداوة والبغضاء، وبذا فقد استطاع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه الآيات أن يطهر مجتمعه من أدران هذه العادة الشريرة التي انتشرت في البيئة بقوة، وكانت آفة متفشية ومتجذرة في المجتمع، بحيث إن معالجتها كانت تحتاج إلى وقت طويل وأسلوب مدروس، وقد تحتم أن يعالج هذا الوباء الاجتماعي من خلال إعداد الناس لمرحلة التحريم النهائي والقطعي تماماً، كما يفعل الطبيب للمرضى الذين يطول بهم المرض ولذا فإنها حرمت في أربع مراحل.

و في هذه السنة ولد السبط الأصغر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الإمام الحسين (عليه السلام) في ٣ شعبان.  
كما توفيت السيدة فاطمة بنت أسد أم الإمام علي (عليه السلام).

وأمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) زيد بن حارثة أن يتعلم السريانية من اليهود. (١)

١. إمتاع السماع: ١/١٨٧؛ تاريخ الخميس: ١/٤٦٤.

## الفصل السابع أحداث السنة الخامسة والسادسة

### إشاره

الفصل السابع أحداث السنة الخامسة والسادسة من الهجرة

### أحداث السنة الخامسة من الهجرة

أحداث السنة الخامسة من الهجرة

الفصل السابع ١. أحداث السنة الخامسة من الهجرة - غزوة دومة الجندل - غزوة الأحزاب

- غزوة بنى قريظة - زواج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بزَيْنَب بنت جحش ٢. أحداث السنة السادسة من الهجرة - اليهود - قبيلة بنى لحيان

- بنو غطفان - غزوة بنى المصطلق

- قصة الإفك - الحديبية (١٤٦) (١٤٧) أحداث السنة الخامسة من الهجرة ١. غزوة دومة الجندل (١)

خرج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في ألف من المسلمين إليها لما ذكر عن أهلها من أنهم يظلمون الناس والتجار وينون الإغارة على المدينة، إلا أن الأهالي تركوها وهربوا منها عند اقتراب المسلمين منها، فأقام بها النبيّاً ثم عاد إلى المدينة في ٢٠ من شهر ربيع الثاني، دون حدوث قتال. ٢. غزوة الأحزاب

بعد أن أجلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يهود بنى النضير عن المدينة، قرر زعماءهم إجراء أعمال عدائية ضد المسلمين وذلك بالتآمر عليهم، فقدموا مكة ليحرضوا قريشاً على حرب المسلمين بقولهم: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فلقد جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقاتله، إن محمداً قد وترككم ووترنا وأجلانا عن المدينة من ديارنا وأموالنا. كما أنهم استخدموا اسلوبهم

١. منطقة بين دمشق والمدينة؛ طبقات ابن سعد: ٢/٤٤.

(١٤٨)

الملتوى حتى يوثروا في قريش ويجذبونهم لجانبهم، فأقروا لهم بأن ما عليه المشركون خير من دين محمد، بالرغم من أنهم موحدون وقريش كفار يعبدون الأصنام، فكانت هذه وصمة عار أضيفت إلى سجلهم وتاريخهم المشؤوم. وبذا فإنهم شكّلوا اتحاداً - العرب واليهود - كما شاركهم أحزاب أخرى، من بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية، وهي غطفان في نجد، وبنو سليم وبنو أسد وغيرها، ولذا سميت بمعركة الأحزاب، أو معركة الخندق، لما قام به المسلمون من حفر خندق حول المدينة للدفاع عنها.

وحينما جاء أحد رجال استخبارات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأخبار خروج تلك القوة الكبيرة، شاور (صلى الله عليه وآله وسلم) المسلمين في أساليب الحرب والدفاع، فافتتح سلمان الفارسي حفر خندق حول المدينة، حتى يمكن تحديد الموقع الذي سيحاربون فيه العدو، فشرعوا في حفره واشترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه في أعمال الحفر مشاركاً للمسلمين همومهم وآلامهم، كما كان له دوره المؤثر في تنشيط الآخرين ودفعهم للعمل السريع والاجتهاد فيه والتدقيق. ووصل طول الخندق نحو خمسة كيلومترات ونصف الكيلومتر (٥ و ٥ كم)، والعرض بمقدار خمسة أمتار، والعمق أيضاً خمسة أمتار، بحيث لا يتمكن الفارس الماهر من عبوره بالقفز عليه. وانتهى من العمل فيه في ستة أيام. وفي هذه الفترة قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن سلمان: «سلمان منّا أهل البيت» (١).

وقام العدو بحصار المدينة شهراً، وبلغ عدد جيش المشركين، عشرة آلاف فرد، كان منهم أربعة آلاف من قريش، و ٧٠٠ من بنى سليم، و ١٠٠٠ من قبيلة

١. المغازي: ٢/٤٤٦؛ الكامل في التاريخ: ٢/١٢٢.

(١٤٩)

فزاره، و ٣٥٠٠ مقاتل من بقية القبائل. أمّا عدد المسلمين فلم يتجاوز ٣ آلاف نزلوا في سفح جبل سلع في موضع مرتفع ومشرف على الخندق، يمكن منه مراقبة تحركات العدو ونشاطاته.

ولما كان الموسم موسم شتاء، والطعام قليلاً، وطالت فترة الحصار - شهر - فإن ذلك دفع المشركين إلى الاتصال بيهود بنى قريظة الذين كانوا يعيشون داخل المدينة لمساندتهم، بالرغم من أنهم احترمو الميثاق الذي عقده مع الرسول إلا أن «حبي بن أخطب» تمكن من إقناعهم بنقض ذلك العقد للوقوف مع الأحزاب في حرب المسلمين. وقد تأكد رسول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : سعد بن عباد و سعد بن معاذ رئيسا الأوس والخزرج من مؤامرة بنى قريظة ونقضهم للعهد، عندما توجهوا إلى حصونهم، فأخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك.

وكانت خطتهم التآمرية تقضى بأن يقوم بنو قريظة بالإغارة على أهل المدينة في الداخل، ويرعبوا أهلها ليخفف ذلك من الضغط على الكفار في موقع المعركة عند الخندق. إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أرسل ٥٠٠ من رجاله بقيادة «زيد بن حارثة و مسلمة بن أسلم» لحراسة المدينة من الأعداء.

وأما في ميدان المعركة، فقد تمكن خمسة من شجعان المشركين من عبور الخندق وعلى رأسهم «عمرو بن عبد ود العامري» فطلبوا المبارزة مع أبطال المسلمين. فقال الرسول ص: «أيكم يبرز إلى عمرو أضمن له الجنة؟». فقام الإمام علي (عليه السلام) قائلاً: «أنا له يا رسول الله»، والقوم ناكسوا رؤوسهم، وكان علي رؤوسهم الطير، وذلك لمكان عمرو وشجاعته المعروفة. (١)

١. المغازي: ٢ | ٤٧٠.

( ١٥٠ )

وبذا فقد برز الإمام علي (عليه السلام) وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هنا كلمته الخالدة: «بَرَزَ الْإِيمَانُ كُلَّهُ إِلَى الشَّرْكَ كُلَّهُ». وتمكن الإمام علي (عليه السلام) من التخلص من عمرو والقضاء عليه حين ضربه ضربة قوية على ساقيه فقطعهما، فكبر الإمام علي (عليه السلام) يعلن انتصاره ومقتل عمرو، مما كان له أثره في العدو، فألقى الرعب في نفوسهم، فهربوا إلى معسكرهم تاركين الخندق، وسقط أحدهم بفرسه في الخندق وهو: «نوفل بن عبد الله» فرماه الحرس بالحجارة، مما جعله يطلب مقاتلة أحد المسلمين، فنزل إليه الإمام علي (عليه السلام) فقاتله وقضى عليه في الخندق. (١)

ونظراً لضربة الإمام علي (عليه السلام) الموثرة ذات النتيجة والفعالية، فقد قال عنها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين» إذ لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا ودخله ذل بقتل عمرو بن عبد ود، على عكس ما حدث لبيوت المسلمين، فقد دخله بذلك العز والافتخار، فالضربة كانت في الواقع هزيمة للمشركين والأحزاب ونهاية لقوتهم، بالإضافة إلى الظروف السائدة، من قلة الطعام والعلف والبرد. عوامل تفرق الأحزاب

١. اختلاف قبائل غطفان و فزارة مع قريش و تخاذلهم في الهجوم، وخاصة عندما اتصل بهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للاتفاق على عودتهم و تراجعهم في مقابل مساعدتهم مادياً.

٢. مصرع فارسهم الأكبر عمرو بن عبدود الذي علّقوا عليه الآمال في الانتصار.

١. بحار الأنوار: ٢٠ | ٢٥٦؛ تاريخ الطبري: ٢ | ٢٤٠.

( ١٥١ )

٣. دور «نعيم بن مسعود» في تفرقة أعداء الإسلام و إيقاع الخلاف بينهم، وكان قد أسلم حديثاً، فقد تمكن بدائه من التفرقة بين يهود بنى قريظة وجيش الأحزاب، حيث أقنع اليهود بأن يأخذوا رهائن من العرب ليكونوا ضماناً في مقابل تعاون اليهود مع المشركين قائلين: «حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسرعوا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه» وفي نفس الوقت طلب من قريش عدم إعطاء اليهود أحداً من رجالهم إذا طلبوا منهم ذلك، فإنهم سيرسلونهم إلى النبيلقتلهم.

وهكذا فقد جرى الأمر كما رسمه «ابن مسعود» إذ أنّ الأطراف المتحالفة تأكدت من النوايا السيئة فانسحبت بنو قريظة، وتفرق الشمل ورجع الكفار خائبين.

٤. عامل إلهي، حين بعث الله عليهم فجأة، العاصفة والريح واشتد البرد، فقلعت خيامهم وأطفأت أضواءهم، فصاح بهم أبو سفيان: ارتحلوا فإنّي مرتحل.

وقد سجل القرآن الكريم وقائع هذه المعركة وأشار إلى أبرز النقاط فيها ضمن ١٧ آية من سورة الأحزاب ٩-٢٥.

وقسمت الآيات الموضوع إلى ثلاثة أقسام:

١. آيات ترسم الوضع العام للمسلمين.

٢. آيات تتعرض لموقف المنافقين.

٣. آيات تبين موقف المؤمنين الصادقين.

فهى تؤكد دور عناية الله بالمؤمنين وحمايتهم من أعدائهم الكافرين، كما

(١٥٢)

أنّها تشرح الحالة العسكرية للمسلمين، من حصار الأعداء لهم من كلّ جهة، ممّا ألقى الرعب فى قلوب اليهود من أهل المدينة، وما أظهره المنافقون من إشاعات وتشكيكات بالوضع، لإلقاء روح الهزيمة بين الأفراد.

وبالتالى فهذه الواقعة التى انتهت فى ٢٤ من شهر ذى القعدة، كانت امتحاناً اختيارياً دقيقاً للنفوس والقلوب، ميّزت الصادق عن المنافق، والموفون بالعهد وعن الناقضين له، كما كشفت عن أنّ وعود الله صادقة ومحقّقة متى توفرت شرائطها ومقدماتها، كما أنّها أشارت إلى دور الطابور الخامس فى إضعاف الجبهات، وأساليب مواجهتها. ٣. غزوة بنى قريظة

قرر النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) معالجة قضية بنى قريظة بعد المعركة دون انتظار، وذلك بأمر من الله تعالى. فسار مع المسلمين ليحاصر حصونهم التى تحصنوا بها وأغلقوا الأبواب. ولما كان اليوم - السبت - فإنهم لم يبتغوا القتال فيه أو الحرب. ثمّ إنّ وفداً منهم طلب من النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتركهم يخرجوا من المدينة بأموالهم مثلما فعل مع بنى النضير، أو يتركوا سلاحهم وأموالهم، فرفض النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) مقترحاتهم ومطالبهم حتى لا يفعلوا فعلى بنى النضير فى تحريك العرب المشركين ضد المسلمين، ولذا فقد سلّموا أنفسهم للمسلمين دون أيّة شروط، فدخل المسلمون الحصن وجردوهم من سلاحهم وحبسوهم حتى يتقرر مصيرهم، أو يحكمم فيهم سعد بن معاذ الأوسى حليفهم. وفى المجلس الذى أعده لذلك، حكم سعد عليهم بقتل الرجال، وتقسيم أموالهم وسبى ذراريهم ونسائهم، رغم الإلحاح عليه بحسن الحكم فى

(١٥٣)

حلفائه بنى قريظة. (١)

وقد استند فى حكمه إلى:

أ: أنّ يهود بنى قريظة كانوا قد تعهدوا للنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنهم لو تأمروا ضدّ المسلمين وناصروا أعداءهم أو أثاروا الفتن والقتال، فإنّ للمسلمين الحقّ فى قتلهم ومصادرة أموالهم وسبى نسائهم.

ب: وأنّ حكمه جاء بمثل ما فى شريعتهم.

ج: ما قد رآه بعينه ممّا صدر قبل ذلك من قبائل اليهود حين عفا عنهم النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنهم نقضوا عهودهم معه «صلى الله عليه وآله وسلم» وأثاروا الأجانب عليهم واشتركوا مع المشركين ضدّهم، الأمر الذى جعله يتخوف من أن يعرض هؤلاء مركز الإسلام للخطر من خلال مآمراتهم. وخاصة أنّهم كانوا قد أخلّوا بالأمن فترة من الزمن فى المدينة، ولولا الحراسة المكثفة التى عينها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لفعلوا أفضع الأمور والأعمال.

وقد قسمت الغنائم بين المسلمين بعد إخراج الخمس منها، وأعطى للفارس سهمان، وللراجل سهم واحد، وسلم الرسول ص أموال الخمس لزيد بن حارثة، ليشتري بها السلاح والعتاد والخيل من نجد. (٢)  
وقد استشهد سعد بن معاذ الذي كان قد جرح في معركة الخندق، بعد أحداث بنى قريظة. وانتهت هذه المشكلة في ١٩ من شهر ذي الحجة \_\_\_\_\_.

١ . السيرة النبوية: ٢ | ٢٤٠؛ المغازي: ٢ | ٥١٠؛ زاد المعاد: ٢ | ٧٣.  
٢ . السيرة النبوية: ٢ | ٢٤١؛ تاريخ الطبري: ٢ | ٢٥٠؛ زاد المعاد: ٢ | ٧٤.  
(١٥٤) ٤. زواج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بزینب بنت جحش  
كان «زيد بن حارثة» قد سرقه قطاع الطرق وباعوه في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام وأهداه لعمته السيدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام) التي أهدته بدورها إلى النبي بعد زواجهما. وقد دفعت أخلاق النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وسيرته الحسنة إلى أن يحبه زيد حباً شديداً إلى آخر عمره، حتى أنه فضل العيش معه (صلى الله عليه وآله وسلم) على الرجوع إلى أهله.  
ولما قرر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأمر من الله تعالى أن يحطم التقاليد الجاهلية في المجتمع العربي، ليعيشوا جميعاً تحت لواء الإنسانية والتقوى إخوة متحابين، فقد زوج زيداً من ابنة عمته زينب بنت جحش، حفيدة عبد المطلب، مع ما بينهما من الاختلاف في مستوى الانتماء القبلي والمكانة الاجتماعية إلا أن زواجهما لم يدم طويلاً فافتراقاً بعد الطلاق. ثم تزوجها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك للتخلص من تقليد جاهلي آخر مترسب في المجتمع، حيث كان يعتبر الابن المتبنى كالابن الحقيقي، يعامله مثله تماماً في الحقوق والواجبات. ولذا فقد كلف الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يقضى على هذا التقليد الجاهلي والسنة الخاطئة بإجراء عملي ظاهر للعيان، وهو التزوج من زينب مطلقته متبناه زيد: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا). (١)

١ . الأحزاب: ٣٧.

(١٥٥)

### أحداث السنة السادسة من الهجرة

أحداث السنة السادسة من الهجرة ١. اليهود  
كان لابد من القضاء على خطر اليهود، إذا أراد المسلمون حياة الاستقرار والأمن، حتى لا تتكرر قضية الأحزاب مرة أخرى، فأرسل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مجموعة من شجعان الخزرج لتصفية هذا العنصر الحاقد، وكان على رأسهم: سلام بن أبي الحقيق، الذي عاش في خيبر، فخرجوا حتى وصلوا خيبر فدخلوها ليلاً، فدخلوا على المفسد وقتلوه، إذ طالما أزعج المسلمين بفتنه وموامراته، وعادوا إلى المدينة سالمين. ٢. قبيلة بنى لحيان  
قرر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه السنة تخويف هذه القبيلة، التي اعتدت من قبل على عدد من دعاة المسلمين غدراً ودون رحمة، فقام بسلسلة من المناورات العسكرية واستعراض لقواته القتالية، ليرهب أعداء الله الآخرين أيضاً وقريش خاصة فيذعرهم حيث كان الرسول ص وأصحابه قد نزلوا  
(١٥٦)

عسفان على مقربة من مكة، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من رأيه، أنه: «لو هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أننا قد جئنا مكة». كما ذكر جابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال عند رجوعه إلى المدينة: «أعوذ بالله من وعثاء السفر،



وكتابة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال». (١) ٣. بنو غطفان

في ٣ من شهر ربيع الأول، اعتدى جماعة من بنو غطفان على إبل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في منطقة الغابة - وهي قريبة من المدينة من ناحية الشام - وقتلوا رجلاً وأخذوا امرأة، فطاردهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقتلهم في ذي قرد، واستعاد منهم المرأة وعدداً من الإبل . ٤. غزوة بني المصطلق

وهم من قبائل خزاعة المتحالفة مع قريش. قرر زعيمها «الحارث بن أبي ضرار» أن يغزو المدينة، فأعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عدته للقضاء عليهم، فخرج عندما علم من رجال مخابراته بنواياهم، فلقبهم عند ماء «المريسيح» وقتلهم ففرقوا، وغنم المسلمون منهم كثيراً كما سبوا عدداً كبيراً من نسائهم.

وبعد المعركة، حدث أن تقابل اثنان من المهاجرين والأنصار على الماء، حتى كادت أن تقع حرب بين الطرفين، لولا حكمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي تمكن من إخماد الفتنة في مهدها، وتجنيب المسلمين أخطارها. إلا أن عبد الله بن أبي ريس المنافقين استغل الموقف فأثار الأنصار ضد

١ . تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٤؛ المغازي ٢/ ٥٣٥؛ إمتاع الأسماع: ١/ ٢٥٩.

( ١٥٧ )

المهاجرين، على أساس أنهم أقل مكانة منهم، مما تركت كلماته أثرها في نفوسهم، إذ أنهم ما زالوا يعانون من بقايا العصبية الجاهلية. وكادت الحركة أن توجه ضربة قاضية إلى صرح الوحدة الإسلامية والإخوة الإيمانية، ولكن زيد بن الأرقم ظهر من بين فتيان المسلمين ليرد عليه بالكلمات القوية: «أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك، ومحمد في عز من الرحمن ومودة من المسلمين، والله لا- أحبك بعد هذا أبداً». ثم سار إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يخبره بما حدث من المنافق، فأراد الرسول أن يهدى الأوضاع، فأمر بالرحيل في ساعة من النهار لم يكن يرتحل فيها عادة، كما أنه سار ليلاً ونهاراً دون إستراحة إلا للصلاة، وذلك حتى يشغلهم عن الذي حدث من عبد الله بن أبي المنافق.

وقد طلب ابنه عبد الله من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسمح له بقتل أبيه، حيث كان مسلماً حقيقياً أفضل من أبيه، ولكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا». فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا باللوم على ابن أبي، فلحقه من ذلك ذلك شديد بين الناس، فلم يعبأ به أحد، ولم يعد له أي دور، وعاش بقيه حياته محتقراً بين الناس.

وقد تزوج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «الجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار» التي كانت من بين سباياهم، فأسلمت وأسلم أهلها، ثم أطلق الباقون وهم مائة عائلة من بنو المصطلق، إذ اعتبروا من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأطلق جميع أسرى بنو المصطلق رجالاً ونساء بفضل هذا الزواج المبارك، وبفضل سياسة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحكيمة.

وفي هذه السنة خرج جماعة من قريش تنشد اللجوء إلى الحبشة خوفاً من قوة المسلمين، وكان فيهم عمرو بن العاص، الذي قدم الهدايا الكثيرة إلى الملك،

( ١٥٨ )

الذي نصحه بأن يعلن إسلامه، إذ لا مفر من انتشار الإسلام في بلاده، فاضطر إلى أن يسلم على يديه، وكتب أمره عن أصحابه. (١) ٥. قصة الإفك

يرى أكثر المحققين المفسرين أن القصة ترتبط بالسيدة عائشة زوجة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويذكرون أحداثاً لا يتلاءم بعضها مع عصمة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ولذا لا يمكن القبول بها (٢) بينما يذهب آخرون إلى المعنى فيها هو



مارية القبطية زوجة رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» وأم إبراهيم.

ففي رواية البخارى التى نقلها عن السيدة عائشة، ما يتنافى بقوة مع عصمة النبى (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنها تكشف عن أنه وقع «صلى الله عليه وآله وسلم» فريسة بأيدي الشائعات الكاذبة إلى درجة أنه غير سلوكه تجاه السيدة عائشة، بعد أن شك في عفافها وشاور أصحابه في أمرها. (٣) إتمثل هذا الموقف مع شخص برىء لا- يوجد أى دليل على تهمته، لا- يتنافى فقط مع مقام العصمة النبوية، بل حتى مع مقام المؤمن العادى. كما أن الآية ١٢ و ١٤ من سورة النور توبخ أولئك الذين وقعوا فريسة الشائعات و ظنوا السوء، مما يعنى أن هذا العتاب والتوبيخ كان يعم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً لو صحت رواية البخارى هذه. ولذا فإنه يُرفض كالأرواية المذكورة فى شأن النزول الذى يتناقض مع عصمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) (\_\_\_\_\_).

١. لاحظ الاختلاف فى الموقف هنا و فى أول عهد الإسلام بمكة.

٢. الدر المنثور: ٥/٢٤.

٣. صحيح البخارى: ٦/١٠٢، تفسير سورة النور.

(١٥٩)

وأما بالنسبة لرواية البخارى الأخرى بشأن النزول، التى ينقلها عن عائشة ومفادها: أنه حدث شجار و صدام بين الأوس والخزرج أمام الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» حينما كان يخطب على المنبر، فاتهموا بعضهم بعضاً بسبب قضية الإفك، حتى أشار عليهم (صلى الله عليه وآله وسلم) بالسكوت فهذأهم حتى انصرفوا، فهى كذلك لا تتناسب مع أحداث التاريخ الصحيح، إذ أن «سعد بن معاذ» رئيس الأوس كان قد توفى قبل حادثه الإفك، التى جرت وقائعها بعد أحداث معركة بنى قريظة، وقد صرح بذلك البخارى نفسه فى صحيحه (١) فى باب معركة الأحزاب وبنى قريظة، فكيف يمكن أن يحضر مجلس النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» و يجادل سعد بن عبادة فى قضية الإفك التى وقعت بعد أحداث بنى قريظة بعدة شهور؟

ولذا فمن المهم أن نعرف أن حزب النفاق حاول أن يزلزل النفوس بإلقاء التهمة والبهتان إلى امرأة صالحه ذات مكانة وأهمية فى المجتمع الإسلامى. وقد فسر قوله تعالى: (الذى تولى كبره) بأن الذى تحمل القسط الأكبر من هذه العملية الخبيثة هو: «عبد الله بن أبى» فهو الذى قاد هذه العملية الرخيصة الخطرة، كما صرحت بذلك السيدة عائشة نفسها. (٢) فقد كان «عبد الله بن أبى» يعمل بتجارة الجوارى و يضعهن تحت تصرف الرجال للزنا بهن، فيجنى أرباحاً طائلة من وراء هذه التجارة البغيضة، حتى بعد انتشار الإسلام فى المدينة. ولما كان يكرههن على البغاء، واشتكت إحدى نساءه من ذلك، فقد نزلت الآية الكريمة تشجب عمله الدنىء: (وَلَا تُكْرَهُوا قِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتُّنَّوْا عَرَضَ الْحَيَاةِ

١. صحيح البخارى: ٥/١١٣.

٢. السيرة النبوية: ٢/٢٩٧، وقد فطن ابن هشام لهذه الناحية فترك ذكر سعد بن معاذ بينما غفل عنها البخارى فى صحيحه.

(١٦٠)

الدنيا) (١) وعندما حدث العداء بينه وبين ابنه بعد واقعه بنى المصطلق، عمد إلى فعل كل ما يشفى غليله ويذهب غيظه، كترويح الشائعات الكاذبة انتقاماً من المجتمع الإسلامى، ليعمل على بلبلة الرأى العام ويشغله بالتوافه من القضايا، ويصرفه عن القضايا المهمة والمصيرية، إذ أن سلاح الشائعات يعتبر من الأسلحة المدمرة، وتستخدم فى تشويه سمعة الأفراد الصالحين والمجتمع أيضاً.

أما الرواية الأخرى، فترى أن المقصود من الآية مارية القبطية، حيث اتهم فرد يدعى جريح بعد وفاة ابنها إبراهيم بأنه هو والد إبراهيم وليس النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» فأرسل ص الإمام علياً ليقبله، فصعد جريح إلى نخلة خوفاً من على (عليه السلام) وفتكه به، فتعقبه على، فرمى بنفسه من فوقها فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء، فرجع على (عليه السلام) إلى النبى «صلى الله

عليه وآله وسلم» فأخبره بما رأى، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : الحمد لله الذى صرف عنا سوء أهل البيت .(٢) وجميع هذه الروايات ضعيفة فلا يمكن القبول بها فى شأن نزول آيات الإفك. ٦. الحديبية: رحلة دينية سياسية كانت السنة ٦ هـ تقترب من نهايتها حينما رأى الرسول فى المنام أنه دخل الكعبة وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت. فقص ص روايه على أصحابه، وتفاعل بها خيراً.(٣) \_\_\_\_\_

١ . النور: ٣٣.

٢ . بالرغم ما ذكر عن الإمام على (عليه السلام) أنه لم ينظر إلى عورة قط، ولذا قيل عنه كرم الله وجهه.

٢ . مجمع البيان: ١٢٦/٩.

(١٦١)

إنّ هذه الرحلة الروحانية انتجت مصالح اجتماعية وسياسية، عززت مكانة المسلمين فى الجزيرة العربية وساعدت على نشر الدين الإسلامى فيها، وذلك لأن:

- القبائل العربية المشركة تصورت أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خالف كل عقائد العرب وتقاليدهم الموروثة بما فيها الحج والعمرة، فأكد بذلك الصلح وتجنب القتال فى الشهر الحرام أنه لا يعارض تلك الطقوس الدينية، بل يعتبرها فريضة مقدسة مثل والد العرب الأكبر «إسماعيل بن إبراهيم» ويعمل على المحافظة على هذه التقاليد الدينية، مما قلل من مخاوفهم تجاه الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» ودعوته.

- ولما لم يكن يحمل أسلحة معه على أساس حرمة الأشهر الحرم، فإنّ ذلك غير من نظره هؤلاء تجاه دعوة الإسلام حين شاهدوا الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» وهو يحرم القتال فى الشهر الحرام، ويدعو إلى رعاية هذه السنة الدينية القديمة.

- وستكون مناسبة يتمكن المهاجرون فيها من زيارة وطنهم وأهاليهم وأقربائهم. أما إذا منعتهم قريش من الدخول فإن سمعتها هى تتعرض للخطر، ويتضح عدوانها، وينكشف للجميع بطلان مواقفها، نظراً لموقفها السيئ تجاه جماعة مسالمة أرادت أداء مراسم العمرة فقط.

- وإذا نجح المسلمون فى سعيهم بأداء مناسك العمرة، فإنّه سيكون أفضل إعلام لجميع مناطق العرب، إذ أنّداء الإسلام سينتشر فى تلك البقاع والمناطق التى لم يصلها دعاة النبي ص ومبلغوه حتى هذا الوقت.

- ولذا فإنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر أصحابه بالتهيؤ للعمرة داعياً القبائل المجاورة التى لم تزل على كفرها وشركها إلى مرافقة المسلمين فى هذه الرحلة وبلغت أعدادهم ألف وأربعمائة أو ١٦٠٠ أو ١٨٠٠، أحرموا فى ذى الحليفة فشاغ فى الجزيرة العربية أنّ المسلمين متجهون صوب مكة للعمرة فى شهر ذى القعدة.

(١٦٢)

وعند عُسفان، أخبروا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنقريشاً ترفض السماح لهم بالدخول إلى مكة، كما أرسلت كتيبة من أفرادهم بقيادة: خالد بن الوليد، لتنفيذ الأوامر المعلنة، فغير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) طريقه حتى لا يلتقى بخالد، سالكاً طرقاتاً وعرّة حتى وصل الحديبية، التى بركت فيها ناقه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فنزلوا فى ذلك المكان، إلا أنّ خالد بن الوليد تمكن من الوصول بكتيبته وحاط بهم وحاصر موكبهم. ولكن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن قد جاء ليحارب فى سبيل دخول مكة، ولم يكن هذا هدفه، ولذا فإنّ التفاوض كان من أفضل الحلول لهذه المشكلة، فقال «صلى الله عليه وآله وسلم»: «لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». فبلغ ذلك مسامح الجميع، فقرروا إرسال عدد من أفرادهم إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) للتعرف على هدفه الأسمى من رحلته ومجيئه إلى مكة، فبعثوا إليه بأربعة أشخاص لتفهم موقف الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» فقال لهم (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّا لم نجى لقتال أحد ولكنّا جئنا معتمرين».

إلا أن المندوبين أكدوا للمسلمين أن قريشاً لن تقبل بدخولهم مكة: «يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً». فذهبت كلكم المفاوضات سدى دون جدوى، مما جعل الرسول ص يرسل مندوباً عنه إلى قريش يوضح الصورة الصحيحة لهدفهم، وهو زيارة بيت الله وأداء مناسك العمرة، إلا أن قريشاً - خلافاً لكل الأعراف الدولية والاجتماعية - والتي تقضى بحماية السفراء واحترامهم، عمدت إلى عقر الجمل الذى قدم عليه السفير والمندوب النبوى، بل كادوا أن يقتلوه أيضاً، لولا تدخل جماعة من قادة العرب، فخلت سبيله ليعود إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). كما أنقريشاً أرسلت كتية لارهاب الرسول وجماعته وإرعابهم ونهب شىء من أموالهم، إلا أن الوضع لم يكن فى صالحهم فقد أسرهم المسلمون وكانوا خمسين فرداً، فتدخل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعفا عنهم و خلى سبيلهم، ليؤكد لهم أنه جاء يريد السلام، وأن هؤلاء ينشدون الحرب والقتال.

(١٦٣)

واختار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «عمر بن الخطاب» لمهمة سفارة أخرى لقريش، لأنه لم يكن قد أراق دم أيمن المشركين حتى ذلك الوقت، ولكنه اعتذر عن تحمّل هذه المسؤولية المحفوفة بالمخاطر قائلاً: «يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بنى عدى من ينعنى، ولكنى أدلكك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان». (١) إلا أن قريشاً ألقت القبض على عثمان وحسوه، لعلمهم يتوصلون إلى حل فيطلقوه ليلبغ الرسول رأبهم. فلما أبطأ عثمان عنهم، وأوجد ذلك قلقاً شديداً فى نفوس المسلمين، وخاصة أنه أشيع أن عثمان قتل، فإن المسلمين ثاروا وقرروا الانتقام والقتال، مما دعا النبى إلى أن يجدد بيعته مع المسلمين، فبايعوه تحت الشجرة على الاستقامة والثبات والوفاء، وحلفوا ألا يتخلوا عنه أبداً، وأن يدافعوا عن حياض الإسلام حتى النفس الأخير، وسميت هذه البيعة: بيعة الرضوان، التى ذكرها القرآن الكريم بقوله: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا). (٢) وبذا فإن موقف المسلمين تحدد فى: إما دخول مكة وزيارة بيت الله، وإما القتال فيما لو تصلب موقف قريش الرافض لذلك. ولكن «عثمان بن عفان» رجع إليهم وأخبرهم أن اليمين التى التزمت بها قريش بمنعهم من دخول مكة هذا العام، هى التى تجعلهم فى موقف متصلب رافض، وأنهم سيرسلون إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من يتفاوض معه فى هذا الشأن. وكلف سهيل بن عمرو بإنهاء هذه المشكلة. ونتج عن التفاوض بين الطرفين عقد صلح شامل و

١. السيرة النبوية: ٢/٣١٥، كما أن بينه وبين أبي سفيان قرابة، فهو أموى.

٢. الفتح: ١٨.

(١٦٤)

واسع بينهما.

وفى الوقت الذى كان المندوب القرشى يتصلب فى بعض البنود و المواد، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتساهل معه ويتنازل عنها، مما كان له أثر بعيد، فالتسامح الذى أبداه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فى تنظيم وثيقة الصلح، لا يعرف له نظير فى تاريخ العالم، لأنه أظهر بجلاء أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يقع فريسة بيد الأهواء والأغراض الشخصية والعواطف والآحاسيس العابرة، فكان يعلم أن الحقائق لا تتبدل ولا تتغير بالكتابة والمحو، وهو ما جعله يتسامح مع مفاوضات قريش الذى تصلب فى مطالبه غير الشرعية، وذلك حفاظاً على أصل الصلح وحرصاً على السلام. وقد حدث خلال ذلك، أن طلب المندوب القرشى بأن يمسح الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كتبه: «بسم الله الرحمن الرحيم» ويكتب بدلاً منه: باسمك اللهم. كما طلب مسح كلمة «رسول الله» وإبدالها بمحمد بن عبد الله. فأجابه الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى ذلك.

أما صلح الحديبية، فكان من أبرز بنوده:

١. وقف القتال عشر سنين بين الطرفين.

٢. من قدم إلى النبي من قريش دون إذن وليه، يرده عليهم، ومن جاء قريشاً من محمد لا يرده إليه.
٣. السماح بدخول أى طرف فى التحالف مع أية أطراف.
٤. يرجع المسلمون هذا العام على أن يقدموا العام القادم للعمرة.
٥. لا يستكره أحد على ترك دينه، ويعبد المسلمون الله بمكة بحريه وأمان.
٦. احترام الطرفين لأموالهم، فلا خيانة ولا سرقة.
٧. لا تعين قريش على محمد وأصحابه أحداً، سواء بسلاح أو أفراد. (١)

١ . بحار الأنوار: ٢٠ | ٣٥٢؛ السيرة الحلبية: ٣ | ٢١؛ مجمع البيان: ٩ | ١١٧.

(١٦٥)

ثم كتبت الوثيقة بنسختين، ووقع عليها نفر من شخصيات قريش والمسلمين شهوداً عليها، وتسلم سهيل بن عمرو نسخة قريش، واحتفظ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنسخة الأخرى. وكثيراً ما اعترض المسلمون على بعض البنود، كالبند القاضى بتسليم كل مسلم سار إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من قريش، والعكس، فأوضحه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). «من جاءهم منا فبعده الله، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجاً». فلا قيمة لإسلام وإيمان من يترك المسلمين ويهرب لاجئاً عند المشركين، إذ أنه يؤكد بفعله أنه لم يؤمن حقاً بالإسلام، ولذا لم يكن هناك حاجة لقبوله فى جماعتهم.

وهذا الميثاق يؤكد نزاهة الإسلام وروحه وحقيقة تعاليمه، وأنه لم يُطلب نشره بقوة وإجبار، كما يذكره الأجانب وغيرهم دوماً. وبعد الانتهاء من تلك المراسيم وعودة جماعة قريش، قام الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بنحر ما كان معه من الهدى فى نفس ذلك المكان وحلق، وأدى الآخرون نفس العملية، ثم عادوا إلى المدينة بعد ١٩ يوماً من البقاء فى أرض الحديبية. وكان لهذه المعاهدة نتائج وآثار بعيدة المدى، كان من أبرزها وأهمها:

١. تهيأت الأرضية لنشر الإسلام فى المناطق المختلفة، بعد استقرار الأمن والسلام بين المسلمين وقريش، فقد كان يقضى (صلى الله عليه وآله وسلم) أكثر وقته فى العمل على إفشال المؤامرات والدفاع عن المدينة والدخول فى حروب.
٢. كان لاعتراف قريش بالكيان الإسلامى رسمياً، دوره فى منح القبائل حريتها فى الانضمام إلى المسلمين إذا شاءوا.

(١٦٦)

٣. زال الستار الحديدي الذى ضربه المشركون حول المسلمين فى المدينة، فتمكن الناس من الارتحال إلى المدينة والتعرف عليها وعلى تعاليم الإسلام العليا، مما فسح المجال لهم فى اعتناق الإسلام كما تمكن المسلمون من السفر إلى مكة وأجزاء أخرى، مما ساعد فى نشر الإسلام فى تلك الجهات.

٤. التحق عدد كبير من رؤوس الشرك والكفر كـ«خالد بن الوليد و عمرو ابن العاص» بالمسلمين واعتنقوا الإسلام قبل فتح مكة.
٥. زال الحاجز النفسى بين قريش و المسلمين، حين أثبت الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» لهم بأنه معدن عظيم من معادن الخلق الإنسانى الكريم، بعد صبره وتجلده وتحمله تصلب قادة المشركين وتعنتهم. فقد شاهدوا موقف النبى الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فى مخالفته لآراء المعرضين من جماعته لبعض البنود عند توقيع العقد، وذلك فى رغبة صادقة منه لإقرار السلام بين الجانبين، فأبطل بذلك كلالدعايات والإشاعات المغرضة التى رُوِّجت ضده و ضد دعوته المباركة، وأثبت أنه حقاً رجل سلام وداعية خير للبشرية، حتى لو سيطر على مقاليد الجزيرة العربية، فإنه سيعامل أعداءه باللطف والحسنى والتسامح.

ويؤكد ذلك قول الإمام الصادق (عليه السلام) بعد ذلك: «وما كان قضية أعظم بركة منها». إذ لم يكذب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يصل إلى المدينة حتى نزلت سورة الفتح التي وعدت المسلمين وبشّرتهم بالانتصار، مما اعتبر مقدمة لفتح مكة (أنا ففتحنا لك فتحاً مبيناً). (١)

وكانت المادة الثانية من المعاهدة، والتي اختلف حولها المسلمون، هي التي

١ . بحار الأنوار: ٢٠/٢٦٣؛ زاد المعاد: ٢/١٢٦.

(١٦٧)

تسببت في الفتح بعد ذلك، لأن قريشاً طلبت من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد فترة قصيرة من توقيع المعاهدة بإلغاء تلك المادة التي تنص: على الحكومة الإسلامية أن تعيد كالمسلم هارب من مكة إلى قريش، وليس عليها أن تعيد كل هارب من المسلمين. ولما أثارت هذه المادة المسلمين، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) طمأنهم حينما ذكر لأحدهم: «إن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

ذلك أن بعض هؤلاء المسلمين الهاربين تمكنوا من تأسيس عصابة خاصة في مراكز بعيدة عن مكة والمدينة، للنيل من قوافل قريش التجارية والتعرض لها وقتل من يقع في أيديهم، الأمر الذي أقلق بال قريش، فراسلوا النبي صطالين منه إلغاء هذه المادة للتخلص مما هم فيه من قلق وتوتر، فوافق الرسول الكريم «صلى الله عليه وآله وسلم» على ذلك، ولذلك انضم هؤلاء المسلمون المتفرقون إلى جماعة المسلمين بالمدينة، إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يقبل بإعادة المسلمات، كما حدث «لأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط» التي هاجرت إلى المدينة فطلبوها، ولكن النبي ص قال: «إن الله نقض العهد في النساء». (١)

وقد جاء كذلك كما حكى القرآن الكريم في سورة الممتحنة:

(يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتننوهن الله أعلم بما يمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهن ولا هن يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا). (٢)

١ . المغازی: ٢/٦٣١؛ السيرة النبوية: ٢/٣٢٣.

٢ . الممتحنة: ١٠.

## الفصل الثامن أحداث السنة السابعة و الثامنة من

### إشاره

الفصل الثامن أحداث السنة السابعة و الثامنة من الهجرة

### أحداث السنة السابعة من الهجرة

أحداث السنة السابعة من الهجرة الفصل الثامن ١. أحداث السنة السابعة من الهجرة - إعلان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن عالمية رسالته - أحداث خبير

- قصة فدك - عمرة القضاء ٢. أحداث السنة الثامنة من الهجرة - معركة موته - غزوة ذات السلاسل

- فتح مكة - معركة حنين

- غزوة الطائف ( ١٧٠ ) ( ١٧١ ) أحداث السنة السابعة من الهجرة ١. إعلان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن رسالته عالمياً كان من نتائج المعاهدة السابقة، أنها أعطت الفرصة للنبي لفتح باب الاتصال مع زعماء وملوك العالم وروساء القبائل ورجال الدين المسيحي، فوجه إليهم الرسائل عبر سفرائه ورسله، وهي خطوة اتخذها الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بعد ١٩ عاماً من الصراع مع قريش المتعنتة، فقد أشغلته الجبهة الداخلية ومشكلاتها وأجبرته على أن يصرف كثيراً من وقته في ترتيب البيت الإسلامي، وشؤون الدفاع عن حياض الإسلام وكيان المسلمين.

ولدينا الآن نصوص ١٨٥ رسالته وكتاب من قبل رسول الله ص أرسلها إلى عدّة أطراف وشخصيات محلية وعالمية تدعوهم إلى تقبل الدين الإسلامي، كما تتضمن عقد موثيق عقدها مع روساء القبائل، قام بجمعها وضبطها أرباب السير وكتاب التاريخ، وهي تكشف عن أسلوب الإسلام في الدعوة والتبليغ، وأنه يعتمد على المنطق والبرهان، لا على السيف والقهر، وعلى الإقناع لا الجبر. (١)

١. أفضل ما تناول الموضوع من مصادر كتابان: أ. الوثائق السياسية للبروفيسور محمد حميد الله حيدر آبادي الأستاذ بجامعة باريس. ب. مكاتيب الرسول للعلامة المحقق الشيخ علي الأحمدى. و هو يمتاز بتحقيقات وتحليلات أدبية وتاريخية وسياسية إسلامية في غاية الأهمية.

( ١٧٢ )

فالدعوة الإسلامية كانت عالمية منذ ظهور الدعوة المحمدية، ويمكن الرد على المستشرقين المعادين للإسلام، والذين يكدون على عدم عالمية الدعوة المحمدية، وينظرون إليها بعين الشك والريب، في محاولة للتعتيم على الحقيقة، فإن القرآن الكريم يظهر بوضوح في آياته التي تشهد بأن النبي ص دعا البشر عامة إلى التوحيد وإلى مبادئ رسالته، ولم يقتصر في ذلك على العرب:

- (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا). (١)

- (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ). (٢)

- (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا). (٣)

- (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ). (٤)

ولذا فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اختار ستة أفراد من خيرة أصحابه حملوا كتبه إلى الملوك، تضمنت دعوته العالمية، إلى مختلف جهات الأرض، فتوجه سفراء الهداية ورسول الدعوة المحمدية في وقت واحد إلى: إيران والروم والحبشة ومصر واليمنية والبحرين والحيرة، واتخذ من هذا اليوم الذي كتب فيه الرسائل خاتماً من فضة نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، في الأعلى لفظة الجلالة، وتليه كلمة رسول ثم يليه اسمه الشريف، فختم به الكتب. كما أنه ختم تلك الرسائل بالشمع أو الطين إمعاناً في السرية وحفاظاً عليها من التزوير.

١. سبأ: ٢٨.

٢. القلم: ٥٢.

٣. يس: ٧٠.

٤. التوبة: ٣٣.

( ١٧٣ ) ومن أبرز مبعوثيه ورسله إلى العالم:

١. دحية بن خليفة الكلبي: بعثه إلى قيصر الروم في القسطنطينية.

وقد توجه إلى بصرى حيث كان معه رسالة إلى حاكمها، فساعده في الوصول إلى بيت المقدس التي كان قيصر الروم قد اتجه إليها. ولما قيل له أتعلية أن يسجد عند مقابلة قيصر، رفض على أساس أنه لا يسجد لغير الله: «إنما جئتكم من قبل نبي لأبلغ ملككم بأن عهد



عبادة البشر قد انقضت وانتهى، وأنه لا- يحق السجود إلا- لله وحده، فكيف يمكنني ذلك وأنا أحمل هذه الرسالة التوحيدية إليكم؟» (١).

وقرأ ترجمان القيصر كتاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من أتبع الهدى. أما بعد، فإتيا عليك إثم الأريسيين. (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمته سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون) (٢). محمد رسول الله». وكان قيصر قد حصل على معلومات وافية عن الرسول من أبي سفيان الذي كان متواجداً في هذا الوقت في الشام في تجارته، كما كتب إلى أحد علماء الروم يسأل عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) فأجابه:

«هذا النبي الذي كنا ننتظره، بشرنا به عيسى بن مريم». ولذا فإنه دعا قومه إلى الإيمان به صوباً لسلام، إلا أنهم رفضوا ذلك وثاروا عليه، فأسكتهم، ثم أمر بإكرام دحيه، وكتب جواباً على رسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأرسل معه هدية إليه ص.

١. طبقات ابن سعد: ١/٢٥٩.

٢. آل عمران: ٦٤.

(١٧٤) ٢. عبد الله بن حذافة السهمي: إلى البلاط الفارسي.

حكم فارس خسرو برويز ثاني ملك بعد أنو شيروان، فجلس على العرش مدّة ٣٢ عاماً قبل الهجرة النبوية، وتميز عهده بالاضطراب وعدم الاستقرار، بالرغم من أن النفوذ الإيراني قد امتدّ حتى شمل آسيا الصغرى حتى مشارف القسطنطينية، كما استولى على صليب عيسى المقدس عند النصارى وأحضره إلى المدائن، إلا أن الأحوال السيئة وأساليب الحكم غير الصحيحة أدت إلى ضعف هذه الدولة وخروج المستعمرات من تحت نفوذها، مما ساعد على اجتياح الروم لآراضي إيران، وهروب الامبراطور خسرو برويز، الذي أثار بذلك السخط عليه، فقتله ابنه شيرويه. و برويز هذا هو الامبراطور الذي اشتهر بأنه مزق رسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعامل رسوله بجفاء وسوء أدب، وفيما يلي نص الرسالة إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فأني أنا رسول الله كافة لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم. فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

وقد مزق الامبراطور الكتاب عند قراءة أول جملة منها ودون أن يعلم ما كان فيها، ثم أمر بإخراج الرسول من قصره. وعندما أخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك قال: «اللهم مزق ملكه» (١).

إلا أن اليعقوبي، ينفرد برأى آخر، بأن الامبراطور الفارسي أرسل هدية من حرير ومسك إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). ويوافقه على رأيه أحمد بن حنبل فقط الذي قال: أهدى كسرى لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقبل \_\_\_\_\_

١. طبقات ابن سعد: ١/٢٦٠.

(١٧٥)

منه. (١)

أما الامبراطور المغرور فإنه طلب من واليه على اليمن باذان - التي كانت تتبع فارس - بأن يقبض على هذا النبي ويبعثه إليه. فأرسل هذا إليه فارسين طلباً من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسلم نفسه للامبراطور الفارسي أو يقتلاه، فردّ عليهما بأن عرض (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهما الإسلام، على أن يعودا إليه في اليوم التالي. وفي هذه الفترة، تخلص ابن الامبراطور الفارسي منه بقتله، فأخبر الله تعالى نبيه بذلك، فذكره للفارسين قائلاً: إن ربّي قد قتل ربكما ليلة كذا من شهر كذا بعد ما مضى من الليل كذا، وسلط عليه



شيوخه فقتله. وكانت الليلة الثلاثاء من العاشر من جمادى الأولى ٧هـ فطلب السماح لهما ياخيار ملكهم باذان في اليمن بما جرى، فسمح لهما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «نعم أخبراه ذلك عنى، إن دينى و سلطانى سيلبغ ما بلبغ ملك كسرى و ينتهى إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملككتك على قومك».

ولما تأكد الوالى باذان فى اليمن من صحة أقوال النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» وما حدث بفارس، فإنه أعلن إسلامه مع جميع أعضاء حكومته - وهم من الفرس - وكتب بذلك إلى النبى (صلى الله عليه وآله وسلم). (٢) ٣. حاطب بن أبى بلتعء، إلى مصر: وقد نصت الرسالة إلى المقوقس حاكم مصر: «أسلم يوتك الله أجر ك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم القبط».

١. مسند أحمد بن حنبل: ١/٩٦.

٢. بحار الأنوار: ٢٠/٣٩١.

(١٧٦)

وقد توجه الرسول إلى الإسكندرية حيث كان يعيش هناك فى قصر شامخ، وكان متسامحاً، مما جعل حاطباً يتناول فى خطابه إياه صورة الإسلام وقوة النبيص كما ذكر التوراة والإنجيل، وأن الإسلام هو الصورة الأكمل لدين المسيح، ثم إن المقوقس طلب منه أن يصف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويبين مضمون دعوته، فقال، بعد أن سمع وصفه: «كنت أعلم أن نبياً بقى، وكنت أظن أنمخرجه بالشام فأراه قد خرج من أرض العرب. والقبط لا تطوعنى فى أتباعه، وسيظهر على البلاد، وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما هاهنا».

ثم كتب كتاباً إلى النبى (صلى الله عليه وآله وسلم): «أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط، وبثياب، وأهديت إليك بقلعة لتركبها، والسلام عليك». (١)

وحينما تسلم النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) كتابه وهداياه قال: «صنمملكه ولا بقاء لملكه». (٢) ٤. عمرو بن أمية الضميرى، إلى الحبشة

اختر عمرو لتسليم كتاب النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى نجاشى الحبشة الملك العادل، وكان النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أرسل إليه من قبل رسائل بشأن المهاجرين المسلمين للاعتناء بهم ورعايتهم.

وشمل كتابه (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه المرة دعوته إلى الدين: «أحمد الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيم، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على

١. طبقات ابن سعد: ١/٢٦٠.

٢. طبقات ابن سعد: ١/٢٦٠.

(١٧٧)

طاعته وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاعنى، فأتى رسول الله وإنى أدعوك وجنودك. وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى، والسلام على من أتبع الهدى». (١)

ونظراً للعلاقات الطيبة بين الطرفين، فإن الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بدأ كتابه بالسلام عليه ومرسلاً تحياته الشخصية، فى حين أنه لم يفعل هذا فى الكتب الأخرى التى أرسلت إلى كسرى وقيصر والمقوقس، فقد خصه بالسلام عليه دون غيره من الزعماء.

أمياً النجاشى فقد اعترف بنبوة النبى (صلى الله عليه وآله وسلم): «أشهد بالله أنه للنبي الذى ينتظره أهل الكتاب، وإنبشاره موسى براكب الحمار كبشاره عيسى براكب الجمل، وأنه ليس الخبر كالعيان، ولكن أعوانى من الحبشة قليل، فانظرنى حتى أكثر الأعوان،

وأئين القلوب، ولو استطيع أن آتية لآتيته».(٢)

وكتب بذلك كتاباً إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذكر فيه: «إلى محمّد رسول الله من النجاشي. سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، الذي لإله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. أشهد أنك رسول الله وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين. فأني أشهد أن ما تقول حقّ. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».(٣)

كما بعث إليه بهدايا خاصة. ٥. شجاع بن وهب: إلى أمير الغساسنة:

انزعج ملكها «الحارث بن أبي شمر الغساني» ممّا قرأ في آخر الكتاب: «وإني

١ . السيرة الحلبية: ٣|٢٤٨؛ إعلام الوري: ٤٥.

٢ . السيرة الحلبية: ٣|٢٤٨؛ الطبقات الكبرى: ١|٢٥٩.

٣ . تاريخ الطبري: ٢|٢٩٤؛ بحار الأنوار: ٢٠|٣٩٢.

(١٧٨)

أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا- شريك له يبقى ملكك» فقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جثته. وأعدّ الجيوش واستعرض قوته العسكرية أمام سفير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إرعاباً وتخويفاً، ثم أرسل إلى قيصر يخبره بنواياه، إلا أن قيصر هدأ من ثائرتة وكتب إليه يمنعه من السير إلى رسول الإسلام، ممّا كان له الأثر في تغيير موقفه، فأكرم السفير ومنحه هدايا ثمينة، ووجهه نحو المدينة معزراً مكرماً، وأبلغ السلام إلى النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم». إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يقبل بأسلوبه الدبلوماسي غير الصادق، فقال: باد ملكه. أي أن ملكه سيزول عمّا قريب. فمات الحارث في السنة ٨ هـ أي بعد عام واحد.(١) ٦. سليط بن عمرو إلى ملك اليمامة: هوذة بن علي الحنفي:

ونص خطابه (صلى الله عليه وآله وسلم) إليه «إعلم إنديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر (أي يعم الشرق والغرب) فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك».

وقد استطاع السفير بما أوتي من قوة في المنطق وشجاعة أديبه وخبرة بالأسفار، أن يقنع ملك اليمامة بقبول مبادئه وأهدافه. كما نصحه أحد الأساقفة بتقبل الدين الجديد، وأنه هو النبي الذي بشّر به الإنجيل. فكتب كتاباً إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال فيه: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل إلبعض الأمر أتبعك» أي أنه طلب أن يجعله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خليفة من بعده. فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): لا ولا كرامة، لو سألتني سيابة من الأرض ما فعلت. اللهم أكفنيه.(٢)

١ . السيرة الحلبية: ٣|٢٥٥؛ طبقات ابن سعد: ١|٢٦١.

٢ . نفس المرجع السابق. سيابة من الأرض: أي قطعة من الأرض. (١٧٩) آثار تلك الرسائل ونتائجها

أصبح هؤلاء السفراء والرسول دليلاً قاطعاً على عالمية الرسالة الإسلامية، إذ أن شعوباً كبرى تعرفت على النبي العربي محمّد ص الذي تأثر به معظم هؤلاء القادة والملوك، فأصبح ظهوره ص حديث الأوساط والمحافل الدينية بالإضافة إلى المراكز السياسية. فقد تمكنت هذه الرسائل من إثارة مشاعر تلك الشعوب المتحضرة ودفعتهم إلى البحث والتحقيق حول من بشّر به التوراة والإنجيل، وتسابقت أفواج و فرقٌ عدة من رجال الدين وغيرهم بالقدوم إلى المدينة لدراسة أوضاع الدين الجديد والتعرف على مبادئه. ٢. أحداث خيبر: بورة الخطر

تقع خيبر على بعد ٣٢ فرسخاً من المدينة، وهي منطقة واسعة خصبة، سكنها اليهود وبنوا فيها الحصون والقلاع المتينة، وبلغ عدد

سكانها ٢٠ ألف فرد.

ولما كانوا ممن اشتركوا في جيش الأحزاب وساعدوا المشركين في حربهم ضدّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين، فإنّ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أسرع للقضاء عليهم وعلى خطرهم نحو الإسلام والمسلمين، إذ هم أشدّ تعصباً لدينهم، من تعصب قريش للوثنية، فقد كان يعلن ألف مشرك وثني إسلامهم في مقابل يهودى واحد. كما أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تخوّف من استغلال جهات أخرى معادية كاليصر أو كسرى، لهؤلاء اليهود في القضاء على الدولة الإسلامية، إذ لا يستبعد منهم ذلك، وخاصة أنّهم كانوا المحرّضين لقريش في محاربة المسلمين.

ولذا فقد أعدّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لغزو آخر مركز من مراكز اليهود في الجزيرة العربية وقال: لا تخرجوا معي إلاّ راغبين في الجهاد أما الغنيمه فلا، فخرج معه ألف و ٦٠٠ مقاتل.

(١٨٠)

وعندما وصل إلى المنطقه، قطع الطريق عن أيّة إمدادات عسكريه تأتي من الشمال وذلك بقطع خط الارتباط بين قبائل غطفان وفزارة ويهود خيبر، فلم تستطع هذه القبائل أن تمد حلفاءها اليهود بأيّ شيء طوال شهر هو مدّة الحصار. (١)

ولمّا كانت حصونهم وقلاعهم متينه وقويه وممتنعه بمتاريس قويه شديده، فإنّه كان لا بدّ لفتحها من استخدام تكتيك عسكري مناسب، فكان أول عمل قام به الرسول هو احتلال كلّ النقاط والطرق الحساسه ليلاً، بالسرعه والسريره.

أمّا اليهود فقد قرروا في اجتماعهم العسكري أن يضعوا الأطفال والنساء في حصن، والذخيره من الطعام في حصن آخر، بينما يستقر المقاتلون على الأبراج يدافعون عن القلاع والحصون، في الوقت الذي يخرج أبطالهم ليقاتلوا المسلمين ويبارزونهم خارج الحصون، و لذلك فإنّهم تمكنوا من مقاومه الجيش الإسلامى لمدّة شهر، بحيث كانت محاوله فتح كلّ حصن تستغرق عشره أيام دون نتيجه.

وقد فتح أول حصن وهو ناعم بعد أن استشهد في معاركه: محمود بن مسلمة الأنصارى، وهو أحد فرسان المسلمين، وجرح خمسون مقاتلاً- نقلوا إلى منطقه مخصصه للتمريض والعلاج، حيث سمح لبعض نساء بنى غفار بالحضور إلى خيبر للمساعدة في التمريض والتضميد وتقديم خدمات أخرى في المعسكر. ثمّ جرى فتح حصن القموص وأسرت فيه «صفيه بنت حبي بن أخطب» التي

١ . الأمالى للطوسى: ١٦٤. ويرى ابن هشام في سيرته: ٢/٣٢٨ أنّ خروج النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى خيبر كان في شهر محرم، بينما ذهب ابن سعد في الطبقات: ٢/٧٧ أنّه كان في جمادى الثانيه ٧هـ-ولما كان إرسال الرسل و المندوبين عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في شهر محرم، فإنّ الرأى الثانى هو الأقرب إلى الصحه.

(١٨١)

أصبحت زوجة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما بعد.

ولكن الجوع استولى على المسلمين فاضطروا بسببه إلى تناول ما كره أكله من الأنعام، وكادوا أن يهلكوا، فأمر الرسول ص أن تؤخذ شاتان من غنم اليهود إضطراباً، وأطلق البقيه - من الأغنام - لتدخل الحصن بأمان. وقد سمح النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بذلك للاضطراب الذى يباح معه المحذور بقدره، فدعا ربّه: «اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوه، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاماً». (١)

ثمّ بعث رجالاً معروفين من صحابته لفتح الحصون، إلاّ أنّ شيئاً جديداً لم يتم، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار - أو كزار غير فرار -» (٢) فبات كل واحد يتمنى أن يكون هو صاحب هذا النوط الخالد العظيم. وعندما بلغ الإمام علياً (عليه السلام) مقاله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو في خيمته قال: «اللهم لا- معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت». وفي الصباح طلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً فقبل أن به

رمد، فأتى به إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فمرر يده الشريفة على عينيه ودعا له بخير فعوفى من ساعته، فدفع إليه اللواء ودعا له بالنصر، وأمره أن يبعث إلى اليهود قبل قتالهم، من يدعو رؤساء الحصون إلى الإسلام، فإن أبوا ورفضوا، أمرهم بتسليم أسلحتهم إلى الحكومة الإسلامية ليعيشوا تحت ظلها بحرية وأمان شريطة أن يدفوا (٣) لجزية. وإذا رفضوا قاتلهم. ثم قال ص للإمام على (عليه السلام):

١ . السيرة النبوية: ٢/ ٣٢٢.

٢ . مجمع البيان: ٩/ ١٢٠؛ السيرة الحلبية: ٢/ ٣٧؛ السيرة النبوية: ٢/ ٣٣٤؛ إمتاع الأسماع: ١/ ٣١٤.

٣ . صحيح مسلم: ٥/ ١٩٥؛ صحيح البخاري: ٥/ ١٨١.

(١٨٢)

«لئن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم» (١).

ومن ثم توجه الإمام على (عليه السلام) إلى القلعتين المحصنتين سلاط والوطيح، والتي عجز المسلمون وقوادهم عن فتحهما، فخرج إليه الحارث، أخو مرحب، فقاتله الإمام (عليه السلام) وسقط على الأرض جثته هامدة بضربة من ضربات الإمام (عليه السلام) المشهورة، مما أغضب مرحب أخيه فخرج غارقاً في الدروع والسلاح ليقاقل علياً (عليه السلام) الذي تمكن من شق رأسه نصفين، فكانت ضربة قوية بحيث أفرغت من كان مع مرحب من أبطال اليهود، ففروا لا جئين إلى الحصن. وبقي آخرون منهم قاتلوا علياً منازلته، ففضى عليهم الإمام (عليه السلام) ثم لحق بالفارين إلى الحصن، فضربه أحدهم فطاح ترسه من يده، إلا أن الإمام (عليه السلام) تناول باباً كان على الحصن فانتزعه من مكانه واستخدمه ترساً يحمي نفسه حتى فرغ من القتال. وبعد ذلك حاول ثمانية من أبطال المسلمين، كان منهم أبو رافع مولى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقلبوا ذلك الباب أو يحزروه فلم يقدروا. (٢)

ونقل الشيخ المفيد في إرشاده بسند خاص عن أمير المؤمنين على «عليه السلام» بخصوص الباب، قوله: «لما عالجت باب خيبر جعلته مجاناً لى فقاتلتهم به، فلما أخزاهم الله وضعت الباب على حصنهم طريقاً ثم رميت به فى خندقهم» (٣).

وأما المورخون فقد نقلوا قضايا عجيبة حول قلع باب خيبر و عن بطولات الإمام (عليه السلام) فى فتح الحصن، إلا أن جميعها لا تتمشى ولا تتيسر مع القدرة البشرية المتعارفة، ولا يمكن أن تصدر منها، حتى أن الإمام (عليه السلام)

١ . السيرة الحلبية: ٢/ ٣٧.

٢ . تاريخ الطبرى: ٢/ ٩٤؛ السيرة النبوية: ٢/ ٣٤٩؛ تاريخ الخميس: ٢/ ٤٧.

٣ . إرشاد المفيد: ٦٢.

(١٨٣)

نفسه يرفع كل شك فى هذا بقوله: «ما قلعتها بقوة بشرية، ولكن قلعتها بقوة إلهية، ونفسى بقاء ربها مطمئنة رضية» (١).

وهكذا انتهت الحرب بانتصار المسلمين، الذى كان وراءه ثلاثة عوامل أساسية:

١ . التخطيط العسكرى والحربى الدقيق.

٢ . حصولهم على معلومات وافرة عن العدو وأسراره.

٣ . بطولة الإمام على (عليه السلام).

فقد تمكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من تحييد قبيلة غطفان ومنعها من إمداد المساعدات لليهود، كما تعرف على أحوالهم وأوضاعهم فى حصون خيبر، سواء العسكرية منها أو النفسية للمقاتلين والأفراد. بالإضافة إلى بطولة الإمام على (عليه السلام) الذى قال:

«فلم يبرز إلى أحد منهم إلاقتله، ولا يثبت لى فارس إلا طحنته، ثم شددت عليهم شدة الليث على فريسته حتى أدخلتهم جوف مدينتهم مسدداً عليهم، فاقتلعت باب حصنهم بيدي حتى دخلت عليهم مدينتهم وحدي أقتل من يظهر فيها من رجالها وأسبى من أجد من نسائها، حتى افتتحتها وحدي ولم يكن لى فيها معاون إلا الله وحده» (٢).

ثم أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن تجمع الغنائم كلها فى مكان واحد، وأن ينادى:  
أدوا الخيط والمخيط، فإن الغلول عار وشار ونار يوم القيامة. (٣) فالإسلام يشدد على أهمية الأمانة، حتى اعتبر رد الأمانة مهما صغرت من علائم الإيمان،

١ . بحار الأنوار: ٢١/ ٤٠.

٢ . الخصال: ٣٦٩ باب السبعة.

٣ . وسائل الشيعة: باب جهاد النفس؛ المغازى: ٢/ ٦٨١.

( ١٨٤ )

والخيانة من علائم النفاق.

وفى لحظات الفرح بالانتصار على اليهود، رجعت مجموعة من مسلمى الحبشة المهاجرين إليها بقيادة جعفر بن أبى طالب، فاستقبله النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» وقبل ما بين عينيه وقال: ما أدرى بأيهما أسر، بفتح خبير أم بقدم جعفر. ثم إنه (صلى الله عليه وآله وسلم) علمه الصلاة المعروفة بصلاة جعفر الطيار. (١)

وبالنسبة لقتلى الجانبين، فقد بلغ عدد شهداء المسلمين ٢٠ فرداً، بينما سجل التاريخ أسماء ٩٣ رجلاً هم قتلى اليهود. (٢)  
وبعد ذلك تم الاتفاق بين الطرفين على:

١. قبول النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) لطلب اليهود بأن يسكنهم فى خير كما كان الوضع.

٢. ترك أراضيهم وبساتينهم لهم.

٣. حصول المسلمين على نصف محاصيلها سنوياً.

فالنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يجبرهم على شىء بل تركهم أحراراً فى ممارسة شعائرهم والبقاء على ما كانوا يعتقدونه من أصول دينهم، إذ أنه لم يحارب أهل خيبر إلا عندما تحولت إلى بورة خطيرة للموامرات والكيد للإسلام والمسلمين، فقد أمدوا الكفار والمشركين بكل ما يحتاجون للقضاء على الحكومة الإسلامية الناشئة، مما اضطر معه النبى ص إلى إعلان الحرب عليهم وقتالهم وتجريدهم من السلاح ليعيشوا تحت ظل الدولة الإسلامية، ويدفعوا الجزية لقاء دفاع الحكومة الإسلامية عنهم وحمايتهم من الأعداء، وهو ما يعنى حماية أنفسهم وأموالهم وموئنتهم لهم من قبل المسلمين.

١ . فروع الكافى: ١/ ١٢٩؛ الخصال: ٢/ ٨٢؛ إمتاع الاسماع: ١/ ٣٢٥.

٢ . بحار الأنوار: ٢١/ ٣٢.

( ١٨٥ )

وعند جمع الغنائم حصل المسلمون على قطعة من التوراة طلب اليهود إعادتها، فأمر النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) بإعادتها إليهم، مما يكشف عن احترام النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) للشرائع والأديان الأخرى.

وقد توجه النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد خيبر إلى وادى القرى التى شكلت مركزاً آخر لليهود، ففتحتها وعقد صلحاً مع أهلها على غرار معاهدة خيبر. وبذا فإن الحجاز طهرت من فتنة اليهود، وجردوا من أسلحتهم، ووضعوا تحت حماية المسلمين ومراقبتهم. (١)  
إلا أن بعضهم خطط بعد فترة من الهدوء والاستقرار، للتخلص من النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) فقدمت زينب بنت الحارث شاة

مشوية سَمَّت كتفها التي يحبها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأثر به السم بعد ذلك وتوفى ص من أثره. ولم ينتقم منها النبي بل عفا عنها، فالنبي ص لم يكن كـبعض القادة والزعماء الذين يصبغون الأرض بدماء من ظنَّ أنَّهم قصدوا قتله، أو يملأون السجون بهم، أو يخضعونهم لأشد أنواع العذاب والتعذيب الجسدى والنفسى. ٣. قصة فدك وتبعد فدك عن المدينة بما يقرب من ١٤٠ كم، و هي منطقة زراعية خصبة، اعتبرت نقطة ارتكاز هامة لليهود بعد خيبر. وقد تميّزت العلاقات بين رئيسها يوشع بن نون و القيادة الإسلامية بالسلام والأمان، حيث تعهد بأن يسلم نصف

١. الكامل فى التاريخ: ٢ | ١٥٠.

( ١٨٦ )

محاصيلها سنوياً إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليعيشوا تحت راية الحكومة الإسلامية، على ألا يقوموا بأى أمر يعكس صفو السلام والأمن بين الطرفين، وتتعهد الحكومة الإسلامية فى مقابل ذلك بتوفير الأمن فى المنطقة كلها. (١) ومن الجدير بالذكر أن الأراضى التى يسيطر عليها المسلمون بالحرب والقتال، تعود ملكيتها إلى عامّة المسلمين بإدارة القائد الأعلى للأمة، أما الأراضى التى لا يستخدمون القوة فى احتلالها، فتصبح ملكاً للرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» والإمام من بعده يتصرف فيها كما يشاء، فيهبها أو يوجرها، وعلى هذا الأساس وهب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فدكاً لابنته الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، حيث ابتغى من وراء ذلك تحقيق أمرين:

١. أن يستفيد منها الإمام فى أداء واجباته ومتطلبات الناس عندما يدير الحكم من بعده، إذ أنه سيكون فى حاجة إلى ميزانية كبيرة.
  ٢. وأن تعيش أسرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعده بصورة تليق بمقامه (صلى الله عليه وآله وسلم) وشرفه ومكانته السامية.
- وفى ذلك يذهب معظم العلماء والمفسرين والمحدثين الشيعة وبعض علماء السنة، أنه عند نزول قوله تعالى: (وَأْتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) (٢) أوصى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فدكاً إلى ابنته الزهراء «عليها السلام». ولذلك فقد أعاد المأمون العباسى بعد فترة من هذا الوقت، فدكاً إلى أبناء الزهراء (عليها السلام) بعد توضيح شأن نزول هذه الآية له، كما أن الإمام علياً (عليه السلام) قد صرح بملكيتها لفدك فى إحدى رسائله إلى واليه على البصرة: «عثمان بن حنيف»: «بلى كانت فى أيدينا فدك من كل ما أظلمت السماء فشحت عليها نفوس قوم، و سخت عنها نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله». (٣)

١. السيرة النبوية: ٢ | ٣٥٣؛ إمتاع الاسماع: ١ | ٣٣١؛ فتوح البلدان: ٤٢.

٢. الإسراء: ٢٦.

٣. نهج البلاغة: الكتاب ٤٥.

( ١٨٧ ) فدك بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

عندما حرمت ابنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من ملكها الخاص بعد وفاة أبيها (صلى الله عليه وآله وسلم) عمدت إلى إثبات حقها واسترداد ملكها من جهاز الدولة، عن طريق القانون، فأحضرت الدلائل بالرغم من أنه لا يُطلب من فرد له يد على شىء - أى يكون تحت تصرفه - أن يقيم دليلاً على ملكيته ذلك الشىء. وكان شاهداها: الإمام على (عليه السلام) و أم أيمن التى شهد لها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنها من نساء الجنة (١) إضافة إلى رباح الذى كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أعتقه حسب رواية البلاذرى (٢) إلا أن كل ذلك لم ينفع فى إرجاع الأرض إلى صاحبها.

وفى العصر الأموى وزع معاوية بن ابى سفيان فدكاً بين ثلاثة: مروان بن الحكم، عمرو بن عثمان، و يزيد. وعندما حكم مروان استولى عليها تماماً ووهبها لابنه عبد العزيز الذى سلّمها لولده عمر، الذى أزال أول بدعة وهى إعادة فدك إلى بنى فاطمة (عليها)



السلام) فقد كان الخليفة المعتدل، ولكن حكام بني أمية تداولوها ثانية حتى نهاية دولتهم. أما في العصر العباسي فقد ردها السفاح أبو العباس إلى عبد الله بن الحسن ابن الحسن، ثم قبضها أبو جعفر المنصور من بني الحسن، ثم ردها المهدي ابنه إليهم، حتى جاء المأمون فردّها على أصحابها الشرعيين بصورة رسمية. وقد استغل الأمويون والعباسيون فدكاً استغلالاً سياسياً بجانب الاستفادة الاقتصادية و اضطرب أمرها بين السلب والرد.

١. الإصابة: ٤/٤٣٢.

٢. فتوح البلدان: ٤٤. (١٨٨) ٤. عمرة القضاء (١)

بعد مضي عام و احد على توقيع معاهدة صلح الحديبية، وعلى ضوء المادة التي تسمح للمسلمين بأداء العمرة في العام التالي، فقد قرروا التوجه إلى مكة، وخاصة أنهم كانوا قد تركوها سبعة أعوام بعدوا فيها عن وطنهم. فاستعد ألقان للانضمام إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في أداء العمرة، كان من ضمنهم شخصيات بارزة ملازمة له (صلى الله عليه وآله وسلم) طوال فترة وجوده في المدينة. وكان ذلك يوم الإثنين ٦ من شهر ذي القعدة. كما أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» تحسباً لأي طارى أعد مائتين من الأفراد مسلحين وضعهم خارج مكة على مقربة من الحرم للتدخل في أية مشكلة تصدر حيالهم. وفي مكة خرج الأهالي منها إلى رؤوس الجبال وقالوا: لا ننظر إلى محمد ولا إلى أصحابه، فكانوا يراقبون المشهد من بعيد. وقد بهرت أصوات المسلمين مكبرين كل سكان مكة وسحرت قلوبهم وجلبت عطفهم على المسلمين، مثلما أربح اتحادهم ونظامهم والتفافهم حول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أفتدة المشركين.

وطاف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالبيت على راحلته، وأمر عبد الله بن رواحة أن يردد هذا الدعاء بلحن ونغم خاص: «لا إله إلا الله وحده وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده» فرددها المسلمون وراءه. ثم أمر (صلى الله عليه وآله وسلم) بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة لصلاة الظهر، فانزعجوا بسبب الأذان، وأخرجتهم مضامينه التي كانت ضد ما يحملونه من معتقدات باطله موروثه.

١. سميت عمرة القضاء لأنها كانت بدلاً عن العمرة التي منع النبي والمسلمون عنها في العام السابق لها.

(١٨٩)

وبعد أداء المناسك، ذهب المهاجرون إلى منازلهم التي تركوها منذ سبعة أعوام فجددوا اللقاء بأقربائهم. إلا أن تأثير أوضاع المسلمين في نفوس أهل مكة، وتخوفهم من إحداث انقلاب روي فيهم، إذ أن هذه الرحلة الدينية، اعتبرت دعائية وإعلامية، أثرت في نفوس عدد من أهل مكة فدخلوا الإسلام، ممياً دعا إلى أن يطلب زعماء قريش من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مغادرة مكة بعد انقضاء المدّة المحددة والمقررة بينهم: «إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا». وممن تأثر بالوضع، ميمونة أخت زوجة العباس - أم الفضل - لما شهدت من مشاعر المسلمين، فطلبت الزواج من النبي ص الذي وافقها، فقوى بذلك علاقاته مع قريش، إلا أنهم لم يسمحوا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالاحتفال بمناسبة الزواج في مكة، فطلب (صلى الله عليه وآله وسلم) من أبي رافع أن يحضر زوجته بعد ذلك.

وبدا فقد تحققت روي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل عام من هذا، في أنه دخل البيت وحلق رأسه، ونزلت آية الفتح التي تناولت تحقيق هذا الوعد:

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّوْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا). (١)



١ . الفتح: ٢٧.

( ١٩٠ )

## أحداث السنة الثامنة من الهجرة

أحداث السنة الثامنة من الهجرة ١. معركة مَوْتَة

بعد وقوع الأحداث السابقة، واستقرار الأمن في الحجاز بين المسلمين وقريش والأطراف المعادية الأخرى، وضعف نفوذ اليهود وسطوتهم، فكر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في أن يركز في دعوته على سكان مناطق الحدود عند الشام، فوجه لهذا الغرض «حارث بن عمير الأزدي» يحمل كتاباً إلى أمير الغساسنة: الحارث بن أبي شمر الغساني، الذي حكم بصرى، فقبض على سفير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مَوْتَة وقتله مخالفاً بذلك كل الاعراف الدولية التي تقضى باحترام السفراء وحصانتهم، مما أغضب الرسول والمسلمين، فقرر الاقتصاص من قاتل سفيره.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد بعث في شهر ربيع الأول من هذه السنة ١٥ رجلاً إلى منطقة ذات أطلاح من أرض الشام خلف وادي القرى، لدعوة الناس إلى الإسلام، إلا أن الأهالي قتلوهم عن آخرهم مؤثرين عز الشهادة على ذل الأسر، لإجريباً منهم تمكن من الوصول إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليخبره بالحادث.

وقد أثر هذان الحادثان على الوضع السياسي بين الجانبين، فأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالخروج إلى الجهاد في شهر جمادى، ووجه جيشاً قوامه ٣ آلاف مقاتل لتأديب هؤلاء المخربين والغدره، وعين القائد عليهم «جعفر بن أبي طالب» فإن قتل فزيد ابن حارثه، فإن أصيب، فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب فليرضى المسلمون بينهم رجلاً عليهم.

وقد خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه مع جماعة من أصحابه

( ١٩١ )

مشيئاً لهم وودعهم قائلاً: «دفع الله عنكم وردكم سالمين غانمين صالحين».

ومن المؤكد أن القائد الأول لهذا الجيش كان جعفرًا ثم زيدًا فعبد الله، فلا مجال لتغيير الوضع الذي ذهب إليه بعض الرواة والمحدثين، الذين اختلقوا ترتيباً آخر، بوضع زيد كقائد ثم جعفر كعاون له ثم ابن رواحة، إذ أن وضع هذا الترتيب بهذا الشكل أقر لدوافع سياسية وأغراض أخرى لا مجال لذكرها هنا، وتبعهم في ذلك كتاب السيرة دون تمحيص وتحقيق. (١)

وفي الشام أعد الحاكم الحارث ١٠٠ ألف فارس لإيقاف تقدم المسلمين، كما أعد القيصر ١٠٠ ألف آخرين في اللقاء كقوة احتياطية تتدخل عند اللزوم. (٢)

ومن الواضح أنه لم يكن هناك أيتكافؤ بين الجيشين الإسلامي والروماني، سواء في نوعية المعدات الحربية والأجهزة القتالية أو وسائل النقل أو عدد الجنود، والأرض وساحة المعركة الغريبة عن المسلمين، وقيامهم بدور الهجوم لا الدفاع الذي اتخذته الروم ونفذوه في أرضهم وبلادهم.

وقد تواجه الجيشان في منطقة مشارف، ولكن المسلمين تراجعوا نحو مَوْتَة، فبدأت المبارزات الفردية أولاً، فقتل جعفر بعد مبارزة شجاعه، ثم قتل زيد بن حارثه، وأيضاً ابن رواحة، فاختر الجنود خالد بن الوليد قائداً، فعمد إلى استخدام تكتيك عسكري لم يعرف من قبل، إذ أمر بالعسكر أن يحدث بعض التغييرات في صفوفه بالليل دون صوت، ويذهب عدد منهم إلى مكان بعيد ثم يلتحقوا بالمسلمين عند الصباح مكبرين، فيظن العدو بوصول إمدادات عسكرية بشرية جديدة إلى جانب المسلمين. ولذا تمكن المسلمون من مواجهتهم

١ . السيرة النبوية: ٢ | ٣٨٠.

٢ . المغازي: ٢ | ٧٦٠؛ السيرة النبوية: ٢ | ٣٧٥.

( ١٩٢ )

وقتلهم، وقتل أعداد كبيرة منهم، فهذت الأحوال، فرجع الجيش الإسلامي مستفيداً من هذا التكتيك ونَجوا بأنفسهم من خطر فناء ساحق وأكيد. (١)

إلا أن المسلمين في المدينة رفضوا منطق الانسحاب من المعركة وفضلوا الاستشهاد في ساحة المعارك على الانسحاب، فهم كانوا يعدون الموت والشهادة في سبيل الله أفضل من الانسحاب.

وقد تأثر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لشهادة جعفر وبكى بشدة، فكان كلما تذكر جعفرًا وزيداً بكى. (٢) ٢. غزوة ذات السلاسل إنَّ الأطلّاع المبكر على أسرار العدو العسكرية، ومعرفة حجم طاقاته ومبلغ استعداداته واكتشاف خططه، يعد من العوامل الجوهرية المؤثرة في الانتصار عليه. والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو أول من ابتكر في تاريخ الإسلام جهازاً خاصاً بهذا العمل في صورة منظمة، وتبعه الخلفاء من بعده، حين استعانوا بجواسيس وعيون للعمل في المجالات العسكرية والإدارية.

واستطاع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة ذات السلاسل أن يطفئ نار فتنة باستخدام معلومات دقيقة علمها عن العدو، قبل أن يخسر الكثير بغير ذلك. فقد علم من عناصر المخابرات الخاصة به (صلى الله عليه وآله وسلم) أن أعداداً كبيرة متحالفة تجمعت في منطقة وادي اليابس هدفوا إلى التوجه نحو المدينة للقضاء على قوة الإسلام والمسلمين، وقتل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» والإمام علي (عليه السلام) خاصة. فأمر الرسول ببناء «الصلاة جامعة» أي دعوة الناس إلى الاجتماع به (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال «صلى الله عليه وآله

١ . السيرة النبوية: ٢ | ٣٨١.

٢ . بحار الأنوار: ٢١ | ٥٤؛ المغازي: ٢ | ٧٦٦.

( ١٩٣ )

وسلم»: «يا أيها الناس، إنّهذا هو عدو الله وعدوكم قد عمل على أن يبيّنكم فمن لهم؟».

فخرجت جماعة بقيادة أبي بكر ساروا مسافة حتى واجهوا قبيلة بنى سليم الذين قاوموا القوة الإسلامية، فقرر أبو بكر الانسحاب والرجوع من حيث أتى. إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يقبل بهذا الوضع، فانزعج لعودة الجيش بهذه الصورة المهينة، فأمر عمر بن الخطاب بتولّي القيادة، ولكنّه لم يحارب أيضاً لقوة العدو فانسحب أيضاً إلى المدينة. وطلب عمرو بن العاص من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يبعثه إلى هؤلاء الأعداء على أساس أنه من دهاء العرب، إلا أن بنى سليم قاتلوه فهزموه وقتلوا عدداً من جماعته، فلم يياس النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ونظم جماعة جديدة واختار الإمام علياً (عليه السلام) قائدها، فاستعد الإمام (عليه السلام) وتعصب بعصابه كان يشدها على جبينه في اللحظات الصعبة، ولبس بردين يمانيين، وحمل رمحاً هندياً، ثم توجه نحو الهدف سالكاً طريقاً غير معروفة ولا مطروقة حتى يعمى بذلك على العدو، فتمكن من الانتصار عليهم وذلك للأسباب التالية:

١. لم يشعر العدو بتحركاته، وذلك لتغييره مسيره، واستخدامه أسلوب الكتمان في ذلك، إذ سار ليلاً وكمن نهاراً واستراح خلاله.
٢. كما أنه فاجأ العدو حين صعد بجنوده إلى قمة الجبال ثم انحدر بهم بسرعة فائقة إلى الوادي مركز إقامة بنى سليم، فأحاطوا بهم وهم نيام، وحاصروهم وأسروا منهم، وفر آخرون.
٣. ثم أن شجاعة الإمام علي (عليه السلام) وبسالته النادرة أرعبت العدو، وأفقدته القدرة على المواجهة والمقاومة، حيث فرّوا من أمامه تاركين الغنائم وراءهم.

وبذا فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) استقبله بحفاوة وقال له عندما نزل من فرسه: «إركب فإن الله ورسوله راضيان عنك».

( ١٩٤ )

وكانت تضحية الإمام (عليه السلام) وشجاعته من الأهمية بحيث نزلت فيها سورة العاديات كاملة: (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا\* فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا\* فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا\* فَأَثَرُونَ بِهِ نَقْعًا\* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا). (١)

وهناك عدد من المورخين كالطبرى، نقلوا هذه الواقعة بنحو آخر مختلف عما ذكرناه، فلا- يبعد أن تكون ذات السلاسل اسماً لغزوتين، وقد نقل كل من الفريقين - السنة والشيعة - واحدة منها وأعرض عن الأخرى لأسباب خاصة. (٢) ٣. فتح مكة

أخلت قريش باتفاقية الحديبية ونقضتها، حينما زودت قبيلة بنى بكر بالأسلحة، وهى من كنانة المتحالفه معها، وحرضتهم على أن يبيتوا لخزاعة المتحالفين مع المسلمين فيغيروا عليهم ليلاً، يقتلون فريقاً ويأسرون آخرين. وبلغ النسيما حدث لخزاعة على أيدي بنى بكر، فوعدهم النصره. ولكن قريشاً ندمت على فعلتها من تأليب بنى بكر على خزاعة، واشترآهم معها فى العدوان، فأرسلوا زعيمهم أبا سفيان إلى المدينة لتطيب خاطر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وتسكين غضبه وتأكيد احترام قريش لمعاهدة الصلح، إلا أنه عندما وصل إلى بيت ابنته أم حبيبة زوجة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، لم يجد التقدير والاحترام المطلوب لديها على أساس أنه مشرك نجس، فتوجه إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكلمه حول إمكانية تجديد العهد، فلم يرد عليه وهو ما يعنى عدم اعتناؤه به، فسار إلى بعض أصحابه يطلب منهم أن يشفعوا له عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإقناعه بتجديد ميثاق الصلح، ولكن دون

١. العاديات: ١ - ٥.

٢. تاريخ الطبرى: ٢ | ٣١٥؛ السيرة الحلبية: ٣ | ١٩٠؛ المغازى: ٢ | ٧٦٩.

( ١٩٥ )

جدوى. فذهب إلى منزل الإمام على (عليه السلام) والسيدة فاطمة الزهراء «عليها السلام» فرد عليه الإمام (عليه السلام): «والله لقد عزم رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» على أمر ما نستطيع أن نكلمه». فالتفت إلى السيدة الزهراء «عليها السلام» وهو يطلب شفاعتها أو شفاعته الحسنين لدى النبي ص: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى وبتيتك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت (عليها السلام) وهى تعلم بنواياه الشريرة: «ذلك إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» وإثهما صبيان وليس مثلهما يجير». (١) فطلب النصيحة من الإمام (عليه السلام) فقال له: «ما أجد لك شيئاً أمثل من أن تقوم فتجير بين الناس - أى تعطى الأمان للمسلمين - ثم إلحق بأرضك». فأذى ما طلبه منه، ورجع إلى مكة وأخبر سادة قريش بما صنع، فاجتمعوا للتشاور فيما يطفى غضب المسلمين ويثنى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن عزمه. (٢)

أما النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد أعلن التعبئة العامة بهدف فتح مكة، وتحطيم أقوى قلعة من قلاع الوثنية، وإزالة حكومة قريش الظالمة، التى كانت أقوى الموانع والعقبات فى طريق تقدم الدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام.

وطلب من الله سبحانه و تعالى فى دعائه أن يعمى عيون قريش وجواسيسهم كيلا يعلموا بحركة المسلمين وهدفهم: «اللهم خذ على قريش أبصارهم فلا يرونى إلا بغتة ولا يسمعون بى إلا فجأة». (٣)

واجتمع فى مطلع شهر رمضان الكثيرون، فقد شاركت قبائل وطوائف مختلفه فى هذا الفتح العظيم، اشتهر منهم:

- المهاجرون: ٣+٧٠٠ ألوية إضافة إلى ٣٠٠ من الخيل.

١. إمتاع الأسماع: ١ | ٣٥٩.

٢. المغازى: ٢ | ٧٨٠؛ السيرة النبوية: ٢ | ٣٨٩؛ بحار الأنوار: ٢١ | ١٠٢.

٣ . المغازى: ٢|٧٩٦.

( ١٩٦ )

- الأنصار: ٤٠٠٠+ألوية كثيرة إضافة إلى ٧٠٠ من الخيل.

- قبيلة مزينة: ألف مع مائة فرس، ولواءان.

- قبيلة جهينة: ٨٠٠ مع خمسين فرساً و ٤ ألوية.

- قبيلة بنى كعب: ٥٠٠ مع ثلاثة ألوية.

هذا بالإضافة إلى اشتراك عدد آخر من قبائل غفار وأشجع وبنى سليم.(١)

ويذكر ابن هشام، أن جميع من شهد فتح مكة من المسلمين بلغوا عشرة آلاف، من بنى سليم ٧٠٠، ويقول بعضهم ألف، ومن بنى غفار ٤٠٠، ومن أسلم ٤٠٠، ومن مزينة ألف و ٣٠٠ نفر، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد.(٢)

إلا- أن أخبار هذه الحملة الكبيرة وصلت إلى قريش، فقد أخبر جبرائيل (عليه السلام) النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن أحد المسلمين أرسل كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بتوجههم إلى مكة، وأن امرأة تدعى «سارة» وهي مغنية، تريد توصيل الكتاب لهم لقاء حصولها على مال. وقد ساعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمون هذه المغنية من قبل، عندما تركت عملها في مكة واتجهت إلى المدينة، ورغم ذلك فإنها خانتهم بعملها جاسوسة تعمل لصالح قريش. مما جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يطلب من الإمام على (عليه السلام) والمقداد والزبير أن يلحقوا بها ويدركوها ويصادروا منها الكتاب. وتمكنوا من اللحاق بها عند روضة الخاخ - الخليفة - إلا- أنها أنكرت وجود كتاب لديها في رحلتها، فهددها الإمام (عليه السلام): لتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك. فاستخرجت الكتاب.(٣)

١ . المغازى: ٢|٨٠٠؛ إمتاع الإسماع: ١|٣٦٤.

٢ . السيرة النبوية: ٤|٦٣.

٣ . بين القرآن الكريم ذلك في عدة آيات من سورة الممتحنة.

( ١٩٧ )

وهكذا أعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للحركة الكبرى، دون أن يعلم أحد وجهته على وجه التحديد، وكان ذلك في يوم ١٠ رمضان. وفي الطريق أفطر على الماء وأمر جنده بالاقتراء به: «إنكم مصبحوا عدوكم، والفطر أقوى لكم». إلا أن البعض منهم أمسك عن الإفطار ظناً منهم أن الجهاد أفضل في حالة الصوم، فغضب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لذلك وقال عنهم: «أولئك العصاة».(١)

وفي هذا الوقت، خرج العباس بن عبد المطلب من مكة متوجهاً إلى المدينة ليلتحق بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) خلال الطريق، فهو سيودي دوراً بارزاً هاماً في عملية الفتح العظيم. كما التحق به عدوان له أحجما عن الإيمان برسول الله والاستجابة لدعوته وهما: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقد كانا من أشد المعارضين للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤذين له، بالرغم من أن أبا سفيان هذا كان ابن عم الرسول ص وأخاه من الرضاعة، وعبد الله هو أخو أم سلمة ابنة عاتكة عمّة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). وحوالاً لمقابلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أنه لم يأذن لهما، ولم تنفع الوسائط في ذلك، إلا ما ذكره لهما الإمام على (عليه السلام)، بأن يقولوا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (قالوا تالله لقد آثرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)(٢) فسوف يعفو عنهما كما فعل يوسف (عليه السلام) مع إخوته. وقد حدث ما اقترحه الإمام (عليه السلام) فقبل

إسلامهما.

وحيثما وصل الجيش الإسلامي إلى مشارف مكة، عمد النبي ص إلى إرعاب أهلها وتخويفهم بإشعال النيران فوق الجبال والتلال، وزيادة في التخويف وإظهار القوة، أمر بأن يشعل كل فرد منهم ناراً في شريط طويل على الأرض.  
وهنا أتجه «العباس بن عبد المطلب» ليؤدى دوره العملي لصالح الطرفين،

١ . وسائل الشيعة: ٧/١٢٤؛ السيرة الحلبية: ٣/٩٠؛ المغازي: ٢/٨٠٢.

٢ . يوسف: ٩١.

( ١٩٨ )

فيقنع قريشاً بالتسليم وعدم المقاومة، إذ أخبرهم بقوة المسلمين وعددهم ومحاصرتهم لمكة المكرمة، واصطحب معه أبا سفيان حتى يطلب له الأمان ولهم كذلك من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأجاره عند الوصول إلى معسكر المسلمين، خاصة عندما حاول «عمر بن الخطاب» أن يقضى عليه - أى يقتل أبا سفيان - كما أنه حاول إعادة قتله أمام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على أساس أنه عدو لله فلا بد أن يقتل.

وتحدث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خيمته مع أبي سفيان قائلاً: «ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت و أمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عنى شيئاً بعد. فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟» فقال: أما والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فغضب العباس من عناده وقال: أسلم واشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن يضرب عنقك. فشهد شهادة الحق وأسلم ودخل في عداد المسلمين. فارتفع بذلك أكبر سد، وانزاح أكبر مانع من طريق الدعوة الإسلامية. ومع ذلك فقد أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) العباس بحبسه لأنه لم يأمن جانبه بعد، قبل أن يتم فتح مكة: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل - أى أنفه - حتى تمر به جنود الله فيراها». فطلب العباس من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. فاستجاب له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن». وذلك بالرغم من أخلاق أبي سفيان المنحدرة وأعماله السيئة تجاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين، طيلة السنوات الماضية».

وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد عزم على أن يفتح مكة دون إراقة

( ١٩٩ )

دماء وإزهاق أرواح وتسليم العدو دون شروط. وقد تم ذلك نتيجة التخطيط السليم، وتحييد موقف أبي سفيان العدائي وهوقائد قريش، ولما كانت القطع العسكرية الإسلامية تمر من أمام أبي سفيان، كان العباس يوضح له اسمها وخصوصياتها، فمرت كتيبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال للعباس: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة يا أبا الفضل، والله لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. فرد عليه العباس موبخاً: ويحك يا أبا سفيان، ليس بملك، إنها النبوة.

وحيثما أطلق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا سفيان ليرجع إلى مكة فيخبرهم بما رأى من قوة الجيش الإسلامي، ويحذرهم من مغبة المواجهة والمقاومة، والتسليم للأمر الواقع بإلقاء السلاح والاستسلام دون قيد أو شرط. فصاح في أهل مكة: يا معشر قريش، هذا محمّد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، أو قال: هذا محمّد في عشرة آلاف، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن.

وأضاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى ذلك: ومن دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن. وهو موقع خامس عينه الرسول

(صلى الله عليه وآله وسلم) للتأمين من القتل.

وأدى كل ذلك إلى إضعاف نفوس أهل مكة، حتى القياديين الأعداء، ركنوا إلى المطالبة بالتسليم دون مقاومة. وبالرغم من أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أمر جنوده بعدم بدء القتال، فلا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه أمر بقتل عشرة من الأفراد وإن وجدوا تحت أستار الكعبة وهم:

١. عكرمة بن أبي جهل

٢. هبار بن الأسود

٣. عبد الله بن أبي السرح

(٢٠٠)

٤. قيس بن حبابه الكندي

٥. الحويرث بن نقيند

٦. صفوان بن أمية

٧. وحشى بن حرب، قاتل حمزة

٨. عبد الله بن الزبعرى

٩. حارث بن طلاله

١٠. عبد الله بن خطل

وأربعة نساء. (١)

وكان كل واحد من هؤلاء إما قتل أحداً، أو ارتكب جناية أو شارك في موأمة أو حرب ضد الإسلام والمسلمين. وفي دخول مكة أخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحيطه والحذر، ففرق الجنود، على أن يدخلوها من أسفلها، وآخرون يتخذون طريقاً من أعلاها، وأعداداً أخرى تدخل من جميع المداخل والطرق المؤدية إلى داخل مكة، فدخلت الفرق كلها مكة دون قتال، إلا ما حدث مع جبهة خالد بن الوليد، الذى قابلته مقاومة صغيرة تمكن من السيطرة على الوضع بعد هروب المعتدين. أما النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد دخل مكة من ناحية أذاخر وهى أعلى نقطة فى مكة، فضربت له قبة من آدم بالحجون - عند قبر عمه العظيم أبى طالب - ليستريح فيها، فقد أبى أن ينزل فى بيت من بيوتها. واغتسل بعد الاستراحة، فركب راحلته القصواء متوجهاً إلى المسجد الحرام لزيارة بيت الله المعظم والطواف به على راحلته، حيث لم يترجل، وكبير فكبر المسلمون، حتى

١. السيرة النبوية: ٢/٤١٠؛ تاريخ الخميس: ٢/٩٠.

(٢٠١)

ارتجت مكة لدويصوتهم، فسمعه المشركون الذين تفرقوا فى الجبال ينظرون المشهد المثير. وحينما كان يمر على أى صنم من أصنام المشركين، يقول و هو يشير بقضيب فى يده: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) (١) فيقع الصنم لوجهه، ثم أمر بتحطيم أكبر الأصنام على مرأى من المشركين.

وبعد أخذ استراحة، طلب من عثمان بن طلحة أن يأتيه بمفتاح الكعبة، فقد كان هو سادن الكعبة، حيث كانت السدانة تتوارث جيلاً بعد جيل. وفتح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) باب الكعبة و دخل البيت، و دخل بعده، أسامة بن زيد، و بلال و عثمان. ثم أمر (صلى الله عليه وآله وسلم) بإغلاق الباب، الذى قام خالد بن الوليد بحراسته ومنع الناس عنه.

ولما كانت جدران الكعبة من الداخل مغطاة بصور الأنبياء والملائكة وغيرهم، فإن النبيص أمر بمحوها جميعاً وغسلها بماء زمزم.

وقد اشترك الإمام على (عليه السلام) في كسر بعض الأصنام الموضوعه في الكعبة، وحاول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يصعد على كتفيه، إلا أن ضعف الإمام (عليه السلام) لم يساعده في ذلك، فطلب منه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يصعد - على - على كتفه قائلاً: «يا علي تصعد على منكبى»، فصعد على منكبه، فألقى صنم قريش الأكبر وأصنام أخرى محطمة إلى الأرض. (٢) ثم وقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على باب الكعبة وقال: «الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده». ثم اتجه إلى الناس الذين يشاهدون الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يكسر الأصنام ويحمد الله، فسألهم: «ماذا تقولون وماذا تظنون؟» فقالوا: نقول خيراً ونظن خيراً. أخ كريم وابن

١ . الإسراء: ٨١.

٢ . مسند أحمد بن حنبل: ١/٨٤؛ السيرة الحلبية: ٣/٨٦؛ تاريخ الخميس: ٢/٨٦.

(٢٠٢)

أخ كريم، وقد قدرت. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «فإني أقول لكم كما قال أخى يوسف: (قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (١).

وبهذا أعلن (صلى الله عليه وآله وسلم) العفو العام والشامل عن أهل مكة بقوله: «ألا لبئس جيران النبي كنتم، لقد كذبتكم، وطردتم وأخرجتم وآذيتهم ثم ما رضيتم حتى جئتموني فى بلادى تقاتلوننى، اذهبوا فأنتم الطلقاء». (٢) وكان الوقت ظهراً فحان وقت الصلاة، فصعد بلال سطح الكعبة ورفع نداء التوحيد و الرسالة - الأذان - وبعدها ردمفتاح الكعبة على عثمان بن طلحة وقال له:

«هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء». فالنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» هو أول من يلتزم بالتعليم الإلهي فى أداء الأمانة إلى أهلها، فيعيد مثل تلك الأمانة الكبرى إلى صاحبها. ثم ألغى جميع مناصب الكعبة السائدة فى الجاهلية، إلا ما كان نافعا للناس، كالسدانة، والحجابه - وهى القيام بشؤون أستار الكعبة - و سقاية الحجيج. (٣)

وفى حديث له (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أقاربه، فى اجتماع ضم بنى هاشم و بنى عبد المطلب، أوضح لهم أن صلة القربى التى تربطهم به «صلى الله عليه وآله وسلم» لا - تبرر لأحد منهم أن يتجاهل قوانين الحكومه الإسلامية، فيتخذ من انتسابه إلى زعيمها ذريعته وغطاء لارتكاب ما لا يحل للآخرين.

وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا قد شجب كل تمييز وتفضيل غير صحيح وسليم، داعياً إلى لزوم العدل ومراعاة المساواة بين جميع الطبقات: «يا بنى

١ . يوسف: ٩٢.

٢ . بحار الأنوار: ٢١/١٠٦؛ السيرة الحلبية: ٢/٤١٢.

٣ . بحار الأنوار: ٢١/١٣٢.

(٢٠٣)

هاشم، يا بنى عبد المطلب، إني رسول الله إليكم وإني شفيق عليكم، لا تقولوا أئمة محمدنا، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون، فلا - أعرفكم تأتونى يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم، ويأتى الناس يحملون الآخرة. ألا وإني قد أعذرت فيما بينى و بينكم وفيما بين الله عزوجل وبينكم، وإن لى عملى ولكم عملكم». (١)

ثم دعا إلى اجتماع تاريخى كبير عند بيت الله الحرام، حضره حشد كبير من أهالى مكة، وألقى فيهم خطاباً تاريخياً عالج الأمراض



الاجتماعية الخاصة بالمجتمع العربي في ذلك العصر وحتى عصرنا الحالي، ومن أهم ما ورد وتناوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا الخطاب:

١. التفاخر بالنسب: فقد كان من الأمراض المستحكمة في البيئة العربية الجاهلية، إذ كان من أكبر أمجاد المرء أن ينتسب إلى قبيلة معروفه، أو يتفرع نسبه عن عشيرة بارزة كقريش مثلاً. فأبطل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطابه هذه العادة السيئة بقوله: «أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إنكم من آدم و آدم من طين».

وبذا فإنه (صلى الله عليه وآله وسلم) صنف الشخصية بالتقوى والورع: «ألا إن خير عباد الله عبد اتقاه» فأعطى الفضيلة والمنزلة لأهل التقوى والورع خاصة.

٢. التفاضل بالقومية العربية: فقد اعتبروا الانتساب إلى العرق العربي مفخرة، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن العربية ليست بأب والد، ولكنه لسان ناطق، فمن قصر عمله لم يبلغ به حسبه».

٣. المساواة بين أفراد البشر: فقد دعا إلى دعم المساواة بين الأفراد والجماعات: «إن الناس من آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لا فضل للعربي

١. بحار الأنوار: ٢١ | ١١١.

(٢٠٤)

على العجمي، ولا للأحمر على الأسود، إلا بالتقوى». وبذلك ألغى التمييز العنصري مؤسساً بذلك ميثاق حقوق الإنسان قبل أي جهة عالمية.

٤. الأحقاد والحروب الطويلة: إذ أن الحروب المتلاحقة بين القبائل العربية أدت إلى نشأة الحقد والضغينة، فلم يجد طريقاً للقضاء عليها إلا بالطلب من الناس أن يتنازلوا عما لهم من دماء في أعناق الآخرين، سفكت في عهد الجاهلية، فتعتبر ملفات العهد القديم باطلة. وقال في ذلك «ألا إن كمال ومأثرة ودم في الجاهلية تحت قدمي هاتين».

٥. الأخوة الإسلامية: حيث دعا إلى اتحاد المسلمين ووحدة كلمتهم وحقاً المسلم على أخيه المسلم، فهو من أهم مميزات الدين الإسلامي، وهو بهذا يرغب غير المسلم في اعتناق الإسلام إذا سمع ورأى مثل هذه الحقوق والعلاقات المتبادلة بين المسلمين: «المسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوة، وهم يد واحدة على من سواهم، تتكافؤ دماؤهم ليسعى بدمتهم أذناهم». (١)

وبعد ذلك تفرغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للحكم على بعض المجرمين والمؤذنين، حيث كان هناك عدد من المجرمين المكيين، كان لابد من عقابهم على ما فعلوا من أعمال سيئة، وذلك بالرغم من إصدار العفو العام، وقد طارد الإمام علي (عليه السلام) اثنين منهم لجا إلى بيت أم هانئ أخت الإمام (عليه السلام) التي أجازتهما، ولكن الإمام (عليه السلام) طلب منها أن يعلم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأمانها ليعطى رأيه في جوارها وأمانها كمرأة، فقبل (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك وقال: «قد أجرنا من آجرت، وأمتنا من أمت، فلا يقتلها». (٢)

١. روضة الكافي: ٢٤٦؛ السيرة النبوية: ٢ | ٤١٢؛ مغازي الواقدي: ٢ | ٨٣٦؛ بحار الأنوار: ٢١ | ١٠٥.

٢. الإرشاد: ٧٢.

(٢٠٥)

وهو بهذا وضع قاعدة تقبل جوار المرأة وأمانها. كما أن عبد الله بن أبي السرح الذي ارتد عن الإسلام وأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقتله، نجا من القتل بشفاعته عثمان بن عفان له. وكذلك عكرمة بن أبي جهل الذي فر إلى اليمن، وتشفعت فيه زوجته، فنجا من

القتل. كما أمّن أيضاً كبير المجرمين صفوان بن أمية حينما طلب «عمير بن وهب» من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يعفو عنه، فأمهله أربعة أشهر ليعلم إسلامه بعد التفكير.

وكذلك وضع (صلى الله عليه وآله وسلم) قاعدة مبايعة النساء له (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد بايعة المرأة للمرة الأولى في بيعة العقبة بهذه الكيفية: [حيث أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بإحضار قرح ماء، ثم ألقى في الماء شيئاً من الطيب والعطر فأدخل يده فيه، وتلا الآية التي وردت فيها الأمور المذكورة، ثم نهض من مكانه وقال لهن: من أرادت أن تباع فلتدخل يدها في القرح، فأني لا أصافح النساء]. (١) وقد أجرى البيعة بهذا الأسلوب، لوجود عدد كبير من النساء الفاسدات بينهن، فكان لابد من ذلك حتى لا تستأنف إحداهن عملهن القبيح بعد ذلك في السر. هدم بيوت الأصنام

وللقيام بهذه المهمة الضرورية، أرسل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فرقاً عسكرية إلى ضواحي مكة وداخلها وفي بيوتها لهدم الأصنام المتواجدة فيها، كما أعلن (صلى الله عليه وآله وسلم): «من كان في بيته صنم فليكسره». و أرسل خالد بن الوليد إلى تهامة لدعوة قبيلة جذيمة بن عامر وهدم أصنامهم، ونهاه النبي عن القتل أو إراقة الدماء. إلا أنه لما كانت هذه القبيلة قد قتلت أيام الجاهلية عم خالد

١. في سورة الممتحنة ١٢: (ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف). (٢٠٦)

ووالد عبد الرحمن بن عوف، فإنه حقد عليهم، وأمر بقتل عدد منهم، الأمر الذي أغضب النبي عندما علم بذلك، فأرسل مالا كثيرا مع الإمام علي (عليه السلام) ليدفع دية هؤلاء المقتولين وقال: «اللهم إني أبرأ مما صنع خالد بن الوليد». (١) وارتاح بعد ذلك لما أقدم عليه الإمام علي (عليه السلام) من معاملة طيبة لأهالي المنكوبين وقال: «والله ما يسرنى يا علياً لى بما صنعت حمر النعم، أرضيتنى رضى الله عنك، أنت هادى أمتي». (٢) ٤. معركة حنين

وبعد أن استقر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة مدة خمسة عشر يوماً، غادرها إلى أرض قبيلة هوازن و ثقيف، بعد أن عين معاذ بن جبل ليعلم الناس القرآن وأحكام الإسلام، وعتاب بن أسيد لإدارة الأمور والصلاة بالناس جماعة في مكة المكرمة. وقد بلغ الجيش الذي سار به إلى هوازن: ١٢ ألف مسلحاً، إذ شاركه هذه المرة ألفان من شباب قريش الذين أسلموا بعد الفتح بقيادة أبي سفيان. (٣) إلا أن كل ذلك العدد الكبير لم يساعد في النجاح والانتصار كما ذكر القرآن الكريم: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْيَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) (٤) وقد برز من طرف العدو: مالك بن عوف النصرى الذي عرف بالفروسيه والشجاعة، كما أنه أدار الاتصالات المكثفة بين هوازن و ثقيف، لإخراج خدعة عسكرية توجه منها ضربة إلى جيش

١. السيرة النبوية: ٢ | ٤٢٠؛ الكامل: ١ | ١٧٣؛ إمتاع الأسماع: ١ | ٤٠٠.

٢. مجالس ابن الشيخ: ٣١٨.

٣. طبقات ابن سعد: ٢ | ١٣٩؛ مغازى الواقدي: ٣ | ٨٨٩.

٤. التوبة: ٢٥.

(٢٠٧)

الإسلام، فقد اقترح بوضع الأطفال والنساء والأموال وراء ظهور الرجال حتى يضطروا إلى أن يقاتلوا عنهم، كما أرسلوا الجواسيس

ورجال مخبراتهم للتجسس على المسلمين، مثلما بعث النبيّ جاله إلى ديار الأعداء.

وحسب الوضع والموقع، قرّر مالك بن عوف أن يخفي الجنود خلف الصخور وفوق الجبال لئلا يغتوا المسلمين في الوادي، الذي دخلته أوّل كتيبة، من بني سليم بقيادة خالد بن الوليد فبادرهم العدو وأخذ يرشقهم بالأحجار والنبال ويضربونهم بالسيوف، فوقعوا فيهم ضرباً وقتلاً، ممّا أدّى إلى إصابة المسلمين بالفوضى وبلبله الموقف وخلخله الصفوف فالفرار، الأمر الذي جعل النبيّ «صلى الله عليه وآله وسلم» يأمر العباس بن عبد المطلب بأن ينادى على هؤلاء الفارين والهاربين ويرجعهم، فبلغت صرخاته مسامعهم فثارت حميتهم ونادوا: ليك ليك. وبذا فقد تمكن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) من تنظيم صفوف جيشه من جديد، وحملوا حملة رجل واحد على العدو لغسل ما لحق بهم من عار الفرار، وتمكّنوا من النيل منهم وإجبارهم على الانسحاب من الموقع والفرار من أمامهم وذلك بتشجيع وحماس من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». ممّا كان الأثر الفعال في إلقاء الهزيمة المنكرة بقبيلة هوازن، تاركين وراءهم أموالهم ونساءهم وصبيانهم الذين كانوا قد وضعوهم خلف ظهورهم حسب أوامر وخطه قائدهم.

أمّا النتيجة النهائية للمعركة، فكانت شهادة ثمانية أفراد من المسلمين، وأسر ستة آلاف من العدو، وغنائم كثيرة من الحيوان وأربعة آلاف أوقية فضة. (١)

وأعطى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أوامره بإرسال الغنائم والأسرى إلى الجعرانة - بين مكة والطائف - وبلغ من حنق المسلمين على المشركين في

١. ٤ آلاف أوقية تساوي ٨٥٢ كيلو غرام.

(٢٠٨)

هذه المعركة، أن قتلوا الرجال وذريتهم، فلما بلغ ذلك النبيّ «صلى الله عليه وآله وسلم» قال: «ألا لا تُقتل الذرية». وعندما قيل له: إنّما هم أولاد مشركين. قال «صلى الله عليه وآله وسلم»: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ كلّ نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، وأبواها يهودانها أو ينصرانها». (١) ٥. غزوة الطائف

سكنت قبيلة ثقيف، واشتركوا مع هوازن في قتال المسلمين، وهربوا بعد المعركة السابقة إلى الطائف متحصنين في قلاعها وحصونها، فأمر النبيّ «صلى الله عليه وآله وسلم» بالإعداد لمطاردتهم وملاحقتهم حتى ديارهم. فأرسل فريقاً عسكرياً بقيادة أبي موسى الأشعري لملاحقتهم في أوطاس، فأحرز انتصاراً كبيراً على العدو. وأمّا النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد توجه بجيشه إلى الطائف، حيث هدم حصن مالك بن عوف في طريقه، وسواه بالأرض، حتى لا يستغله العدو فيما بعد.

واشتهرت حصون الطائف وقلاعها بالمنعة وارتفاع الجدران، فتمكّنوا من ردّ المسلمين عن طريق حذفهم ورميهم، الذي أدّى إلى تراجعهم. فاقترح سلمان الفارسي أن يرمى الحصن بالمنجنيق - الذي يأخذ دور الدبابة في الحروب الحديثة - فبدأوا برمي الحصون وأبراجها بالحجارة طوال عشرين يوماً، ممّا أصاب عدداً من المسلمين في هذه الأعمال. (٢)

وممّا يذكر أنّ سلمان الفارسي هو الذي صنع جهاز المنجنيق، وعلم المسلمين كيفية استخدامه، بينما يرى آخرون أنّ المسلمين حصلوا على هذا

١. إمتاع الاسماع: ١/٤٠٩.

٢. السيرة النبوية: ٤/١٢٦ ويرى ابن هشام أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) هو أوّل من استخدم المنجنيق في الجزيرة العربية.

(٢٠٩)

السلاح من يهود خبير، وأن سلمان ربما أدخل عليه تحسينات إضافة أنه علم المسلمين أسلوب استعماله.

كما أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد حصل على بعض الآليات الحربية من خلال ما ترك في حروبه لقبيلة دوس التي استخدمتها في معاركها ضد المسلمين، فاستفاد منها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزو الطائف.

إلا أن نتائج تلك العمليات والآليات لم تأت بنتيجة حاسمة، فاتجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى جانب آخر قد يكون أكبر قوة وأثراً من الجانب العسكري، وهو الناحية النفسية والاقتصادية. إذ أن أرض الطائف كانت زراعية، ذات نخل وأعناب، مما فكر به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لتهديدهم وتخويفهم لأنه سيعمد إلى قطع الأعناب وإفناء المزارع، إذ استمر المعتصمون بالحصون في المقاومة. وعندما لم يرضخوا للتهديد، نفذ المسلمون عملياً أوامر النبي ص بالقطع والحرق والإتلاف، مما أزعج الأهالي وطلبوا من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يأمر رجاله بالكف عن ذلك، فتركوا العمل بهذا التكتيك. وقام بمحاولة أخيرة للتخلص منهم، فنأدى: أي عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر. فنزل عدد منهم ملتحقاً بالمسلمين، وعرف منهم الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بعض الأخبار المرتبطة بالحصن، وأنه لا نية لهم للاستسلام، ولديهم الاستعداد للمقاومة حتى لو طال الحصار عاماً واحداً، فلن يقعوا في أزمة أو ضيق بسبب طول الحصار. ولذا فإن الجيش الإسلامي رأى أنه من الأصلح الرجوع عن ساحة القتال، وذلك للأسباب التالية:

١. مقتل عدد من المسلمين، من قريش والأنصار، كما أن شهر شوال كان قد انتهى وبدأ شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، وللحفاظ على هذه السنة، فقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن ينهي الحصار في أقرب وقت.

(٢١٠)

٢. كما أن موسم الحج كان قد اقترب، وخاصة أن إدارة الموسم ومناسكه أصبحت في يد المسلمين الآن، وليس بيد المشركين كما في السابق.

ولكل ذلك ترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الطائف متوجهاً إلى الجعرانة حيث حفظت الغنائم والأسرى، فاستقر فيها ١٣ يوماً وزرع فيها الغنائم بأسلوب جدير بالدراسة والتأمل: فقد أخلى سبيل بعض الأسرى، وخطط لإخضاع وإسلام مالك بن عوف قائد المعارك ضد المسلمين، وكان من بين المشركين مع هوازن، قبيلة بني سعد التي أرضعت إحدى نساءها - حليمة السعدية - النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكبر بينهم وعاش معهم خمس سنوات، ولذا فإن جماعة مسلمة منهم قدمت إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يطلبون سراح الأسرى من هذه القبيلة، وذكروه بكل حياته بينهم في تلك السنوات. فرد عليهم النبيص محسناً إليهم بأكثر مما قدموا، وتنازل عن نصيبه في الأسرى، فتبعه المهاجرون والأنصار والآخرون، فارجعهم إلى ذويهم. كما أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» دعا أخته شيماء وبسط لها رداءه ورحب بها، ودمعت عيناه، وسألها عن أمه وأبيه من الرضاغة، فأخبرته بموتهما، فقال: إن أحببت فأقيمي عندنا محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت. فاختارت الرجوع إلى أهلها بعد أن أسلمت طوعاً ورضةً، ومنحها ثلاثة عبيد وجارية. (١)

وقد أدت معاملات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه، وإطلاق الأسرى إلى رغبة هوازن في الإسلام، فأسلموا من قلوبهم، ففقدت الطائف آخر حليف لها.

أما بالنسبة لمالك بن عوف فقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فرصة طيبة للسيطرة عليه، وهو رئيس المتمردين، فقال لوفد بني سعد: أخبروا

مالكاً إنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل. وعندما بلغه ذلك، وعلم بقوة الإسلام وأخلاق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعظمته، قرر الالتحاق بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فخرج من الطائف لإدراك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة أو الجعرانة، حين ردّ عليه ماله وأهله وأعطاه الإبل، فأسلم وحسن إسلامه، وجعله قائداً على من أسلم من قومه حارب بهم ثقيف.

وأما الغنائم، فقد قسمها بين المسلمين، ووزع الخمس الذي هو حقه الخاص، بين أشرف قريش حديثي العهد بالإسلام ليتألّفهم، مثل: أبي سفيان ومعاوية ابنه، وحكيم بن حزام، والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو، وحويطب ابن عبد العزى، والعلاء بن جارية، وصفوان بن أمية، وغيرهم ممن كانوا أعداءه بالأمس القريب، لكل واحد منهم مائة بعير. (١) وهذا الفريق يصطلح عليه في الفقه الإسلامي: المولّفة قلوبهم. وهم يشكّلون إحدى مصارف الزكاة بنص القرآن الكريم.

إلا أن بعضهم لم يستحسن أسلوب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في التوزيع، ورأى أنه لم يعدل حين وزع خمس الغنيمه على أبناء قبيلته، ومن أشهرهم:

- ذو الخويصرة التميمي، الذي رفض أسلوب النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ممّا دعا عمر بن الخطاب أن يستأذن النبي ص لقتله. ولكن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قال: دعه فإنه سيكون له شيعه (أى تبع) يتعمّقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية. (٢) وقد أصبح فعلاً زعيماً لفرقة الخوارج في عهد الإمام علي (صلى الله عليه وآله وسلم). كما اشتكى عدد من جانب الأنصار، حول كيفية توزيع الخمس، فخطب

١ . المحبّر: ٤٧٣؛ مغازى الواقدي: ٣/٩٤٤؛ السيرة النبوية: ٣/٤٩٣.

٢ . وجاء في السيرة الحلبية أنه أصل الخوارج.

(٢١٢)

فيهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) موضعاً موقفه من هذا التوزيع في تأليف القلوب: «أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم. والذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمرى من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار». (١)

ثمّ ترحم عليهم قائلاً: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

فأثار بهذه الكلمات مشاعرهم فبكوا بشدة وقالوا: رضينا يا رسول الله حظاً وقسماً. ويكشف ذلك عن عمق حكمه النبي ص وحنكته السياسي، وأسلوب معالجته للمشكلات بروح الصدق واللطف.

وبعد ذلك خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) معتمراً من الجعرانة، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة فوصلها في أواخر ذى القعدة أو أوائل شهر ذى الحجة، مستخلفاً على مكة: عتاب بن أسيد، الذي بلغ من العمر عشرين عاماً، وقُدّر له راتب يومي، درهم واحد، ولما احتج بعضهم على هذا التعيين، قال: «لا- يحتج منكم في مخالفتي بصغر سنه، فليس الأكبر هو الأفضل، بل الأفضل هو الأكبر، وهو الأكبر في موالاتنا وموالاة أوليائنا، ومعاداة أعدائنا، فلذلك جعلناه الأمير عليكم والرئيس عليكم، فمن أطاعه فمرحباً به، ومن خالفه فلا يبعُد الله غيره». (٢)

وأكد بذلك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) معيار الأهلية والجدارة والكفاءة في حيازة المناصب الاجتماعية والأمور الاجتماعية الأخرى.

ومن أحداث هذه السنة أيضاً \_\_\_\_\_:

١ . السيرة النبوية: ٢/٤٩٨؛ مغازى الواقدي: ٣/٩٥٧.

٢ . بحار الأنوار: ٢١ | ١٢٢؛ إمتاع الأسماع: ١ | ٤٣٢.

(٢١٣)

وفاة زينب بنت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي التي كان زوجها ابن خالتها أبي العاص الذي بقي على شركه بعد أن آمنت هي بأبيها، ولكنه آمن في الفترة الأخيرة وأعاد النبي ص إليه زوجته.

كما أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رزق في أواخر هذا العام ولداً سماه إبراهيم من زوجته مارية القبطية، فأهدى المولدة هدية ثمينه، وعق له في اليوم السابع وحلق شعره وتصدق بوزنه فضة في سبيل الله. (١)

١ . تاريخ الخميس: ٢ | ١٣١.

## الفصل التاسع أحداث السنة التاسعة والعاشره و

### إشاره

الفصل التاسع أحداث السنة التاسعة والعاشره و الحاديه عشره من الهجره

### أحداث السنة التاسعة من الهجره

أحداث السنة التاسعة من الهجره

١. عام الوفود

انتهت السنة الثامنة بسقوط أكبر قاعدة من قواعد الوثنية والشرك، في أيدي المسلمين، الذين انتصروا على أعدائهم تماماً، فأخذت القبائل المتمردة تتقرب إليهم تدريجياً، وتوالت وفودها على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تقدم ولاءها وتعلن إسلامها وتتقبل الرسالة المحمدية، مما دعت تلك الكثرة من الأعداد الوافدة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسمى بعام الوفود. (١)

إن دراسة الوفود وما دار بينهم وبين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تفيد بوضوح بأن الإسلام انتشر في الجزيرة العربية عن طريق الدعوة والتبليغ. وتحدث القرآن الكريم في سورة خاصة عن حضور تلك الوفود على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وما حققه الإسلام من فتح وانتصار: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ \* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا \* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا). (٢)

إلا أنه بالرغم من ذلك فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أعد في هذا

١ . سجل المورخ محمد ابن سعد في الطبقات: ١ | ٢٩١، أسماء ٧٣ وفداً قدموا على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) طوال السنة ٩هـ

٢ . سورة النصر.

(٢١٨)

العام عدّة سرايا بعثها إلى جهات معينة، من جملتها سرية الإمام على «عليه السلام» إلى أرض طيء، وقد اختصت لهدم مظاهر الوثنية. كما وقعت غزوة واحدة مثل غزوة تبوك، وإن لم يقاتل فيها النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أحداً، إلا أنها كانت تمهيداً لفتح المناطق الحدودية. ٢. هدم الأصنام

أدرك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في ضوء تعاليم الوحي أن الوثنية كجراثيم الكوليرا، تهدم فضائل الإنسان وشرفه، وتقضى على مكارم الأخلاق، وتحط من مكانة الإنسان الرفيعة، وتجعله كائناً حقيراً أمام الطين والحجر. وعلى هذا الأساس أمره الله تعالى أن



يجتث جذور الشرك من كيان ذلك المجتمع الموبوء، بإزالة كَلْمَظَاهِرِ الوثنية وأنواعها وأشكالها، مستخدماً القوة تجاه الجماعات المعارضة. وعلم (صلى الله عليه وآله وسلم) أن في قبيلة طيء صنماً كبيراً يقدّس حتى ذلك الوقت، فأرسل الإمام علياً (عليه السلام) مع ١٥٠ فارساً ليحطم هذا الصنم ويهدم بيته.

ونجح الإمام (عليه السلام) في مهمته، وعاد بالغنائم والأسرى إلى المدينة، وهرب رئيسها «عدى بن حاتم الطائي» إلى الشام ملتحقاً بأهل دينه، لأنّه كان نصرانياً حسب ما ذكر بنفسه، وترك أخته في قومه. إلا أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أرجعها إلى أخيها بالشام، فأخذت توبخه ممّا صنع من هروبه مع أهله، وتركها وحيدة، ثم طلبت منه أن يذهب إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويعلن إسلامه، فاحترمه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما قدم إليه في المدينة، وقدم له ما يليق به كأمر وسيد على قومه.

ولما شاهد من سيرته وأفعاله ما يدل ويؤكد على أنّه نبي الله، أسلم على

(٢١٩)

يديه (صلى الله عليه وآله وسلم). (١) ٣. غزوة تبوك: وهي قلعة قويّة في طريق حجر والشام.

أعدّ إمبراطور الروم قوّة عسكرية لمهاجمة المسلمين الذين ازدادت قوتهم وأعدادهم وخطرهم على الدولة الرومانية. وتألّفت هذه القوّة من ٤٠ ألف فارس و كانت مجهزة بأحدث الأسلحة والمعدات، وتقدمت إلى منطقة البلقاء، فأمر النبي ص عندها أصحابه بالتهيؤ والاستعداد لغزو الروم، في موسم شديد الحرارة، وجذب وعسرة، إلا أن الدوافع المقدّسة والجهاد في سبيل الله غلب على كلك الأُمور الدنيوية، فشارك ٣٠ ألفاً من المسلمين في هذه الغزوة تحدت نفقاتها من الزكاة من أهل الغنى والثروة. وقد اعتبرت هذه الغزوة خير مَحَكٍّ لمعرفة المجاهدين الصادقين من المنافقين والمبدعين، إذ أن بعضهم تخلف بحجة الخوف من أن يفتتن بالنساء الروميات، وهو عذر صبياني أقبح من الذنب: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (٢).

وكان منهم أيضاً المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام، فبَطَّطُوا الناس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وخوفوهم من قوّة الرومان، و اعتدروا بالحر الشديد: (وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ). (٣)

كما أن مجموعة من الخونة ألفت شبكة جاسوسية في المدينة، تمكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من القضاء عليها بهدم المكان الذي اجتمعت به وحرقة، وهو بيت سويلم اليهودي.

١ . مغازي الواقدي: ٢ | ٩٨٨؛ السيرة النبوية: ٣ | ٥٧٨؛ الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية: ٣٥٢.

٢ . التوبة: ٤٩.

٣ . التوبة: ٨١.

(٢٢٠)

وكذلك تخلف عنهم المخلفون الثلاثة، الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، حينما قالوا بأنهم سيلحقون بركب (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ما يفرغون من الحصاد، فوبّخهم الله تعالى وعاقبهم، ليكونوا عبرة لغيرهم. كما تخلف عن الغزوة ولكن بنية صادقة البكاؤون، وذلك لعدم تمكّنهم من المشاركة في الجهاد، لفقرهم وعدم حصولهم على دواب تحملهم، ولم يستطع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يجهز ذلك لهم فقال: لا- أجد ما أحملكم عليه. كما لم يشارك فيها الإمام علي (عليه السلام) فقد أبقاه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في المدينة، خوفاً من إثارة فتنة أو قيام انقلاب خلال غيابه، بمساعدة القوى المضادة للإسلام. وبالرغم من أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد استخلف على المدينة «محمد بن مسلمة» فإنه قال للإمام علي (عليه السلام): «أنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي و قومي» فكانه تعين كقائد عسكري في المدينة يحفظ الأمن والاستقرار فيها. ولذا فإنّ المنافقين استغلوا ذلك فرصة لنشر الشائعات والأقاويل في عدم اصطحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام علي (عليه السلام) معه في الجيش، ممّا



جعل الإمام (عليه السلام) يسير إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو على بعد ثلاثة أميال من المدينة لیسأله عن هذا الأمر قائلاً: «يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استقلتني وتخفت عني» فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حينئذ كلمته التاريخية الخالدة التي اعتبرت من الأدلة القاطعة على إمامته وخلافته بعده «صلى الله عليه وآله وسلم»: «كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (١) وهكذا فقد استعرض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المعسكر قبل تحرك الجيش، وألقى فيهم خطاباً هاماً لتقوية معنويات المجاهدين، وشرح فيه هدفه من هذه التعبئة العامة الشاملة.

١ . إمتاع الأسماع: ١ | ٤٥٠.

(٢٢١)

وفي الطريق واجه متاعب ومشاق كثيرة، ولذا سمي هذا الجيش بجيش «العسرة»، إلا أن إيمانهم العميق، وحبهم للهدف المقدس، سهّل عليهم الأمر. وعندما مروا بأرض ثمود، غطى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وجهه بثوبه وأمر أصحابه بسرعة السير: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم مثلما أصابهم». كما نهاهم أن يشربوا من مائها ولا يتوضأوا به للصلاة ولا يطبخ به طعام. (١) ولكنهم شربوا عندما وصلوا إلى البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح (عليه السلام) فنزلوا عليها بأمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

كما أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أظهر في الطريق بعض الأمور الغيبية حتى لا يؤثر شك بعضهم في إيمان الآخرين، مثلما جرى لناقته التي ضلت الطريق، وبدأ المنافقون في التقليل من قوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واتصاله بالله سبحانه وتعالى، فأخبرهم بموقعها، بعلم من الله تعالى. وتنبأ عن أبي ذر و ما سيجرى له عندما تأخر عنهم فقال: رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده. (٢)

على كل حال، وصل الجيش في مطلع شهر شعبان إلى أرض تبوك، دون أن يجدوا أثراً لجيش الروم الذي كان قد انسحب إلى داخل بلاده مفضلاً عدم مواجهة المسلمين، ومؤكدين حيادهم تجاه الحوادث والوقائع التي تجرى في الجزيرة العربية. فجمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) القادة و شاورهم في أمر التقدم في أرض العدو، أو العودة إلى العاصمة. فقرروا العودة ليستعيد الجميع نشاطه بعد المشاق والتعب، إضافة إلى أنهم حققوا هدفهم بتخويف العدو وإلقاء الرعب في قلوبهم، فقالوا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «لو أمرت به ما استشرتكم فيه». (٣) فاحترم

١ . السيرة النبوية: ٢ | ٥٢١؛ السيرة الحلبية: ٣ | ١٣٤.

٢ . السيرة النبوية: ٢ | ٥٢١؛ السيرة الحلبية: ٣ | ١٣٤.

٣ . مغازي الواقدي: ٣ | ١٠١٩.

(٢٢٢)

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) آراء هؤلاء وقرر العودة إلى المدينة.

ورأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن الوقت مناسب للاتصال ببعض حكام وروساء المناطق الحدودية، ليعقد معهم معاهدات أمن وعدم إعتداء، ليأمن جانبهم. فاتصل شخصياً بزعماء أيلة وأذرح والجرباء. وعندما قدم يوحنا بن روبة زعيم أيلة، إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قدم له فرساً أبيض وأعلن عن طاعته له (صلى الله عليه وآله وسلم)، فاحترمه (صلى الله عليه وآله وسلم) وصالحه وكساه برداً يمانياً، وقبل أن يدفع جزيه قدرها ٣٠٠ دينار سنوياً على أن يبقى على دينه المسيحي، ووقع الطرفان على كتاب أمان، فضمن بذلك أمن المنطقة الإسلامية شمالاً.

وفى طريق تبوك تقع منطقة دومة الجندل ذات الخضرة والماء، وتبعد عن الشام ٥٠ فرسخاً، وعن المدينة عشرة أميال، حكمها رجلٌ مسيحي هو: أكيدر بن عبد الملك. فأرسل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوة بقيادة خالد بن الوليد لإخضاعه، فتمكن من السيطرة عليهم وإحضار أكيدر إلى الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، فأعلن خضوعه وقبل دفع الجزية والبقاء على دينه، وكتب عهداً وصالحه، وأهداه، ثم أوصله إلى بلده بحراسته خاصة. (١) فانتهت بذلك الأعمال العسكرية فى تبوك.

ويمكن تقييم نتائج تلك العمليات العسكرية كما يأتى:

١. إبراز مكانه وسمعته الجيش الإسلامى فى المناطق الخارجيه، ممّا أثر فى القبائل هناك فتسارعوا بالقدوم والوفود على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد عودته من تبوك، لتعلن خضوعها وطاعتها، حتى سمى ذلك العام بعام الوفود.
٢. ضمان أمن الحدود بعد توقيع المعاهدات والاتفاقيات مع حكام تلك

١. بحار الأنوار: ٢١/٢٤٦؛ طبقات ابن سعد: ٢/١٦٦.

(٢٢٣)

المناطق.

٣. تمهيد الطريق للمسلمين لفتح الشام بعد ذلك، عندما تعلموا منه «صلى الله عليه وآله وسلم» أساليب تكوين وإعداد الجيوش الكبرى لمحاربة القوى العظمى.

٤. تمييز المؤمن عن المنافق.

وبعد أن مكث (صلى الله عليه وآله وسلم) عشرين يوماً فى تبوك، توجه إلى المدينة، إلا أن اثنى عشر منافقاً تأمروا لاغتيال النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قبل أن يصل إلى عاصمته، كان ثمانية منهم من قريش والآخرين من أهل المدينة، وذلك بتنفيذ ناقته فى العقبة - بين المدينة والشام - ليطرحوه فى الوادى، غير أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) علم بمؤامرتهم فأرعبهم بصياحه فيهم، فتركوا العقبة هارين، ورفض (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يرسل من يقضى عليهم أو للحاق بهم. ثم وصل الجيش إلى المدينة فرحين مسرورين معتزين بما حققوه من انتصار على الأعداء، وإلقاء الرعب فى قلب دوله كبيرة، ولما أرادوا التفاخر والتباهى على الذين تخلفوا بعذر وقلوبهم مع جنود الإسلام، فإن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» منعهم من ذلك، لأن التيه الصالحه والفكر الطيب يقوم مقام العمل الصالح الطيب.

ثم أقدم (صلى الله عليه وآله وسلم) على معاقبه الثلاثة الذين تخلفوا عن الجيش بأعذار واهيه وهم: هلال بن أميه، كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، فقد أعرض بوجهه الكريم عنهم، ولم يكثرث بهم حينما قدّموا التهنة بعودتهم مظفرين، وقال فيهم: لا تكلموا أحداً من هؤلاء الثلاثة، ممّا أثر فى التعامل معهم تجارياً، فكسدت بضائعهم، وانقطعت روابطهم مع أقربائهم، فأثر ذلك فى نفسياتهم: (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم). (١)

١. التوبة: ١١٨.

(٢٢٤)

فقاموا بالتوبة إلى الله، فأعلن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عفوهم، ورفع المقاطعة عنهم. (١)

وكانت هذه آخر معركة اشترك فيها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ لم يشارك بعدها فى أيقتال. ٤. مسجد ضرار أصبح أبو عامر والد حنظلة غسيل الملائكة، الذى استشهد فى أحد، من المتعاونين مع المنافقين، الذين خططوا دائماً للتخريب و إفساد أعمال الإسلام، ولذا قرر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اعتقاله فهرب إلى مكة ومنها إلى الطائف ثم إلى الشام، فقاد منها شبكة

تجسسية لصالح المنافقين. وكتب في إحدى رسائله إلى جماعته، يطلب منهم أن يبنوا مسجداً في قباء في مقابل مسجد المسلمين ليتخذوه مركزاً لتخطيط وتنفيذ مؤامراتهم. وكان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد رفض من قبل طلبهم هذا قبل مسيره إلى تبوك، فاستغلوا غيابه فأقاموه. ولما عاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) طلبوا منه أن يودى ركعتين فيه ليسبغوا عليه الصفة الشرعية، إلا أن جبرائيل (عليه السلام) أوحى إليه «صلى الله عليه وآله وسلم» بحقيقته الأمر والنية، وسمّاه مسجد ضرار ووصفه بأنه مركز لايجاد الفرقة والتأمر بين المسلمين: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضَرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاداً لِمُنْحَارِبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ\* لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ). (٢)

١. السيرة الحلبية: ٣/١٦٥.

٢. التوبة: ١٠٧.

(٢٢٥)

مياً دعا الرسول أن يأمر فوراً بتدميره وإحراقه وتسويته بالأرض، فتحول مكانه إلى مزبلة فيما بعد. (١) وكان ذلك ضربة قوية للمنافقين، إذ انتهى حزبهم الخبيث وهلك حاميهما الوحيد عبد الله بن أبي بعد شهرين من غزوة تبوك. ٥. وفد ثقيف وهى من القبائل العنيدة التى تصلبت فى موقفها أمام المسلمين، وخاصة عندما حاصرهم الجيش الإسلامى، فلم يتنازلوا أو يسلموا، إلا أن موقفهم تغير بعد غزوة تبوك التى أشهرت قوة المسلمين، وخوفت عدّة جهات، ممّا دفع عروة بن مسعود الثقفى أحد سادتهم إلى أن يقدم إلى المدينة و يعلن إسلامه على يدى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم يرجع إلى قومه داعياً لهم إلى الإسلام، فرشقوه بالنبال والسهم حتى استشهد.

إلا أن موقفهم المتصلب تغير بعد فترة حينما علموا أنّ مصالحهم التجارية وغيرها معرضة للخطر إذا لم يحسنوا علاقاتهم بالمسلمين، فقررروا التوجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإعلان إسلامهم، فأوفدوا عنهم عبد ياليل مع خمسة رجال للتفاوض مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهناك أمر النبي بكرامهم، وعين «خالد بن سعيد» قائماً بشؤون صيافتهم. وفى المفاوضات التى جرت بين الطرفين، اشترط عليهم الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يهدموا الأصنام فرفضوا أوّل الأمر، ولكنهم أطاعوه بالتالى على أن يقوم أشخاص غرباء - ليسوا من قبيلتهم - بهدمها. كما طلبوا إعفاءهم من الصلاة، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا خير فى دين لا صلاة فيه». ثم وقع

١. السيرة النبوية: ٢/٥٣٠؛ بحار الأنوار: ٢٠/٢٥٣.

(٢٢٦)

الطرفان على شروط المعاهدة التى تمّت بينهما، واختار «صلى الله عليه وآله وسلم» منهم عثمان بن أبى العاص (١) الذى حرص على التفقه فى الدين وتعلم القرآن، فأمره عليهم وجعله نائباً دينياً وسياسياً عنه فى قبيلة ثقيف، وأن يصلى بالناس جماعه، مراعيّاً أضعفهم: «يا عثمان تجاوز فى الصلاة - أى خفف الصلاة وأسرع فيها - وأقدر الناس بأضعفهم، فإنّ فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة». ثم كلف (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا سفيان و المغيرة بن شعبه، للتوجه معهم لهدم الأصنام هناك. (٢) ٦. إعلان البراءة من المشركين فى منى

فى أواخر هذا العام - ٩هـ - نزل جبرائيل (عليه السلام) على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مع عدّة آيات من سورة البراءة، يطلب أن يتلوها رجل يختاره الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فى موسم الحج. وقد تضمنت الآيات رفع الأمان عن المشركين، وإلغاء جميع

العهود - إلا ما التزم بها أصحابها ولم ينقضوها - فيبلغ ذلك إلى رؤوس المشركين ليوضحوا موقفهم تجاه الدولة الإسلامية خلال أربعة أشهر، فإذا لم يتركوا ما هم عليه من شرك ووثنية خلال الأربعة أشهر، نزع عنهم الحصانة ورفع عنهم الأمان. أما الدوافع التي كانت وراء صدور هذا العهد: البراءة:

١. كان التقليد السائد عند العرب جاهلياً أن يعطى زائر الكعبة ثوبه الذي يدخل به مكة إلى فقير، ويطوف بثوب آخر، وإذا لم يكن له ثوب آخر، فإنه يستعيره ليطوف به حول البيت، وإن لم يجد طاف عرياناً بادي السوء، حتى لو كانت امرأة، فإنها تطوف عارية بالبيت على مرأى من الناس، وهو الأمر الذي

١. كان أحدثهم سناً.

٢. السيرة النبوية: ٢/٥٣٧؛ السيرة الحلبية: ٣/٢١٦؛ أسد الغابة: ١/٢١٦.

(٢٢٧)

انطوى على نتائج سيئة.

٢. كما أنه بعد انتشار الإسلام وإظهار قوته في خلال عشرين عاماً، رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يستخدم القوة لضرب كلاً من الوثنية، على أنها نوع من العدوان على الحقوق الإلهية والإنسانية، فكان لابد من استئصال جذور الفساد باستخدام القوة العسكرية كآخر وسيلة.

٣. ثم إن الحج كان أكبر العبادات والشعائر الإسلامية، فكان على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقوم بتعليم المسلمين مناسك الحج على الوجه الصحيح بعيداً عن تأثير أي نوع من الشوائب والزوائد، فكان لابد من اشتراك النبي ص بنفسه في تعليمهم هذه العبادة بصورة عملية، ولكن بشرط أن تخلو منطقة الحرم ونواحيها من المشركين العابدين للأصنام، ليصبح الحرم الإلهي خالصاً للموحدين والعباد الواقعيين.

٤. والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يحارب لفرض العقيدة لئلا تعاقب لا تخضع لأي قهر أو فرض، بل انحصر نضاله في القضاء على مظاهر الاعتقاد بالأوثان، بواسطة هدم بيوت الأصنام.

ولكل ذلك فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اختار أبا بكر بعد أن علمه تلك الآيات من سورة البراءة، ووجه صوب مكة يرافقه أربعون رجلاً ليتلوها على مسامح الناس يوم عيد الأضحى، إلا أن جبرائيل (عليه السلام) أخبره «صلى الله عليه وآله وسلم»: «إنه لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك» مما جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يطلب من الإمام على (عليه السلام) القيام بهذه المهمة: «إلحق أبا بكر فخذ براءة من يده و إمض بها إلى مكة و انبذ بها عهد المشركين إليهم، أى إقرأ على الناس الوافدين إلى منى من شتى أنحاء الجزيرة العربية براءة، بما فيها النقاط الأربع التالية:

(٢٢٨)

١. لا يدخل المسجد مشرك.

٢. لا يطوف بالبيت عريان.

٣. لا يحج بعد هذا العام مشرك.

٤. من كان له عهد عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو له إلى مدته، أى يحترم ميثاقه وماله و نفسه إلى يوم انقضاء العهد، ومن لم يكن له عهد ومدته من المشركين فإلى أربعة أشهر، فإن أخذناه بعد أربعة أشهر قتلناه، ويسرى هذا ابتداء من اليوم العاشر من ذي الحجة. ويعنى هذا أن هذا الفريق من المشركين، عليه أن يحدد موقفه من الدولة الإسلامية، فإمّا الانضمام إليها وترك مظاهر الشرك، و إمّا القتال. (١)

وقد أدرك الإمام (عليه السلام) أبا بكر في الجحفة وأبلغه وأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأعطاه الآيات، ورجع أبو بكر إلى المدينة مستفسراً عن سبب موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخبره بما أمره جبرائيل (عليه السلام). ولم يمض على قراءتها المدّة المعلومة، حتى اعتنق أكثر المشركين الإسلام، فتم بذلك استئصال جذور الوثنية في أواسط السنة ١٠ هـ ويؤكد هذا الموقف على تيّء النبي الكشف عملياً عن أهلية الإمام على (عليه السلام) وصلاحيته للقيام بأمر الدولة في المستقبل.

١. فروع الكافي: ١/٣٢٦.

### أحداث السنة العاشرة من الهجرة

أحداث السنة العاشرة من الهجرة ١. ورود وفد نجران، و المباهلة

تقع نجران على الحدود بين الحجاز و اليمن، واعتنق أهلها المسيحية، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد كتب إلى أسقف نجران أبو حارثة يدعوه إلى الإسلام أو دفع الجزية، أو الحرب بين الطرفين، فتشاور مع رجاله وشخصيات دينية كان من ضمنهم شرحبيل الذي عرف بالعقل والحكمة والتدبير فقال: قد علمتُما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة. ثم اتفقوا على إرسال وفد منهم إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ضمّ ستين شخصاً من أهل العلم بقيادة ثلاثة من أساقفتهم:

- أبو حارثة بن علقمة: أسقف نجران الأعظم والممثل الرسمي للكنائس الرومية في الحجاز.

- عبد المسيح: رئيس الوفد.

- الأيهم: من الشخصيات المقدّرة عندهم. (١)

و حينما وصلوا المدينة ودخلوا المسجد لمقابلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في ملابسهم الخاصة من ديباج وحرير وذهب، والصلبان في أعناقهم، انزعج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لذلك فأخبرهم الإمام على (عليه السلام)

١. السيرة الحلبية: ٣/٢١١.

(٢٣٠)

بأن يضعوا حللهم وخواتيمهم ثم يعودوا إليه، فدخلوا من ثم على النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي أحترمهم وتقبل هداياهم، ثم طلبوا الإذن بالصلاة - أي صلاتهم - فأذن لهم مدلاً بذلك على التسامح الديني الذي تميز به الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) والإسلام.

ثم جرت المفاوضات و المناقشات الدينية بينهم و بين النبي ص وخاصة فيما يرتبط بالسيد المسيح، فأوضح لهم النبي ص ما جاء حوله مفصلاً في القرآن الكريم، و أنه بشر وليس إلهاً ولكنهم لم يرضخوا لمنطق النبي ودلائله فدعاهم إلى المباهلة بعدما نزلت عليه الآيات: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَغْدِمَاجَاءَ كَمَا مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ). (١)

و اتفق الطرفان على إجراء المباهلة في الصحراء خارج المدينة، فاختار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهله أربعة أشخاص فقط هم: الإمام على (عليه السلام) والسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) والإمامان الحسن و الحسين (عليهما السلام) فلم يكن غيرهم أظهر نفساً وأقوى وأعرق إيماناً. وفي الموعد المحدد سار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الموقع بأسلوب مميز، فقد احتضن الإمام الحسين (عليه السلام) وأخذ بيد الإمام الحسن (عليه السلام) وسارت السيدة الزهراء (عليها السلام) خلفه، والإمام على (عليه السلام) خلفها، وهو يقول: إذا دعوت فأمّنوا

وكان زعماء الوفد النجراني قد قرروا أنه إذا خرج النيبأهله فقط، لم يياهلوه فإن ذلك يدل على صدقه وثقته بحاله، فلما شاهدوا ذلك بأنفسهم اندهشوا له، فكيف خرج النيبأهله الوحيدة وأفلاذ كبده المعصومين للمباهلة، فأدركوا أنهواثق من نفسه ومن دعوته، إذ لو لم يكن كذلك لما خاطر بأجائه ولما عرضهم للبلاء السماوى، ولهذا قال أسقف نجران: يا معشر

١ . آل عمران: ٦١.

( ٢٣١ )

النصارى، إنى أرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة. فاتفقوا بذلك على عدم أداء المباهلة، واستعدادهم لدفع الجزية سنوياً للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فى مقابل قيام الدولة الإسلامية بالدفاع عنهم.

وجاء عن السيدة عائشة: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج يوم المباهلة وعليه مرط - كساء - مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة ثم على، ثم قال: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً). (١) ويؤكد الزمخشري، أن ذلك دليل قوى على فضل أصحاب الكساء، وبرهان على صحه نبوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).  
وأما عن وقت حدوث المباهلة، فقد جاء أنه لا خلاف بين المؤرخين بأن كتاب الصلح كتب عام ١٠هـ وفى يوم ٢٥ من شهر ذى الحجة. ويذكر السيد ابن طاووس أنه كان يوم ٢٤ وهو الأصح، بينما رأى فريق آخر أنه كان فى يوم ٢١ أو ٢٧ من الشهر نفسه. (٢)  
وقد جاء عن السيد ابن طاووس قصة المباهلة فى كتاب الإقبال بصورة مفصلة لم ترد فى أى كتاب آخر، مشيراً بأن محتوياته اقتبست من كتابين:

١. كتاب المباهلة لأبى الفضل محمد بن عبد المطلب الشيبانى. (٣)

٢. كتاب عمل ذى الحجة تصنيف الحسن بن إسماعيل بن إشناس. (٤)

١ . الأحزاب: ٣٣.

٢ . الإقبال: ٧٤٣.

٣ . يرى النجاشى أن له فترتين من الحياة، كان فى إحداها موثقاً به، وفى الأخرى لم يكن موثقاً به.

٤ . من مشايخ الطائفة الإمامية، توفى ٤٦٠هـ ونقل أحاديث المباهلة.

( ٢٣٢ )

أما رأينا حول توقيت المباهلة، فإن الدراسة العلمية تثبت أن الواقعة لم تحدث فى شهر ذى الحجة عام ١٠هـ أن الرسول ص كان قد توجه إلى مكة لتعليم مناسك الحج فى هذه السنة، وفى اليوم ١٨ من هذا الشهر - وهو يوم الغدير، نصب علياً (عليه السلام) فى غدير خم (١) خليفة على المسلمين من بعده، ولم تكن حادثة الغدير بالأمر الهين حتى يتابع النبي ص سفره فوراً إلى المدينة، إذ أنه نصب خيمة جلس فيها الإمام على (عليه السلام) ليدخل عليه المهنتون، واستمر ذلك حتى ليلة ١٩ من ذى الحجة، حيث بدأت أمهات المؤمنين فى التهئة عند نهاية المراسيم، فلا يمكن لذلك أن يغادر الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» غدير خم فى يوم ١٩، نظراً لوجود الكثير من الحجاج الذين كانوا يودعون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فى هذه البقعة.

والشواهد التاريخية تؤكد أن النظرية المذكورة فى توقيت المباهلة لا تحظى بالاعتبار الكافى، فلا بد لمعرفة زمن الحادثة التى هى من مسلمات القرآن والتفسير والحديث، تحرى المزيد من التحقيق والدراسة والتقصي. وأما سبب اختيار العلماء للوقت والزمن، فذلك لأن الشيخ الطوسى اختاره استناداً إلى روايات نقلها فى كتابه، مع وجود رجال غير ثقات ضمن سنده.



وتعتبر قصة مباهلة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع وفد نجران من أحداث التاريخ الإسلامي الجميلة و المثيرة، وإن قصر بعض المفسرين والمؤرخين في رواية تفاصيلها وتحليلها، إلا أن عدداً من العلماء كالزمخشري في الكشاف، والإمام الفخر الرازي في تفسيره، وابن الأثير في الكامل، تناولوها بدقائقها. (٢)

١ . تبعد عن الجحفة ميلين، والجحفة على ٦ أميال من البحر الأحمر، وتغرب من رابع الآن، و ٤ أميال من مكة. أما بحساب المقاييس الحديثة فهي تبعد عن مكة ٢٢٠ كم. والميل عبارة عن ٣ آلاف ذراع، والفرسخ يساوي ٩ آلاف ذراع، وقيل إن الميل ٤ آلاف ذراع، والفرسخ ١٢ ألف ذراع. و الميل ثلث الفرسخ، والفرسخ يعادل ٣ أميال.

٢ . الكشاف: ١ | ٣٨٢؛ مفاتيح الغيب للرازي: ٢ | ٤٧١؛ الكامل: ٢ | ١١٢.

( ٢٣٣ )

كما أنها وما نزل فيها من القرآن الكريم تعتبر أكبر فضيلة تدعم موقف الشيعة، في الكشف عن مقام ومكانة من باهل بهم رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» والذين يتخذهم الشيعة أئمة وقادة لهم، فالآية الكريمة اعتبرت الإمام الحسن والحسين «عليهما السلام» أبناء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) هي المرأة الوحيدة التي ترتبط بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعبر عن علي (عليه السلام) بأنفسنا، فكان بحكم هذه الآية بمنزلة نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أى من حيث الصفات النفسية والموهلات الروحية. ٢. وفود القبائل في المدينة

بعد إعلان البراءة من المشركين والوثنيين في موسم حج ٩هـ ارتبكت القبائل فعمدت إلى إيفاء مندوبين عنها إلى عاصمة الإسلام للحوار والتعرف على الدين الجديد والخضوع للدولة الإسلامية. وهو ما يكشف عن أنه في عام ١٠هـ فقد هؤلاء كل حصن يمنعهم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إذ لم تنته الفترة المقررة لإعلان موقفهم - سواء بالرفض أو القبول - بعد أربعة أشهر، إلا وقد دخلت كل مناطق الحجاز تحت راية التوحيد، بالإضافة إلى سكان اليمن والبحرين واليمامة.

وقد بعث (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى اليمن: معاذ بن جبل لينشر دين التوحيد ويشرح لهم التعاليم فأوصاه قائلاً: «يسر ولا تعسر، وبشر ولا تنفر» إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى أن يرسل الإمام علياً (عليه السلام) إلى تلك الجهات ليزيل المشكلات التي تعرقل تقدم الإسلام في تلك الديار. ولكن الإمام (عليه السلام) تواضع في ذلك وقال: يا رسول الله تبعثني وأنا شاب أفضى بينهم ولا أدرى ما القضاء - أى ما فعلته قبل هذا - فضرب الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بيده على صدره وقال: «اللهم اهد قلبه و ثبت لسانه» ثم أوصاه بوصايا أربع هامة قائلاً: «يا على أوصيك : بالدعاء فإن معه الإجابة، وبالشكر فإن معه المزيد،

( ٢٣٤ )

وإياك أن تخفر عهداً أو تعين عليه، وأنهاك عن المكر فإنه لا- يحق المكر السيء إلا بأهله، وأنهاك عن البغي، فإنه من بغي عليه لينصره الله».

وفي اليمن دخلت قبيلة همدان كلها في الإسلام في يوم واحد، حينما قرأ عليهم كتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكتب الإمام (عليه السلام) بذلك إلى النبیفاستبشر وابتهجوخر ساجداً شكراً لله وقال: «السلام على أهل همدان». وعلى أثر إسلام همدان تتابع أهل اليمن على الإسلام. (١)

وقد حاولت جماعة من القبائل اغتيال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد اتفق ثلاثة من أفراد قبيلة بنى عامر المعروفة بالشر و الطغيان أن يدخلوا المدينة على رأس وفد بنى عامر متظاهرين بالتفاوض مع الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» واغتياله غدراً. والثلاثة هم: عامر، أربد، و جبار. وشملت خطتهم أن يتحدث عامر إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الوقت الذي يعد فيه أربد لضربه بالسيف، إلا أن الوضع لم يجر كما حُطَّط له، فقد هاب أربد النبي وانصرف عن نيته، فغضب عامر و هدّد بمحاربة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وآله وسلم» وغادر المجلس بعد أن دعا عليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى صاحبه، فاستجاب الله دعاءه سريعاً حيث مات في



الطريق بمرض الطاعون، واحترق أربد بصاعقة وهو في الصحراء. ٣. حجة الوداع

في عام ١٠ هـ أمر الله تعالى نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يشارك في مراسم الحج، ويعلم مناسكه للناس، ويوقفهم على واجباتهم في هذه العبادة الكبرى عملياً، كما يقوم بإزالة كلما ارتبط بها من زوائد طيلة السنوات

١. الكامل: ٢/٣٠٥؛ بحار الأنوار: ٢١/٣٦٠.

( ٢٣٥ )

الماضية، ويعين حدود عرفات ومنى و يوم الإفاضة منها. ولذلك فقد تهيأ عددٌ كبير من المسلمين لمرافقة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الرحلة المباركة، فخرج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من المدينة يوم ٢٦ من ذي القعدة حتى بلغ ذي الحليفة - قرب مسجد الشجرة - فأحرم ودخل الحرم مليئاً: «لييك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لبيك، لا شريك لك لبيك» وهو نداء إبراهيم (عليه السلام). وكان يكثر التلبية كلما شاهد راكباً أو علا مرتفعاً من الأرض أو هبط وادياً، وعندما شارف مكة قطع التلبية. فدخل مكة في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة متوجهاً نحو المسجد الحرام رأساً، ودخله من باب بنى شيبه وهو يحمد الله ويشن عليه ويصلى على إبراهيم (عليه السلام)، فبدأ من الحجر الأسود فاستلمه أولاً (١) ثم طاف سبعة أشواط حول الكعبة المعظمة، ثم صلى ركعتين خلف مقام إبراهيم (عليه السلام) ثم توجه نحو الصفا والمروة للسعي بينهما، ثم التفت إلى حجاج بيت الله الحرام وقال: «من لم يسق منكم هدياً فليحلو لي جعلها عمرة (أى فليقتصر فيحل له ما حرم عليه الإحرام) ومن ساق منكم هدياً فليقم على إحرامه».

إلا أن البعض منهم كره أن يحل إحرامه والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مُحرم، فأمرهم بتنفيذ ما قال: «لو كنت استقبلت من أمرى ما استدبرت ل فعلت كما أمرتكم». أى أنني لو كنت أعلم بالمستقبل وعرفت موقف الناس المتردد وخلافهم هذا من قبل، لما سقت الهدى، و فعلت ما فعلتموه، ولكن ما العمل وقد سقت الهدى فلا يمكنني الإحلال من الإحرام حتى يبلغ الهدى محله. فمن

١. استلمه يعنى مسح الحجر الأسود باليدين قبل الشروع بالطواف، واستلامه نوع من تجديد الميثاق مع الخليل إبراهيم (عليه السلام) والعمل على نصره عقيدة التوحيد على نحو ما فعل إبراهيم (عليه السلام). وقد اعتمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الفترة المدنية مرتين، واحدة في عام ٧ هـ والأخرى عام ٨ هـ بعد فتح مكة، فهذه كانت ثالث عمرة له مع الحج.

( ٢٣٦ )

الواجب عليان أبقى في إحرامى، أى أنحر هديى بمنى كما أمر الله سبحانه و تعالى، وأما أنتم فمن لم يسق الهدى منكم فإن عليه أن يحل إحرامه، واحسبوا عمرة ثم احرموا للحجزة أخرى.

وقد كره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خلال فترة الحج أن يمكث في دار أحد، ولذا فإنه كان يأمر بضرب - أى بإعداد - خيمة له خارج مكة. وقصد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عرفات في اليوم الثامن من ذي الحجة عن طريق منى التي توقف فيها إلى طلوع الشمس من اليوم التاسع، فركب بعيره نحو عرفات، ونزل في خيمة أعدت له في نمره، وألقى هناك خطاباً تاريخياً هاماً وهو على ناقته، في جموع بلغت ١٠٠ ألف.

وبدأ خطابه قائلاً: «أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم - وأعراضكم - عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا وحرمة بلدكم هذا، وحرمة يومكم هذا». وقد ألقى في هذا الخطاب عادات الثأر الجاهلية المشؤومة بادئاً بأقربائه، مثل الانتقام، والخيانة، أى أداء الأمانة، والربا، كما استوصى بالنساء خيراً.

«وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه. والمسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوة، ولا نبي بعدى ولا أمة بعدكم. ألا كلشيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي.»

ثم سار بعد الغروب إلى المزدلفة، ووقف فيها من الفجر إلى طلوع الشمس، وتوجه في اليوم العاشر إلى منى وأدى مناسكها، ثم توجه نحو مكة لأداء بقية المناسك.

وكان الإمام على (عليه السلام) يومذاك في اليمن، فعلم بتوجه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى مكة، فخرج مع جنوده للمشاركة في الموسم واصطحب

( ٢٣٧ )

معه شيئاً من بز اليمن وحريرها أخذها جزيه من أهل نجران. وبعد أن أدى مناسك العمرة، رجع الإمام (عليه السلام) إلى جنوده حسب ما أمره الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» فوجد أن نائبه الذي عينه أثناء غيابه قد وزع على كل فرد منهم حلة من البز، كان يريد تسليمها إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فطلب منهم ردّها مع الأشياء الأخرى من جزيه أهل نجران. ٤. الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

هل الخلافة منصبٌ تعينى أو انتخابى؟ يرى الشيعة أن القيادة منصب تعينى فيه نصّ، فلا بد أن يتعين خليفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من جانب الله سبحانه و تعالى، بينما يرى أهل السنة أنها منصب انتخابى جمهورى، أى تقوم الأمة هى بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) باختيار فرد منهم يتولّى إدارة البلاد. و لكل من الاتجاهين دلائل ذكرها أصحابها فى الكتب العقائدية.

إن الظروف السائدة فى تلك الفترة حتمت بأن يعين النبي ص خليفة له، وذلك لما كان عليه الوضع من تهديد العدو للدولة الإسلامية، فأوجب مواجهة الأخطار الخارجية بتعيين قائد سياسى يمكنه السيطرة على الوضع، كما أن خطر حزب النفاق كان لا يزال له دوره فى تقويض دعائم الكيان الإسلامى داخلياً، وقد بين دورهم التخريبى وخطرهم الأكيد، القرآن الكريم فى عدّه سور. ولذا فإنه مع وجود تلك الأخطار الخارجية والداخلية، التى كانت تنتهز الفرص للقضاء على الدولة الإسلامية الحديثة، فإنه كان لا بد من تعيين قائد دينى سياسى، يمكنه القضاء على ما يظهر من اختلاف وانشقاق بعده «صلى الله عليه وآله وسلم» فى المجتمع الإسلامى، ويكون بذلك ضماناً لبقائه واستمراريته.

وبالإضافة إلى تلك الأحوال الاجتماعية والسياسية للمسلمين، فإن هناك

( ٢٣٨ )

روايات وأخباراً أكدت صحّة الموقف والرأى الذى ذهب إليه علماء الشيعة، وثبتت فى المصادر المعتمدة، أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نصّ على خليفته مراراً، إذ لم ينص على خليفته ووصيه فى أواخر حياته فحسب، بل بادر إلى ذلك فى بدء الدعوة، وخاصة فى الفترة التى أمره فيها سبحانه وتعالى بأن يندر عشيرته الأقربين ويدعوهم إلى عقيدة التوحيد، حينما وقف خطيباً فى أربعين رجلاً من زعماء بنى هاشم: «أيكم يوازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟» فأحجم القوم وقام على (عليه السلام) وأعلن موازرتة له، فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا». (١) وعُرف هذا الحديث بحديث يوم الدار، وحديث بدء الدعوة.

كما أن حديث الغدير يُعدّ من أهمّ الأحداث والوقائع التى تؤكد صراحة على خلافته (عليه السلام) إذ أنه فى الطريق إلى المدينة، بلغ موكب الحجّ العظيم رابع (٢) حيث نزل جبرائيل (عليه السلام) على رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بمنطقه تدعى غدير خم و بلغه الآية التالية: (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِي مُكْمِنَ النَّاسِ) (٣) وكان ذلك الأمر هو الإعلان عن خلافة الإمام على (عليه السلام) أمام ١٠٠ ألف شاهد.

وقال فى خطابه: «إنى تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً، كتاب الله سبب، طرف بيد الله، وطرف بأيديكم،

فتمسكوا به؛ والآخ عترتي، وإن

١ . تاريخ الطبرى: ٢/٢١٦؛ الكامل فى التاريخ: ٢/٦٢.

٢ . تقع الآن على طريق مكة - المدينة، وتبعد عن الجحفة ثلاثة أميال، والتي هى من مواقيت الإحرام، وتتشعب منها طرق أهل المدينة ومصر والعراق.

٣ . المائة: ٦٧.

( ٢٣٩ )

اللطف الخبير نبأنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا». ثم رفع يد الإمام على (عليه السلام) قائلاً: «يا أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن الله مولى وأنا مولى المؤمنین، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاة فعلى مولاة. (١) اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبه، وابغض من أبغضه، وأدر الحق معه حيث دار».

وفى الحقيقة إننا قلما نجد حادثه تاريخيه حظيت فى العالم فى التاريخ الإسلامى والأمة الإسلاميه بمثل ما حظيت به واقعه الغدير. فقد استقطبت اهتمام فئات مختلفه من المحدثين والمفسرين والفلاسفة والكتّاب والشعراء والأدباء والخطباء وأرباب السير والتراجم، واعتنوا بها أشدّ الاعتناء. و من أسباب خلودها واستمراريتها، نزول آيتين حولها فى القرآن الكريم. (٢) كما أن المسلمين سابقاً والشيعة بصورة خاصة، اتخذوا هذا اليوم عيداً ومناسبةً مفرحةً، جعله خالداً حتى الآن. فقد كان يوم ١٨ من شهر ذى الحجة معروفاً بيوم عيد الغدير عندهم، حتى أن بعض المؤرخين أرخوا به بعض الأحداث، كما أن أبا ریحان البيرونى والثعالبي، اعتبراه من الأعياد الإسلاميه. (٣)

كما أن النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر المهاجرين والأنصار، ونساءه بالدخول على الإمام على (عليه السلام) لتقديم التهنيئه له بهذه الفضيله الكبرى، مثلما ذكر زيد بن أرقم، وأن أول من صافق النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلياً: أبو بكر وعمر و عثمان وطلحة والزبير، وباقي المهاجرين والأنصار

١ . كمر النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه العبارة ثلاث مرات دفعا لآي التباس.

٢ . المائة: ٦٧ و٣.

٣ . وفيات الأعيان: ١/٦٠؛ الآثار الباقية: ٣٩٥؛ ثمار القلوب: ٥١١.

( ٢٤٠ )

والناس.

كما أن ١١٠ صحابياً تناولوا هذه الواقعة التاريخيه الهامه بالروايه والحديث، كما رواه أيضاً ٨٩ تابعياً، و ٣٦٠ شخصاً من علماء أهل الشيعة وفضلائهم، وصححه جمع كبير من الآخرين. فقد رواه فى القرن ٣هـ: ٩٢ عالماً، وفى القرن ٤هـ: ٤٤ عالماً، إلى القرن ١٤ هـ حيث رواه عشرون عالماً. وألف الطبرى فى ذلك كتاباً أسماه: الولاية فى طرق حديث الغدير روى فيه الحديث عن النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» بـ ٥٧ سنداً. كما رواه عدد من علماء الحديث أمثال: ابن حجر العسقلانى، وأبو سعيد السجستانى، والنسائى، وأبو العلاء الهمدانى. وبلغ عدد من ألف رساله خاصه أو كتاباً مستقلاً حول الواقعة و تفاصيلها ٢٦ شخصاً. أما علماء الشيعة فقد تناولوا فيها كتباً و مؤلفات قيمه، أشملها الغدير الذى كتبه العلامة القدير آية الله الشيخ الأمينى. (١)

وبعد نزول الآية السابقه، والإجراءات التى أقدم عليها النبى ص نزلت الآية: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت

لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا). (٢)

فكبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بصوت عال وقال: «الحمد لله على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضى الرب برسالتى، وولاية على بن أبى طالب بعدى». ثم قام حسان ابن ثابت الأنصارى واستأذن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فى أن ينشد أشعاراً بهذه المناسبة \_\_\_\_\_.

١ . يشتمل على ١١ مجلد فى ٦ آلاف صفحة.

٢ . المائة: ٣.

( ٢٤١ ) ٥. المرتدون من المتبئين

فى نهاية عام ١٠هـ قدم نفران من اليمامة وسلما النبيكتاباً من مسيلمه (الكذاب) يدعى فيه النبوة ويُشرك نفسه مع رسول الإسلام فى أمر الرسالة، يريد بذلك أن يعزف الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) بنبوته هذه: فإنى قد أشركت فى الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون. (١) فالتفت النبىالى رسولى المتبى وقال: «أما والله لولا أنالرسول لا تُقتل لضربت أعناقكما لأنكما أسلمتما من قبل و قبلتما برسالتى فلم اتبعتما هذا الأحق وتركتما دينكما؟».

ثم كتب (صلى الله عليه وآله وسلم) إليه كتاباً مقتضباً: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمه الكذاب السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين». (٢)

كما ادعى النبوة فى نفس الوقت، الأسود بن كعب العنسى، فى اليمن، إلا أن الخلفاء من بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تمكنوا من القضاء على تلك الحركات المرتدة، إذ أنها كانت أول أعمال الخلفاء الراشدين. ٦. الأخطار الخارجية وكان خطر الروم أشد الأخطار الخارجية، فاعتبره النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أمراً جدياً لا يمكن التقليل من شأنه، ولذا فإنه أعد جيشاً كبيراً فى سنة

١ . لم يبدأ كتابه باسم الله أو مثل ما كان يفعله المشركون فى العهد الجاهلى.

٢ . السيرة النبوية: ٢ | ٦٠٠.

( ٢٤٢ )

٨هـ) لمحاربتهم، كما سار إلى تبوك فى (سنة ٩هـ) لإظهار قوة المسلمين أمامهم. ثم رأى بعد حجة الوداع أن يعد جيشاً من المهاجرين والأنصار، واشترك فيه أشخاص بارزون فى الدولة أمثال: أبى بكر وعمر وأبى عبيدة و سعد بن أبى وقاص، وكل من هاجر إلى المدينة خاصة، وأمر بقيادته: أسامة بن زيد، وقال له: «سِر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فاغز صباحاً وشن الغارة على أهل أنبى». (١)

وقد أراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بتعيين قائد صغير السن على هذا الجيش الكبير، أن يؤكد أساس الكفاءة الشخصية فى تولي المناصب والمسؤوليات، فهى لا ترتبط بالسن والعمر، بل بالكفاءة والمؤهلات المطلوبة.

ولذا فإنه لم يكن هناك مبررٌ لاعتراض البعض على تولي قيادته من حيث السن وعمر الشباب. (٢)

ذلك أن هؤلاء غفلوا عن المصالح والأهداف التى توخاها الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» من هذا الإجراء، فقدروا كل عمل بعقولهم المحدودة، و قايسوها بمقاييسهم الشخصية، مما أثر ذلك فى تأخير تحرك الجيش من معسكر الجرف (٣)،

والذى استقر به أسامة منتظراً من سيلحق به من المسلمين \_\_\_\_\_.

١ . أنبى، من مناطق اللقاء فى سوريا قرب موة بين عسقلان و الرملة.

٢ . ذهب بعض إلى أنه كان فى عمر ١٧ سنة، و آخرون بأنه كان فى ١٨ سنة، على أنهم اتفقوا على أنه لم يتجاوز العشرين.

٣ . الجرف: على بعد ٣ أميال من المدينة نحو الشام.

( ٢٤٣ ) .٧. مرض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

وبعد يوم من إعداد الجيش السابق، مَرَضَ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بصداع شديد تركه طريح الفراش، وهو المرض الذي قضى فيه «صلى الله عليه وآله وسلم». وقد علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنهناك من تخلف عن الجيش، ومن يعرقل التوجه إلى موقعه، ومن يطعن في قيادة أسامه، فغضب لذلك بشدة وخرج معصياً بآهته إلى مسجده، يحذرهم من عواقب أعمالهم غير السليمة وخاطبهم بقوله:

«لئن طعنتم في إمارتي لأسامه، فقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله كان للإمامة خليفاً، وأن ابنه من بعده لخليق للإمامة، وإنه كان لمن أحب الناس إليّ، واستوصوا به خيراً فإنه من خياركم».

ونظراً لأهمية هذا الجيش، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول و هو في الفراش: «جهّزوا جيش أسامه، لعن الله من تخلف عنه».(١)

وفي الوقت الذي استعد فيه أسامه وآخرون من المهاجرين والأنصار للسير نحو الجرف، انتشر بينهم خبر تدهور صحّة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مما جعلهم يعدلون عن قصدهم حتى يوم الإثنين، إلا أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» حثّه على الخروج قائلاً: «اغد على بركة الله».(٢) فتهيأ الجيش للحرك والمغادرة، إلا أن خبر احتضار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) جعلهم يعودون إلى المدينة متجاهلين أوامر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد ذكر المؤرخون أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج في الليلة التي توفى في صبيحتها، مع الإمام علي (عليه السلام) إلى البقيع مع عدد آخر، فقال

١ . الملل و النحل: ١/٢٣؛ طبقات ابن سعد: ٢/١٩٠.

٢ . طبقات ابن سعد: ٢/١٩٠.

( ٢٤٤ )

لهم: «إني أمرت أن استغفر لأهل البقيع»، و عندما وصل إلى المكان سلّم على أهل القبور قائلاً:

«السّلام عليكم أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً، يتبع آخرها أولها». ثم التفت إلى الإمام علي (عليه السلام) وقال:

«يا علي، إني خيرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها أو الجنة، فاخترت لقاء ربّي والجنة. إن جبرائيل كان يعرض عليّ القرآن كلّ سنة مرّة، وقد عرضه عليّ العام مرّتين، ولا أراه إلاّ لحضور أجلي».(١) ٨. وفاة ابنه إبراهيم

وفي هذه السنة، وبعد ١٨ شهراً من ولادته، توفى إبراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فحزن عليه. و كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و آلهم قد قعد خلال السنوات الماضية، ثلاثة من أولاده: القاسم و الطاهر و الطيب. وثلاثة من بناته: زينب و رقية و أمّ كلثوم. و بقيت له بنت واحدة هي السيّدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من خديجة (عليها السلام).

واعتبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحزن على الميت رحمةً إذ قال: «إنما هذا رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحم، ولكن نُهييت عن خمس الوجوه، وشقّ الجيوب، ورثّة الشيطان».(٢)

١ . بحار الأنوار: ٢٢/٤٦٦؛ طبقات ابن سعد: ٢/٢٠٤.

٢ . السيرة الحلبية: ٣/٣١٠.

( ٢٤٥ )

## أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة

أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة ١. الكتاب الذي لم يكتب

قرر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بهدف الحيلولة دون انحراف مسألة الخلافة عن محورها الأصلي، والحيلولة دون ظهور الاختلاف و الافتراق، أن يعزز مكانة علي (عليه السلام) ويدعم إمارته وخلافته، و أهل بيته، بإثبات ذلك في وثيقة خالدة تضمن بقاء الخلافة في خطها الصحيح.

ففي خلال زيارة بعض الصحابة له أثناء مرضه قال: «إئتوني بدواة وصحيفة، أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده». فبادر عمر قائلاً: إن رسول الله قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله. (١) فكثر اللغط والنقاش حول إحضار ما طلبه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أو عدمه، مما أغضب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: «قوموا عني لا ينبغي عندى التنازع»، وقال ابن عباس: الرزية كلالرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله. (٢)

وقد نقل هذه الواقعة فريق كبير من محدثي الشيعة والسنة ومورخيهم، وتعتبر من الروايات الصحيحة. وإذا سأل أحد عن عدم إصرار النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» على كتابة ذلك الكتاب، فذلك لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا

١. الملل والنحل: ١/ ٢٢.

٢. صحيح البخاري: ١/ ٢٢؛ صحيح مسلم: ٢/ ١٤؛ مسند أحمد: ١/ ٣٢٥.

( ٢٤٦ )

أصر على موقفه، لأصر هولا في الإساءة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وخاصة أنهم قالوا عنه، أنه غلبه الوجع أو هجر، ثم قيامهم بعد ذلك بإشاعة الأمر بين الناس.

وقد روى ابن حجر العسقلاني، أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لأصحابه وقد امتلأت بهم الحجرة وهو في مرضه: «أيها الناس يوشك أن أقبض سريعا فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، إلا أنني مخلف فيكم كتابا لله ربّي عزوجلّ وعترتي أهل بيتي».

ثم أخذ بيد علي (عليه السلام) وقال: «هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، خليفتان نصيران لا- يفترقان حتى يردا عليّ الحوض فاسألهما ماذا خلفت فيهما». (١)

ومن الواضح أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لفت الأنظار إلى حديث الثقلين مرة أخرى، برغم ما ذكره في مواضع متعدّدة، حتى يؤكد أهمية الثقلين، وتدارك ما فات من كتابة الكتاب الذي لم يوفق لكتابته.

وفي هذه اللحظات، طلب بعضاً من الدنانير كان قد وضعها عند إحدى زوجاته، وأمر علياً (عليه السلام) ليتصدق بها.

وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد سقى دواءً خطأً في علاجه، فقد تخيلت «أسماء بنت عميس» أن مرضه - ذات الجنب - تعلمت علاجه من عقار مركب من نبات وأعشاب من الحبشة، إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما علم بالدواء، ذكر بأن مرضه ليس ذات الجنب. ٢. اللحظات الأخيرة

في هذه الفترة الحرجة، كانت السيدة الزهراء (عليها السلام) تلازم فراش

١. الصواعق المحرقة، : ٥٧، باب ٩؛ كشف الغمّة: ٤٣.



( ٢٤٧ )

والدها (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تفارقه لحظة، وفجأة طلب منها أن تقرب رأسها إلى فمه ليحدثها، فراح يكلمها بصوت خفيف لم يُعرف، ولكن الزهراء (عليها السلام) بكت بشدة، إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أشار إليها مرة أخرى فحدثها بشيء آخر، فرحت به وتبسمت مستبشرة. ولم تكشف عن ذلك إلا بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بناء على إصرار عائشة: «أخبرني رسول الله ص أنه قد حضر أجله وأنه يُقبض في وجعه، فبكيت، ثم أخبرني أتى أول أهله لحوقاً به فضحكت». (١)

وفي آخر لحظة من حياته الشريفة طلب الإمام علياً (عليه السلام) قائلاً: «أدعوا لى أخى». فعرف الجميع بأنه يريد علياً (عليه السلام) فدعوا له علياً، فقال له: «أدن منى فدنا منه، فاستند إليه فلم يزل مستنداً إليه يكلمه».

وسأل رجل ابن عباس: هل توفى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فى حجر أحد؟ قال: توفى وهو مستند إلى صدر علي، وهو الذى غسله وأخى الفضل بن عباس.

وقيل إن آخر جملة نطق بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هى: «لا، إلى الرفيق الأعلى». فكأن ملك الموت خيره عند قبض روحه الشريفة فى أن يصح من مرضه أو يلبى دعوة ربه، فاختر اللهاق بربه.

وسأل كعب الأحبار عن آخر كلمة قالها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال الإمام على (عليه السلام): أنه قال: الصلاة الصلاة. وقد ترك الدنيا (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الإثنين ٢٨ صفر، فسجى ببرد يمانى، ووضع فى حجرته بعض الوقت، وارتفعت صرخات العيال، وعلا بكاء الأقارب، وانتشر نأ وفاته فى كل أنحاء المدينة التى تحولت إلى مأتم كبير. وقام الإمام على (عليه السلام) بغسل جسده الشريف وكفنه، إذ أنه كان قد

١. طبقات ابن سعد: ٢/٢٤٣؛ الكامل فى التاريخ: ٢/٢١٩.

( ٢٤٨ )

ذكر: «يغيب لى أقرب الناس لى». وصلى عليه مع المسلمين، وتقرر دفنه فى حجرته المباركة. وحفر قبره أبو عبيدة بن الجراح وزيد بن سهل، ودفنه الإمام على (عليه السلام) يساعده الفضل بن العباس.

ولما فرغ الإمام (عليه السلام) من غسله (صلى الله عليه وآله وسلم) كشف الإزار عن وجهه (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال والدموع تنهمر من عينيه: بأبى أنت و أمى، طبتحياً وطبتميتاً، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممن سواك من النبوة والأنباء. ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع، لأنفدنا عليك ماء الشون، ولكان الداء ماطلاً، والكميد محالفاً وقلاً لك، ولكنه ما لا يملك رده ولا استطاع دفعه! بأبى أنت و أمى أذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك». (١)

وهكذا غربت شمس أعظم شخصية غيرت مسار التاريخ البشرى بتضحياته الكبرى وجهوده المضنية، وأعظم رسولاً الهى فتح أمام الإنسانية صفحات جديدة ومشرقة من الحضارة والمدنية.

ومن هنا فإننا نختم حديثنا هذا بالشكر لله تعالى على هذه النعمة الكبرى، والحمد لله رب العالمين. (٢) جعفر السبحانى قم المقدسة الحوزة العلمية

شعبان المعظم ١٣٩٠هـ

١. نهج البلاغة: خطبة رقم ٢٣٥.

٢. تم تدوين هذه المحاضرات وتوثيقها وتحقيقها فى شهر شعبان المعظم عام ١٤٠٩هـ فى مدينة قم. جعفر الهادى.



## الفصل العاشر

## حكايات وروايات مؤثرة

جاء ذكرها في الكتاب ( ٢٥٠ ) ( ٢٥١ ) العادات و التقاليد في جزيرة العرب قبل الإسلام وأد البنات

متى بدأت عادة وأد البنات؟ وقد تأكد أن بني تميم هي أول قبيلة أقدمت على هذه الجريمة النكراء، حينما امتنعوا عن دفع الضرائب لمالك الحيرة النعمان بن المنذر، فحاربهم واستولى على أموالهم ونسائهم، فكلموه في إرجاع نسائهم، فقرر أن تختار المرأة نفسها العودة أو البقاء، فاختر بعضهم البقاء وعدم العودة إلى أهاليهن، وخاصة بنت قيس بن عاصم الذي نذر أن يدس كل بنت تولد له منذ ذلك الوقت. فسب ذلك لقومه وأد البنات، وأخذتها بقية القبائل.

وقد سأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قيساً عن عدد البنات اللاتي وأدهن في الجاهلية فقال: اثنتا عشرة بنتاً له، بل قيل أكثر من ذلك!!

وروى عن ابن عباس، أن الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت رأسها فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإذا كان ولداً حبسته!! موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الخرافات التي سادت الجزيرة العربية كإفح الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الخرافات والأساطير والأفكار الفاسدة الباطلة، فلما مات إبراهيم ابنه (صلى الله عليه وآله وسلم) حزن عليه و (٢٥٢)

بكي بشدة، في الوقت الذي حدث كسوف للشمس، فذهب المولعون بالخرافات على عادتهم إلى ربط هذه الظاهرة بموت إبراهيم، على أنه دليل على عظمة المصاب، فقالوا: انكسفت الشمس لموت إبراهيم ابن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، إلا أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) صعد المنبر فقال: «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره ومطيعان له لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا انكسفا أو أحدهما صلوا».

ثم نزل فصلي صلاة الكسوف وهي صلاة الآيات. (١) الحالة الاجتماعية في إيران الساسانية

يذكر الشاعر الفارسي: الفردوسي قصة وقعت في العهد الذهبي للدولة الساسانية، تناول التعليم، وخاصة ما يتعلق بتعليم الفقراء و حرمانهم من اكتساب الثقافة، فقد وصل الحال السيء للدولة أن رغبت في أموال كثيرة تكفي نفقات الحروب المستمرة، لإعداد ٣٠٠ ألف مقاتل، فاستدعى الملك أنوشروان وزيره بزرجمهر يطلب مساعدته في توفير المال اللازم، فاقترح عليه بتحصيلها عن طريق القروض الشعبية، فأرسل مندوبيه إلى المدن الإيرانية لتحصيل المال اللازم من التجار وأصحاب الثروة، وظهر من بينهم رجل حذاء أبدى استعداده لتحمل نفقات الجيش بمفرده، بشرط السماح لولده بتحصيل العلم، إلا أن الملك غضب على الوزير ونهره قائلاً: دع هذا، ما أسوأ ما تطلبه، إن هذا لا يكون، لأن ابن الحذاء بخروجه من وضعه الطبقي يهدم التقليد الطبقي المتبع فينفرط عقد الدولة، ويكون ضرراً هذا المال علينا أكثر من نفعه، وشراً أكثر من خيره.

١. بحار الأنوار: ٩١/١٥٥.

( ٢٥٣ )

ويستمر الفردوسي في شرحه لهذا الوضع عن لسان أنوشروان: إذا أصبح ابن الحذاء عالماً وكاتباً، فإنه عندما يجلس ولدنا في الحكم واحتاج إلى كاتب فإنه سيضطر إلى تعيين ذلك الولد، وهو من عامة الشعب ومن أبناء الطبقة الدنيا، في حين جرت العادة أن نستعين بأبناء الأشراف والنبلاء. وإذا حصل هذا الحذاء على العلم والمعرفة حصل على عيون بصيرة، وآذان سميعة، فيرى ما يجب ألا يراه، ويسمع ما يجب ألا يسمعه، فتحدث الحسرة والأسف لأبناء الملوك بعدئذ!!

وبذا فإنَّ الملك رَفَضَ طلبه وأعاد ماله إليه. وهذا الملك هو ما يصفه البعض بالعدل «أنوشروان العادل» مع أنه لم يحل المشكلة الثقافية في مجتمعه، كما ذكر عنه، أنه دفن في القبور أحياء ما يقرب من ٨٠ ألفاً ومائة ألف فرد، خلال فتنه مزدك، التي اندلعت بسبب الظلم الاجتماعي والتمايز الطبقي واحتكار الثروات والمناصب، وحرمان أكثرية الشعب من حقوقها الأولية.

ومن هنا يظهر بطلان الحديث المروى عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: «وُلِدْتُ في زمن الملك العادل أنوشروان».

وقد ذُكر الكثير عن البذخ والترف في البلاط الساساني، من كثرة المجوهرات والأشياء الثمينة والرسوم، سَدَّحت العيون وخبلت الأبواب. ومما اشتهر منها، سجادة بيضاء كبيرة فرشت في إحدى الصالات، واسمها: بهارستان كسرى، إذ اجلسوا عليها وقت الشراب وتعاطى الخمر، فكانت لهم كانوا جالسين في حدائق ورياض. صنعت أرضيتها من الذهب ووشىها بفصوص وجواهر وحرير، وكانت ٦٠\*٦٠ ذراعاً، وقيل ١٥٠\*٧٠ ذراعاً، ومنسوجة من خيوط الذهب والمجوهرات الغالية!!

ومما قيل عن كسرى خسرو برويز، أنه جمع الأموال مالم يجمع مثله من

(٢٥٤)

الملوك، إذ كان أرغب الناس في اقتناء الجواهر واللاكي والأواني. حفر زمزم

نزَّلت عندها قبيلة جرهم التي رأست مكة لسنين طويلة، وتستفيد من مياه العين. إلا أنه بعد تغشى المفسد والشهوات فقد جفَّت العين. وعندما هددت خزاعة جرهم، أمر زعيمهم بإلقاء الغزالين الذهبيين والسيوف الغالية المهداة إلى الكعبة، في مقر زمزم و ملئها بالتراب، حتى لا يستولى عليها خصومهم، ومتى عاد إلى مكة استخراج الكنز واستفاد منه. إلا أن قتالاً نشب بين الطرفين، فاضطرت جرهم وأبناء إسماعيل مغادرة مكة إلى اليمن دون الرجوع إليها ثانية، فتزعم مكة: خزاعة، ثم سيطر عليها قصي بن كلاب، حتى عبد المطلب الذي ترأسها وقرر حفر بئر زمزم، التي لم يُعرف موقعها إلا بعد بحث طويل، كما أننا الآخرين رَفَضُوا انفراده بالحفر، طالبين الاشتراك معه في ذلك، ليحصلوا على الفخر مثله فقالوا: إنَّها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك، إلا أن عبد المطلب أصر على أن ينفرد في ذلك، حتى يمكنه بعد ذلك أن يسئل ماءها فيسقى منها جميع الحجاج دون أن يتاجر بها.

ولما طال النزاع بينهم قرروا التحاكم إلى كاهن من العرب سكن ما بين الحجاز والشام. وفي الطريق أصابهم عطش شديد وأيقنوا بالهلاك، ففكروا في كيفية دفنهم إذا هلكوا وماتوا، فاقترح عبد المطلب أن يحفر كل واحد حفيره، فإذا مات دفنه الآخرون، فلا تبقى أجسادهم طعمه للوحوش والطيور. فقاموا بذلك وانتظروا الموت. إلا أن عبد المطلب صاح فجأة يحثهم على البحث عن الماء في الصحراء بصورة جماعية، ممَّا كان له الأثر في ظهور عين عذبة أنقذتهم من الموت المحقق، فعادوا من حيث جاءوا وقالوا لعبد المطلب:

(٢٥٥)

«والله قضى لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً».

وخلال الحفر عثر على الغزالين والسيوف المرصعة، ممَّا سبب نزاعاً آخر بينه وبين قريش، التي اعتبرت نفسها شريكه في هذا الكنز. فتقرر اللجوء إلى القرعة لحل المشكلة، فخرجت القرعة باسم عبد المطلب، فأصبحت الأشياء إليه، فصنع من السيوف باباً للكعبة، وعلق الغزالين فيها. الوفاء بالعهد والنذر(١)

نذر عبد المطلب إذا رزقه الله عشرة أولاد، أن يقدم أحدهم قرباناً للكعبة دون أن يخبر أحداً بذلك، وقد حصل ما أراد، فكان لا بد من الوفاء بالنذر، فشاور أبناءه بالأمر فوافقوا على أن يختار أحدهم للذبح عن طريق القرعة. وتمت القرعة فأصابت عبد الله والد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخذه إلى مكان الذبح. وحينما علمت قريش بذلك، حزنوا وبكوا وخاصة الشباب منهم، فاقترحوا أن يفدى عبد الله، وأظهروا استعدادهم لدفع الفدية إذا جاز لك. وبعد أن تحير في هذا الموقف الصعب، اقترح عليه أحدهم:

لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنة العرب عسى أن يجد لك حلاً. فوافقوا على ذلك. فتوجهوا نحو يثرب لملاقاة الكاهن الذي سألهم: كم دية المرء عندكم؟ قالوا: عشرة من الإبل. فقال: ارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشراً من الإبل واضربوا عليها وعلى صاحبكم - أي عبد الله -

١. القصة جديرة بالاهتمام، في أنها تجسد مدى إيمان عبد المطلب وقوة عزمه وصلابته إرادته وإصراره على الوفاء بعهده والالتزام به. (٢٥٦)

القداح، فإن خرجت القرعة على صاحبكم فزيدوا عشراً حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل، فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداءً.

فأجروا القرعة في مكة في جماعة من الناس، وزادوا عشراً عشراً حتى إذا بلغ عدد الإبل مائة خرجت القداح على الإبل ونجا عبد الله من الذبح، وفرحوا ونحرت الإبل. (١)

قضايا عجيبة في فترة طفولة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

أرادت حليلة السعدية أن ترضع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حضور أمه، ففتحت جيبها وأخرجت ثديها الأيسر، ووضعت الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» في حجرها لترضعه، فترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثديها الأيسر ومال إلى الثدي الأيمن الذي كان جهاماً - أي خالياً من اللبن و لم يكن يدرّ به - فغيرت الثدي إلى فمه، خوفاً من ألا يجد فيه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» شيئاً فلا يأخذ بعده الأيسر، ولكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أصرّ على مصّ الثدي الأيمن، ولما استلمه امتلاً وانفتح، فأدهش الجميع.

وتذكر حليلة أيضاً تلك البركة التي لحقتها وقومها بسبب النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قائلة: إن البوادي أجذبت وحملنا الجهد على دخول البلد، فدخلت مكة مع نساء بنى سعد، فأخذت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فعرفنا به البركة والزيادة في معاشنا حتى أثرينا وكثرت مواشينا وأموالنا.

وقد احترمها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأجلّها بعد سنوات عندما كبر، وحينما قدمت إليه في سنوات الجذب والقحط تزوره، احترمها وأكرمها

١. نقل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: «أنا ابن الذبيحين». الأول: إسماعيل بن إبراهيم «عليهما السلام»، والثاني: أبوه. بحار الأنوار: ١٢/١٢٣.

(٢٥٧)

وفرش رداءه تحت قدميها، واصغى لها.

ولما شكت حالها وهلاك مواشيها، طلب (صلى الله عليه وآله وسلم) من السيدة خديجة (عليها السلام) أن تعطيهام بعيراً و ٤٠ شاة، فانصرفت مسرورة.

وقيل، أنها جاءت مرة فلما دخلت عليه قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «أمي أمي». (١) رأى قريش في القرآن

كان القرآن من أكبر وأقوى أسلحة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في إخضاع أساتذة الفصاحة والبلاغة أمام حلاوة كلماته وعباراته القوية، فاعترفوا بأن حديثه لم يعرفه البشر من قبل ولم يعهد له التاريخ الإنساني نظيراً. وربما أدت جاذبيته وتأثير حديثه إلى انهيار قوة الأعداء. ومن تلك النماذج:

الوليد بن المغيرة، الذي كانت العرب ترجع إليه في حل مشكلاتهم، فطلبوا رأيه في حل مشكلة قوة انتشار الإسلام، والقرآن، هل هو

سحرٌّ أم كهانةٌ أم حديث إنسان؟ فجاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: أنشدني شعرك. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما هو بشعرٍ ولكنّه كلام الله الذى بعث أنبياءه ورسله». وقرأ عليه سورة «الرحمن» فاستهزأ وقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمى الرحمان. قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا ولكنى أدعوا إلى الله وحده الرحمن الرحيم». ثم افتتح سورة حم السجدة وبلغ إلى قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادِ وَثَمُودَ) فاقشعر جلدُه ، وقامت كلُّ شعرة في رأسه ولحيته، فمضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقال قريش: يا أبا الحكم صبا أبو عبد شمس إلى دين محمد، أما تراه لم

١. وتنسب حلیمه إلى سعد بن بكر بن هوازن. وهى ابنة أبى ذؤيب، وزوجها الحارث بن عبد العزى.

(٢٥٨)

يرجع إلينا وقبل قوله ومضى إلى منزله. فاغتمت قريش وسار إليه أبو جهل قائلاً: يا عمّ نكست رؤسنا وفضحتنا، صبوت إلى دين محمد؟ فقال: ما صبوت وإني على دين قومي وآبائي، ولكنى سمعت كلاماً صعباً تقشع منه الجلود. فقال أبو جهل: أشعر هو؟ - ما هو بشعر.

- فخطب هي؟

- لا وإن الخطب كلام متصل. وهذا الكلام منشورٌ لا يشبه بعضه بعضاً... له حلاوة.

- فما هو؟ قال: قولوا، هو سحر فإنه آخذ بقلوب الناس.

فأنزل الله سبحانه و تعالى فيه: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...). (١)

كما حاول عتبة بن ربيعة وهو من كبراء قريش وأشرفها أن يثنى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الجهر بدينه، فكلمه وطمعه فى المال و الجاه والشرف، فأسمعه (صلى الله عليه وآله وسلم) آياتٍ من سورة فصلت: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: حم \* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ \* وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) (٢)

فسمع وبقي صامتاً حتى انتهى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، فقام إلى أصحابه وقد تغيرت ملامحه، فقال بعضهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به.

فقالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: سمعتُ قولاً واللّه ما سمعتُ مثله قط. واللّه ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها

١. المدثر: ١١-٣٠.

٢. فصلت: ١-٥.

(٢٥٩)

بى واخلوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله هذا الذى سمعت نباً عظيم. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم. وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عركم وكنتم أسعد الناس به.

فانزعجوا وقالوا: سيحرك والله بلسانه. فقال: هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم. لماذا عارضت قريش النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعاندته؟

١. حسدهم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد تمنوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب والمنزلة، إذ جاء فى تفسير قوله تعالى:

(وقالوا لولا- نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم) (١) أنه: الوليد بن المغيرة، الذي قال: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش و سيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيم القريتين.

وكذلك أمية بن أبي الصلت قال نفس الشيء وتمنى أن ينال هذا المقام، فلم يتبع النبيص إلى آخر حياته.

٢. انغماسهم وحبهم للشهوات، حيث كانوا أصحاب لعب ولهو وفسق ومجون، دون أن يفتددهم في ذلك أي أمر، مما جعل دعوة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مخالفة لعاداتهم القديمة.

٣. الخوف من عقوبات اليوم الآخر، إذ كانت تحدث ضجة كبرى في أوساطهم، فيهدم مجالسهم وأنسهم، فحاربوه حتى لا يسمعوا تهديده ووعيده، كآيات:

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعِقَةُ\* يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ\* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ\* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ\*

١. الزخرف: ٣١.

(٢٤٠)

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ). (١)

٤. الخوف من القبائل المشركة، فقد ذكر «الحارث بن نوفل بن عبد مناف» للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنا لنعلم أن قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا، إن تركنا الوثنية التي تدين بها، ويعتبروننا سدنة لأوثانها، ولا طاقة لنا بها. عبس و تولى

رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن إسلام أحد الزعماء وكبار القوم يحل الكثير من المشاكل، مما جعله يصبر على أن يجر الوليد بن المغيرة والد خالد، إلى الإسلام، إذ كان أكبر سناً في قريش، وأكثرهم نفوذاً وشخصية، حيث دعى حكيم العرب. فكلمه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم طامعاً في إسلامه، وفي الأثناء جاء ابن أم مكتوم وهو رجل من المسلمين وكان أعمى يكلم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويستقرئه القرآن، فشق ذلك منه على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى أضجره، لأنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فنزل قوله تعالى: (عَبَسَ تَوَلَّى\* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى...).

إلا أن علماء الشيعة فتدوا هذه الرواية التاريخية واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي امتدحه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وأنه ليس فيه ما يدل أن الذي عبس و تولى هو الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم». وقد روى الإمام الصادق (عليه السلام) أن المراد به رجل من بني أمية عبس و تولى، عندما حضر ابن أم مكتوم الأعمى، عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

١. عبس: ٣٣-٣٧.

(٢٤١)

فتزلت الآيات توبيخاً له. أسطورة الغرائيق

قيل إن الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأميه بن خلف، والعاص ابن وائل، قالوا للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشرك نحن و أنت في الأمر. فأنزل الله تعالى: (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ\* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ). (١) ومع ذلك فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رغب في أن يساوم قريشاً ويجاريهم، فقال في نفسه: ليت نزل في ذلك أمر يقربنا من قريش. وبينما كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلوا القرآن في الكعبة، فبلغ قوله تعالى من سورة النجم: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى\* وَمَنَاةَ

الثالثة الأخرى) (٢) أجرى الشيطان على لسانه الجملتين الآتيتين: «تلك الغرائق العلى منها الشفاعة تُرتجى». فقرأهما من دون اختيار، ثم قرأ بعدها من الآيات. ولما بلغ آية السجدة، سجد هو و من حضر من المسلمين و المشركين أمام الأصنام، إلا الوليد الذى عاقه كبر سته عن السجود، وفرح المشركون وارتفعت صيحاتهم: لقد ذكر محمد آلهتنا بخير. فانتشر الخبر بالتقارب والمصالحة بين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمشركين، ولكنهم عرفوا بأن الأمر تغير ثانية، حيث نزل ملك الوحي على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وأمره بمخالفة الأصنام ومجاهدة الكفار، وأن الشيطان هو الذى أجرى تلك الكلمات على لسانه، فهى ليس من الوحي فى شىء أبداً. فنزلت الآيات فى ذلك من سورة الحج ٥٢-٥٤: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.....).

١. الكافرون: ٢- ٣.

٢. النجم: ١٩ - ٢٠.

(٢٦٢)

هذه الأسطورة نقلها الطبرى فى تاريخه، ورددها المستشرقون، وهى باطله تماماً، فالعقل يحكم بأن المرشدين الذين يبعثهم الله تعالى إلى البشرية، مصونون من أى خطأ وزلل، حتى لا تزول ثقة الناس بهم وبأفكارهم. والقرآن شهد بطلانها أيضاً فكيف تمكن الشيطان من الانتصار على النبى ص وسرّب إلى القرآن شيئاً باطلاً؟ فيصبح القرآن الذى يعادى الوثنية ويحاربها، داعياً إلى عبادتها. والقرآن يؤكّد: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) (١) (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ). (٢) ولذا فإن الحديث باطل لم ينطق به النبى (صلى الله عليه وآله وسلم). لمحات من تضحيات وحبّ أبى طالب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

اجتمع أسياذ قريش وأشرافها فى بيت أبى طالب للتحدّث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذى كان متواجداً معهم، وعن دينه والمشكلات السائدة فى مكة، ومحاولة إبعاد النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) عن دعوته، ولكنهم يسّوا فى الحصول على أية نتيجة مرضية، فتركوا بيت أبى طالب غاضبين مهةدين، وقال عقبه بن أبى معيط: لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن نغتال محمداً. فعُضِب أبو طالب دون أن يرد عليهم بشىء لأنهم كانوا فى بيته. وحدث أن النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج من بيته فى نفس اليوم ولم يعد، فجمع أبو طالب الفتيان من بنى هاشم و بنى المطلب، وطلب منهم أن يتبعوه إلى المسجد، ويجلس كل واحد منهم إلى عظيم من عظمائهم. فجاء زيد بن حارثة وسأله أبو

١. الحجر: ٤٢.

٢. النحل: ٩٩.

(٢٦٣)

طالب: يا زيد أحسست ابن أخى؟ قال: نعم كنت معه آنفاً. فقال أبو طالب: لا أدخل بيتى أبداً حتى أراه. فخرج زيد سريعاً إلى بيت عند الصفا فى النبى «صلى الله عليه وآله وسلم» مع أصحابه وأخبره، فجاء النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أبى طالب، فقال له: أين كنت؟ أكتنفتى خير؟ قال: «نعم». قال: أدخل بيتك.

وفى الغد خرج أبو طالب ومعه النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أنديه قريش وقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا. فقال للفتيان من بنى هاشم و بنى المطلب: إكشفوا عمّا فى أيديكم. فكشفوا فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال: والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن و أنتم. فانكسر القوم، و كان أبو جهل أشدهم انكساراً وخيبة. تخليط النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) العسكرى يوم بدر



يُعتبر الحصول على المعلومات حول العدو، ومعرفة أسرارهِ العسكريه ومدى استعدادته، ومبلغ قوته، ودرجة معنويات أفرادهِ، على أمر من الأهمية والقيمة، عسكرياً، منذ القدم وحتى اليوم. ولذا فإنَّ الجيش الإسلامي استقر في منطقة لاءمت مبادى التستر ومنع أى عمل من شأنه كشف أسرارهِ، كما أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كلف فرقاً مختلفة بتحصيل وجمع المعلومات عن قريش وأفراد جيشها، حتى توفر لدى القيادة الإسلامية من المعلومات، كان أهمها:

- معرفة نقطة تواجد قريش ومكان قاعدتهم. فقد سأل النبي ص بنفسه، وأحد قواده، شيخاً من العرب عن قريش و محمد وأصحابه، فقال: إنَّ محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا، فهم الآن بمكان كذا، وكذلك بالنسبة لقريش.

- معلومات عن أعدادهم وعتادهم، فقد أرسل (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام علياً (عليه السلام) والزبير ابن العوام و سعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر

(٢٦٤)

لالتماس الأخبار، فقبضوا على غلامين وأحضرهما إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الذي سألهما عن قريش، فقالا: هم والله وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «كم القوم وعدتهم؟» فقالا: لا ندري، هم كثير. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): كم ينحرون كل يوم من الإبل؟ قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فقال ص: «القوم فيما بين التسعمائة والألف. فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وأبو البختری بن هشام، وحكيم بن حزام، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأميه بن خلف. فقال «صلى الله عليه وآله وسلم» لأصحابه: «هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها».

- معلومات حول القافلة، حيث كلف (صلى الله عليه وآله وسلم) شخصين بالتوجه إلى قرية بدر لتقصي الحقائق عن قافلة قريش. فسمعا عند الماء جاريتين تقول إحداهما للأخرى: إنَّما تأتي القافلة غداً أو بعد غد، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك. فقال لها مجدى بن عمرو الجهني: صدقت. ثم خلص بينهما.

فعاد الاثنان إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخبراه بما سمعا. فعرف (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك وقت ورود القافلة ومكان تواجدهم، ممَّا مكَّنه من الإعداد والترتيب لملاقاتهم.

وعندما وصل أبو سفيان إلى بدر وسأل مجدى بن عمرو عن محمد ورجاله، أجابه: ما رأيت أحداً أنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثماستقيا ثم انطلقا. فأخذ أبو سفيان من أبعار بعيريهما ففتته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، هذه عيون محمد وأصحابه، ما أرى القوم إلا قريباً.

فرجع إلى أصحابه، واتخذ جهة ساحل البحر الأحمر، مبتعداً عن بدر.

(٢٦٥) من أحداث معركة أحد

### ١. نفقات الحرب

تحمل أسياذ قريش نفقات المعركة، من اقتراح قدمه «صفوان بن أمية» و «عكرمة بن أبي جهل» إلى أبي سفيان بأن يدفع كل واحد منهم مبلغاً من المال قائلين: يا معشر قريش، إنَّ محمدًا قد وتَّرككم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربهِ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منَّا.

وقد أوضح القرآن الكريم موقفهم هذا بقوله: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ). (١)

### ٢. مشاركة النساء في الحرب

فقد شاركت نساء مكة الوثنيات مع الرجال في هذه المعركة على خلاف عادة العرب، وذلك حتى يحرضن الرجال على القتال و





قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى

١. بحار الأنوار: ٢٠ | ١١١.

( ٢٤٨ )

أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيُغْضِبَ شَأْنَهُمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ). (١).

وخلال المعارك، استشهد وهو يطارد أبا سفيان، فقال النبي ص: رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن في صحائف من ذهب. فكان يسمى غسيل الملائكة أو حنظلة الغسيل، ذلك أنه خرج إلى الحرب وهو جنب. وكانت الأوس تعتبره من مفاخرها فتقول: ومنا حنظلة غسيل الملائكة.

أما أبو سفيان فقال: حنظلة بحنظلة. ويقصد حنظلة الغسيل بحنظلة ابنه الذي قتل يوم بدر.

والأمر الغريب هنا، إن العروسين كانا مؤمنين متفانيين في سبيل الحق، في مقابل والدين من أعداء الرسول، فعبد الله بن أبي سلول والد العروس كان على رأس المنافقين، وأبو عامر الفاسق والد العريس، سمي في الجاهلية بالراهب لعدائه الشديد للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والتحق بالمشركين في مكة، وحرص هرقل على ضرب الحكومة الإسلامية، وقتل الكثير من المسلمين في أحد. إلا أنه عندما التقى المعسكران نادى أبو عامر: يا معشر الأوس أنا أبو عامر، فقد تخيل أنهم سيتركون نصره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا شاهدوه، ولكنهم ردوا عليه: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق. فتركهم واعتزل الحرب بعد حين.

\* أمّ عماره

تحدثت النساء إلى الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) بشأن

١. النور: ٦٢.

( ٢٤٩ )

اشتراكهن في الجهاد: يا رسول الله نحن نقوم بكل ما يحتاج إليه الرجال في حياتهم ليجاهدوا ببال فارغ، فلم حُرِّمنا نحن من هذه الفضيلة؟ فأجاب «صلى الله عليه وآله وسلم»: «إِنْحَسِنِ التَّبَعْلَ يَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ. مَشِيْرًا إِلَى الْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْعَضْوِيَّةِ لِلْمَرْأَةِ. إِلَّا أَنْ بَعْضَهُنَّ خَرَجْنَ مِنَ الْمَدِينَةِ لِمُسَاعَدَةِ جُنُودِ الْإِسْلَامِ، فِي السَّقْيِ وَغَسْلِ ثِيَابِهِمْ وَتَضْمِيدِ الْجَرْحِيِّ. وَاشْتَهَرَتْ مِنْهُنَّ فِي أَحَدٍ: أُمُّ عِمَارَةَ نَسِيبَةُ الْمَازَنِيَّةُ: الَّتِي قَاتَلَتْ دِفَاعًا عَنِ الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فَجَرَحَتْ، وَقَالَتْ تَشْرَحُ مَوْقِفَهَا: أَقْبَلَ ابْنُ قَمِيئَةَ وَقَدْ وَلَّى النَّاسُ عَنِ الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) يَصِيحُ: دَلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ لَانْجُوتَ إِنْ نَجَا. فَاعْتَرَضَ لَهُ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ وَآخَرُونَ، وَكُنْتُ فِيهِمْ فَضْرَبَنِي هَذِهِ الضَّرْبَةَ. وَلَقَدْ ضَرَبْتَهُ عَلَى ذَلِكَ عِدَّةَ ضَرْبَاتٍ، وَلَكِنَّهُ احْتَمَى بِدَرْعَيْنِ كَانَا عَلَيْهِ. وَكَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) يَنْظُرُ إِلَيَّ، فَرَأَى جَرْحًا عَلَى عَاتِقِي، فَصَاحَ بِأَحَدِ أَوْلَادِي: «أُمُّكَ أُمُّكَ إِعْصَبَ جَرْحَهَا»، فَعَاوَنَنِي عَلَيْهِ.

وعندما رأت ابنتها وقد جرح أقبلت إليه ومعها عصائب أعدتها للجراح فربطت جرحه، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ينظر، فقالت لولدها: انهض يا بني فضارب القوم. مما أعجب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) باستقامتها وثباتها وإيمانها فقال: «ومن يطيق ما تطيقين يا أمّ عماره».

وفي هذه الأثناء أقبل الرجل الذي ضرب ولدها فقال النبي ص هذا ضارب ابنك. فحملت عليه كالأسد وضربت ساقه فبرك. مما ازداد من إعجاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشجاعته وبسالته فتبسم وقال: «استقدت يا أمّ عماره، الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك».

وبعد المعركة طلبت الانضمام إلى جيش المسلمين الذي سار إلى حمراء الأسد، ولكن جراحها منعتها من تأدية الغرض، وبعد رجوع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» سأل عنها فسّر لسلامتها. ( ٢٧٠ ) من أحداث غزوة تبوك ١. قصة مالك بن قيس أبو خيثمة: رجع إلى أهله في يوم حار فوجد أن المسلمين قد غادروا مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى تبوك، فدخل عريشاً له، ووجد أن زوجته قد جهّزتاً كلّمها يحتاج إليه من طعام وماء، فنظر إليهما وفكّر ما فيه الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» وأصحابه من حال سيء، في أشد الحرارة وهم قاصدون جهاد العدو، فقال: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الشمس والحر والريح، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء في ماله مقيم؟ ما هذا بالانصف. لا- أدخل عريش واحدة منكمما حتى ألحق بالرسول والمجاهدين. فخرج طالباً الرسول لخص فأدرکه حين نزل تبوك. ٢. تنبؤات الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما وصل جيش الإسلام إلى أرض ثمود وهم في الطريق إلى تبوك، غطى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وجهه بثوبه واستحث راحلته، ليسرع في المرور على بيوتهم وأطلالهم، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم». كما أنه نهى عن شرب مائها أو التوضؤ به للصلاة أو الطبخ. حتى شربوا من البئر التي شربت منها ناقة صالح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي تلك الليلة أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أصحابه بأن يعقلوا آبالهم، ولا يخرج منهم أحد لوحده بل يخرج مع صاحبه، وذلك لمعرفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأسرار الجو في تلك البقاع. ولما خرج أحدهم فريداً فاخنت لشدّة الرياح، واحتملت رجلاً آخر فضربت به الجبل، انزعج ص وقال: «ألم أنهمكم أن لا يخرج منكم أحد إلاّ معه صاحبه». ( ٢٧١ )

وأصبح الناس دون ماء فعطشوا حتى كاد أن يقطع رقابهم، لدرجة أنهم شربوا الماء من كروش إبلهم بعد نحرها. فأرسل الله سبحانه وتعالى سحابة أمطرت فارتوى الناس.

وحدث أن ضلّت ناقة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ببعض الطريق، فخرج أصحابه في طلبها، فقال أحد المنافقين: أليس محمّد يزعم أنه نبيّ يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته؟ فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «إن رجلاً قال: هذا محمّد يخبركم أنه نبيّ يزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلاّ ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا، وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى أتوني بها». فذهب بعض الصحابة وأحضرها.

كما تتبأ (صلى الله عليه وآله وسلم) ب حياة أبي ذر و كيفية موته فقال: «رحم الله أبا ذر يمشی وحده ويموت وحده ويبعث وحده». وقد تحققت نبوءة «صلى الله عليه وآله وسلم» بعد ٢٣ عاماً حينما نفى إلى الربذة في الشام، وتوفى هناك وحيداً إلاّ من أهله. مأساة الدعاء والمبلغين

كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يبعث بمجموعات من المبلغين والدعاة إلى القبائل داعياً لهم إلى التوحيد وإلى الدين الإسلامي، وقد تألّف هؤلاء من قرآء القرآن الكريم والعارفين بالأحكام الإسلامية والتعاليم النبوية، أبدوا استعداداً تاماً لأداء مهامهم الصعبة حتى لو كلفت حياتهم.

ومن القبائل التي تقدمت إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تطلب إرسال

( ٢٧٢ )

عدد من هؤلاء الدعاء: قبيلتا عضل والقارة: «إنّ فينا إسلاماً فاشياً، فابعث معنا نفرًا من أصحابنا يُقرئونا القرآن ويفقهوننا في الإسلام»، فتكونت جماعة منهم بقيادة: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، ساروا حتى وصلوا ماء الرجيع التي تقطن عنده قبيلة هذيل، فكشفوا عن نواياهم الشريرة بقتلهم والغدر بهم، إلاّ أنّ المبلغين استعدوا للقتال، فقال العدو: ما نريد قتالكم وما نريد إلاّ أن نصيب منكم من أهل مكة ثمنًا، ولكم عهد الله وميثاقه لا نقتلكم. فردّ عليه أحدهم: إني نذرت أن لا أقبل جوار مشرك. أو قالوا: والله لا نقبل من مشرك

عهداً ولا عقداً أبداً. ولذا فقد قاتلوا القوم قتال الأبطال فاستشهدوا إلا ثلاثة منهم: زيد بن دثنة، خبيب بن عدي، و عبد الله بن طارق البلوي، إذ أنهم استسلموا فأوثقوهم، ولكن عبد الله ندم على فعله فقاتلهم ثانية حتى قتل فدفن بمر الظهران. أما الآخران فباعوهما في مكة، حيث اشترى صفوان بن أمية، زيد بن دثنة وقتله ثاراً لأبيه. فقام أول شيء بحبسه في الحديد، وكان يتهدج بالليل و يصوم النهار، ثم أخرجه إلى التنعيم ليصلبه على مرأى من الناس، فطلب أن يصلى ركعتين، ثم حملوه على الخشبة وقالوا له: يا زيد إرجع عن دينك المحدث و أتبع ديننا و نرسلك، فيقول: والله لا أفارق ديني أبداً.

فقال له أبو سفيان: أشدك بالله يا زيد أيسررك أم محمداً في أيدينا مكانك وأنت في بيتك؟ فقال زيد بشجاعة: ما يسرنى أن محمداً أشيك بشوكة وإنني في بيتي وجالس في أهلي. فأثرت كلماته في نفس «أبي سفيان» فقال: ما رأينا أصحاب رجل قط أشد حباً في أصحاب محمد بمحمد. فصلبوه شهيداً دفاعاً عن العقيدة وحياض الدين.

أمّا خبيب فقد حبسوه فترة من الوقت ثم قرروا قتله صلباً أيضاً. فخرجوا به إلى التنعيم، وخرجت جماعة من النساء والصبيان والعبيد ومن أهل مكة، فقال

( ٢٧٣ )

لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا. فسمحوا له، ثم قال لهم: أما والله لولا أن تظنوا أنني إنما طولت جزءاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. فرفعوه على خشبة وقالوا: إرجع عن الإسلام نخلسيلك. فقال: لا والله ما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعاً. فقالوا له: أما واللوات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك. فقال: إن قتلي في الله لقليل. ثم صرفوا وجهه عن القبلة ووجهه نحو المدينة فقال: أما صرفكم وجهي عن القبلة فإن الله يقول: (فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) (١) اللهم إنني لا أرى إلا وجه عدو، اللهم إنه ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك السلام عنّي فبلغه أنت عنّي السلام. ثم دعا على القوم: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بديداً ولا تغادر منهم أحداً. ثم دعوا أبناء من قتل ببدر فكانوا أربعين غلاماً، أعطوا كل واحد منهم رحماً، وقالوا لهم: هذا الذي قتل آباءكم. فطعنوه برماحهم، فتحرك على الخشبة وصار وجهه نحو الكعبة فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضى لنفسه ولنبيه وللمؤمنين. فغضب أحد المشركين: عقبه بن الحارث لتمسكه بالإسلام وإخلاصه له، فطعنه طعنة قاتله وهو يوحد الله ويشهد أن محمداً رسول الله. وبقي جثمانه فترة على الخشبة بحراسة الكفار حتى أنزله اثنان من المسلمين الأشداء ودفناه كما أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد أحزن هذا الحادث الأليم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجميع المسلمين، وأنشد فيهم حسان بن ثابت أبياتاً ذكرها «ابن هشام» في سيرته. إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى

كان زهير بن أبي سلمى من شعراء العرب البارزين في العهد الجاهلي،

١. البقرة: ١١٥.

( ٢٧٤ )

وصاحب إحدى المعلقات السبع التي نصبت في الكعبة وتفتخر بها العرب. وتوفي قبل عصر الرسالة. وكان له ولدان: بجير و كعب. أما بجير فقد آمن بالإسلام ولازم النبي ص وأحبه، بينما عادى كعب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان يهجوهم في قصائده وأشعاره ويؤلب الناس على الإسلام. أما النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان قد هدد بالقتل بعض الشعراء الذين كانوا يهجونه «صلى الله عليه وآله وسلم» وأهدر دماءهم. فكتب بجير إلى كعب ينصحه: إن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً. فطمأن لكلام أخيه وتوجه إلى المدينة وقابل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في المسجد وقت صلاة الصبح، فصلّى معه لأول مرة و جلس إليه و وضع يده في يده والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يعرفه، فقال: يا رسول الله إن

كعب بن زهير جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «نعم». فقال: أنا يا رسول الله كعب ابن زهير. ثم أخرج قصيدته اللامية التي مدح فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنشدها بين يديه في المسجد ليتلافى بها ما سبق أن بدر منه من هجاء و طعن في سيد المرسلين

وقيل أن أحد الأنصار وثب عليه: يا رسول الله دعني وعدو الله أن أضرب عنقه. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً - عما كان عليه - .

وهذه القصيدة هي من أفضل قصائد كعب، اعتنى المسلمون بحفظها ونشرها منذ ذلك الوقت، كما شرحها علماء الإسلام كثيراً، وهي تضم ٥٨ بيتاً تنتهي قوافيها باللام المضمومة، ويبدأ مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيمم إثرها لم يفد مَكْبُولُ  
و سعاد هي زوجته وابنة عمه، بدأ بها كعادة شعراء العهد الجاهلي، إلى أن قال:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول  
( ٢٧٥ )

فأبدله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): إنالني لنور يستضاء به....

وقيل إنالني (صلى الله عليه وآله وسلم) كساه بردة كانت عليه، طلبها معاوية في زمنه، فقال كعب: ما كنت لأوتر بثوب رسول الله أحداً. فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم. ثم تداولها حكام بني أمية والعباس بعد ذلك. إسلام عدى بن حاتم

بعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ١٥٠ فارساً على رأسهم الإمام على (عليه السلام) إلى أرض طيء ليحطم صنم طيء و يهدم بيته، فنجح في مهمته، وفر عدى بن حاتم الطائي رئيس القبيلة إلى الشام، ويقول هو في ذلك: «فكنت إمراً شريفاً، وكنت نصرانياً، وأسير في قومي بالمرباع - أخذ الربع من الغنائم لأنه سيدهم - وكنت ملكاً في قومي لما كان يُصنع بي. فلما سمعت برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كرهته فقلت لغلام راعياً لابلي: إذا سمعت بجيش محمد قد وطى هذه البلاد فأذني. ففعل وقال: فإني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد. فاحتملت بأهلي وولدي وقلت: ألحق بأهل ديني من النصراري بالشام، وتركت أختي في قومي». وقد ظفر المسلمون بأخته في سبايا طيء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي أبلغوه عن هروبه إلى الشام. فوضعوها في مكان باب المسجد، فكانت تقول للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما تراه: يا رسول الله هللك الوالد وغاب الوافد، فامنن علي من الله عليك. قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «ومن وافدك؟» قالت: عدى بن حاتم. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «الفار من الله ورسوله». وكررت عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) قولها ثلاث مرّات، فقال لها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني». ولما قررت السفر مع جماعة من قومها قالت: فكساني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

( ٢٧٦ )

وسلم» وحملني وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام. ولما وصلت عند أخيها، أخذت تلومه: القاطع الظالم، احتملت أهلك وولدك، وتركت بقيته والدك، عورتك. فقال لها: لا تقولي إلاخيراً فوالله مالي من عذر. ثم سألتها: ماذا ترين عن أمر هذا الرجل - أي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تدل في عز اليمن وأنت أنت. فقال: والله إن هذا هو الرأي.

وعندما قدم إلى المدينة، اصططحه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى بيته، وأجلسه على وسادة طيبة، وجلس هو على الأرض. فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملكك. ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «إيه يا عدى بن حاتم، ألم تكن ركوسياً - وهو دين بين

النصارى و الصابئين ؟» قلت: بلى. فقال: «أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع؟» قلت: بلى. فعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يُجهل. فقد تنبأ أمامه بالرخاء وسعة المال للمسلمين، وازدياد عددهم، ومساحة الأرض التى يحصلون عليها، وسيطرتهم على الملك، و العيش بالقصور البيض من أرض بابل. فأسلم عدى بن حاتم. ورأى بعينه بعد فترة، القصور البيض فى بابل و قد فتحت، والمرأة تخرج من القادسية على بعيرها لتجباليت الحرام دون خوف.

و كان عدى يقول: قد مضت اثنتان و بقيت الثالثة... وأيم الله لتكونن الثالثة، ليفيطن المال حتى لا يوجد من يأخذه. ( ٢٧٧ )

## المصادر و المراجع

١. ابن أبى الحديد المعتزلى: شرح نهج البلاغة.
٢. ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن على بن محمد الجزرى: الكامل فى التاريخ.
٣. ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن على بن محمد الجزرى: أسد الغابة.
٤. الأحمدى، المحقق الشيخ على: مكاتيب الرسول.
٥. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن. بيروت دار النفائس ١٩٧٧م.
٦. الإصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين: مقاتل الطالبين.
٧. الإربلى، على بن عيسى: كشف الغمّة فى معرفة الأئمّة.
٨. الأمينى، الشيخ عبد الحسين: الغدير.
٩. ابن حبيب، أبو جعفر محمّد: المحبّر.
١٠. ابن حجر العسقلانى، الحافظ أحمد بن على بن محمد: الإصابة فى تمييز الصحابة.
١١. ابن حجر، أحمد الهيثمى: الصواعق المحرقة.
١٢. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانى: مسند أحمد.
١٣. ابن خلّكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر: وفيات الأعيان و أبناء أبناء الزمان.
١٤. ابن سعد، محمد بن سعد: الطبقات الكبرى.
١٥. ابن طاووس، السيد عبد الكريم: إقبال الأعمال. ( ٢٧٨ )

١٦. ابن عبد البرّ، الحافظ المالكى الأندلسى: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب.
١٧. ابن كثير، الحافظ عماد الدين: البداية و النهاية.
١٨. ابن هشام، محمد بن عبد الملك: السيرة النبوية.
١٩. ابن القيم، العلامة شمس الدين الجوزية: زاد المعاد فى هدى خير العباد.
٢٠. ابن معد، السيد شمس الدين فخار: حجّة الذهاب إلى إيمان أبى طالب.
٢١. ابن واضح، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب: تاريخ يعقوبى.
٢٢. أبو نعيم، الإصفهاني: حلية الأولياء.
٢٣. البحرانى، السيد هاشم: تفسير البرهان.
٢٤. البخارى، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: الصحيح.



٢٥. البرهان فوري، علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندي: كنز العمال.
٢٦. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان.
٢٧. البيروني، أبو الريحان محمد أحمد الخوارزمي: الآثار الباقية عن القرون الخالية.
٢٨. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: ثمار القلوب.
٢٩. الحاكم النيسابوري، الحافظ أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله: المستدرک.
٣٠. الحسيني، السيد علي خان المدني: الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية.
٣١. الحرّ العاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة.
٣٢. الحلبي، الشيخ علي بن برهان الدين الشافعي: السيرة الحلبية.
٣٣. الحيدر آبادي، محمد حميد الله: مجموعته الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.
٣٤. الديار بكرى، القاضي حسين بن محمد بن الحسن المالكي: تاريخ الخميس.
٣٥. الرازي، فخر الدين: مفاتيح الغيب.
- ( ٢٧٩ )
٣٦. الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل.
٣٧. السبحاني، الشيخ جعفر: مفاهيم القرآن.
٣٨. السبحاني، الشيخ جعفر: معالم التوحيد في القرآن الكريم.
٣٩. السيوطي، الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين: الدر المنثور.
٤٠. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: الملل و النحل.
٤١. الصدوق، محمد بن علي القمي: الخصال.
٤٢. الصدوق، محمد بن علي القمي: علل الشرائع.
٤٣. الطباطبائي، السيد محمد حسين: تفسير الميزان.
٤٤. الطبرسي، أحمد بن علي: مجمع البيان في تفسير القرآن.
٤٥. الطبرسي، فضل بن الحسن: إعلام الوري بأعلام الهدى.
٤٦. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك.
٤٧. الطوسي، محمد بن الحسن: الآمالى.
٤٨. القمي، الشيخ عباس: سفينة البحار.
٤٩. كحالة، عمر رضا: أعلام النساء.
٥٠. الكراجكي، أبو الفتح محمد بن علي: كنز الفوائد.
٥١. الكليني، محمد بن يعقوب: فروع الكافي.
٥٢. الكليني، محمد بن يعقوب: روضة الكافي.
٥٣. الكوفي، أبو القاسم: الاستغاثة.
٥٤. المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار.
٥٥. الشريف الرضى: نهج البلاغة، شرح محمد عبده.
٥٦. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري: الصحيح.



( ٢٨٠ )

٥٧. المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان: الإرشاد.
٥٨. المقریزی، تقی الدین أبو محمد: إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع.
٥٩. النسائی، القاضي أحمد بن شعيب بن علي: سنن النسائی.
٦٠. الواقدي، محمد بن عمرو: المغازی.

### تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكمم وأنفسكمم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رحمه الله" - كان أحدًا من جهاذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفي مصباحها، بل تتبع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايت المبتدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعه، و...

- منها العدالة الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في أكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الايرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى.

- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيره SMS

ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعىة و اعتبارىة، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمىة، الجوامع، الأماكن الدينىة كمسجد جَمكران و...

ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسة " الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليمىة عمومىة و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنّة

المكتب الرئىسى: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد/ " ما بين شارع " پنج رَمضان " و مُفترق " وفانى / " بنايه " القائمىة "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرىة الشمسىة (=١٤٢٧ الهجرىة القمرىة)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوىة الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

البريد الالكترونى: [Info@ghaemiyeh.com](mailto:Info@ghaemiyeh.com)

المتجر الانترنتى: [www.eslamshop.com](http://www.eslamshop.com)

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارىة و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمىن ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتىة الحالىة لهذا المركز، شَعبىة، تبرعىة، غير حكومىة، و غير ربحىة، اقتنىت باهتمام جمع من الخىرين؛ لكنّها لا تُوفى الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينىة و العلمىة الحالىة و مشاريع التوسعة الثقافىة؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمىة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقىة الله الأعظم (عَجَل اللهُ تعالى فرجه الشريف) أن يُوفِقَ الكلّ توفيقاً متزائداً ليعانثهم - فى حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)  
[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)  
[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)  
[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

